صالحني، وإلى الظاهر بمثل ذلك.
واتفق في فساد حال الأفضل أن جماعة الأمراء كان بأيديهم إقطاعيات بالديار المصرية
جليلة المقدار، فحسدهم آخرون عليها، فكانوا يأتون إلى الملك الأفضل ويقولون: إن فلاناً
قد عزم على قصد عمك العادل والانضمام إليه، ويأتون لذلك الأمير فيقولون: إن الأفضل قد
عزم القبض عليك، ويأتي ذلك الأمير إلى الأفضل فيرى في وجهه التغير لما نقل عنه، فلا
يشك ذلك الأمير في صدق الناقل فالتحق به جماعة من الأمراء.
فبينما الأفضل كذلك إذ قدم الملك الكامل بن الملك العادل من الشرق، في تاسع عشر
صفر سنة ست وتسعين وخمسمائة، بالعساكر والتركمان فاشتد به عضد أبيه. وتأخر
الأفضل بمن معه إلى سفح جبل العقبة، ثم انتقل إلى مرج الصفر في يوم الاثنين ثاني عشر
صفر، وعاد الظاهر والمجاهد.
واشتد البرد على العسكر المصري فعاد الأفضل إلى الديار المصرية، وساق العادل
بعساكره في أثره. فكان وصول الأفضل إلى بلبيس في حادي عشري شهر ربيع الأول
فأشار عليه أصحابه بالإقامة بها.
قال: ولما وصل الملك العادل إلى تل العجول أقام به حتى اجتمع إليه أصحابه، وراسل
الأفضل، فعاد جوابه أنه لا يصالحه حتى يفارق الأمراء الصلاحية.
فلما اتصل ذلك بالصلاحية غضبوا وعزموا على المسير إليه.
هذا والأفضل على بلبيس، وقد تفرق معظم أصحابه إلى إقطاعياتهم وجماعة منهم
باطنوا الملك العادل.
ومضى الملك العادل يطوي المراحل إلى أن دخل الرمل وبلغ الملك الأفضل ذلك، فرام جمع
عساكره، فتعذر ذلك عليه لتفرقهم في أخبارهم، وتشتتهم في الأماكن التي يربعون فيها
خيلهم، فخرج في جمع قليل، ونزل السانح.
ووصل الملك العادل، وضرب معه مصافا، فانكسر عسكر الملك الأفضل، وولوا منهزمين
لا يلوون على شيء.
ثم سار الملك العادل بالعساكر، ونزل بركة الجب، وسير إلى الملك الأفضل يقول له: أنا لا
أحب أن أكسر ناموس القاهرة، لأنها أعظم معاقل الإسلام، ولا تحوجني إلى أخذها
بالسيف، واذهب إلى صرخد وأنت آمن على نفسك.

فاستشار الملك الأفضل الأمراء فرأى منهم تخاذلاً، فأرسل إلى عمه يطلب منه أن يعوضه
عن الديار المصرية بالشام، فامتنع من ذلك، فطلب أن يعوضه حران والرها فامتنع، فطلب
منه جافى وجبل جول وميافارقين وسميساط، فأجابه إلى ذلك، وتسلم القاهرة منه.
الملك العادل سيف الدين
أبي بكر بن أيوب، وسلطنته
كان دخول السلطان الملك العادل إلى القاهرة في يوم السبت، لاثنتي عشرة ليلة بقيت من
شهر ربيع الآخر، سنة ستٍ وتسعين وخمسمائة - في يوم خروج الملك الأفضل منها.
فاستبقى رضاء الأمراء الناصرية، بإبقاء الخطبة للملك المنصور بن الملك العزيز. وأعاد
قاضي القضاة: صدر الدين عبد الملك بن عيسى بن درباس، إلى القضاء - وكان الأفضل
قد عزله واستقضى زين الدين علي بن يوسف.
واستدعى الملك العادل ابنه الملك الكامل من حران إلى الديار المصرية، ليستنيبه بها.
فسلم تلك الولاية لأخيه الملك الفائز، ووصل إلى دمشق، في سادس عشر شعبان من السنة
- ومعه شمس الدين، المعروف بقاضي دارا، وهو وزيره. وخرج من دمشق في الثالث
والعشرين من الشهر، ووصل إلى القاهرة لثمان بقين من شهر رمضان. فالتقاه والده وأنزله
بالقصر. ثم ركب إليه بعد يومين، واستصحبه معه إلى الدار - وكان قد زوجه بابنة عمه
الملك الناصر، فدخل بها.
قال: وركب الملك العادل - في يوم الاثنين - بالصنجق السلطاني. وأمر الخطباء بالخطبة له
ولولده: الملك الكامل بولاية العهد من بعده - بعد الخليفة - فخطب لهما في الحادي
والعشرين من شوال، سنة ست وتسعين وخمسمائة. وانقطعت خطبة المنصور بن الملك
العزيز، وأولاد الملك الناصر صلاح الدين يوسف، فلم تعد إلى الآن. وانتقل ملك الديار
المصرية إلى البيت العادلي، فكان فيهم إلى أن انقرضت الدولة الأيوبية.
قال المؤرخ: ولم يقطع الملك العادل خطبة الملك المنصور إلا بعد أن أحضر الفقهاء والقضاة،
واستفتاهم: هل تجوز ولاية الصغير والنيابة عنه ؟ فقالوا: إن الولاية غير صحيحة، ولا

تصح النيابة - لا سيما في السلطنة - فإنه لاحق فيها للصغير.
فأحضر الأمراء وخاطبهم
في اليمين له، فأجابوه إلى ذلك، وحلفوا له. قال: وركب الملك الكامل في يوم السبت
بالصنجق السلطاني - على عادة الملوك.
قال: ولما وصل الملك العادل، كان الصاحب: صفي الدين عبد الله ابن علي بن شكر في
صحبته، فاستوزره. وكان - على ما حكى - قد استحلف الملك العادل بالبيت المقدس،
أنه متى حصل له ملك الديار المصرية يمكنه من المصريين، فحلف له على ذلك. فلما ولى
السلطنة استوزره، ومكنه.
الغلاء المشهور
قال المؤرخ: كان ابتداء هذا الغلاء من استقبال شوال - وقيل ذي القعدة - سنة ست
وتسعين وخمسمائة، إلى ذي القعدة سنة تسع وتسعين، فكانت مدته ثلاث سنين وشهراً.
وذلك أن قرار النيل في سنة ست وتسعين كان مقداره ذراعان، وبلغ غايته إلى اثني عشر
ذراعاً وإحدى وعشرين إصبعاً. فصام الناس ثلاثة أيام، قبل يوم التروية، واستسقوا ثلاثة
أيام، آخرها يوم العيد. ثم أخذ الماء في النقص، فاشتد الغلاء وامتد البلاء، وهلك القوى،
فكيف الضعيف !. قال العماد الأصفهاني: وبلغ سعر القمح عن كل إردب الكيل المصري
خمسة دنانير. واستقر القاع في سنة سبع وتسعين على ذراعين، وبلغ غايته خمسة عشر
ذراعاً ونصف ذراع. فعدم الناس القوت، وأكل بعضهم بعضاً، وأكلوا أولادهم والميتة.
وخرج خلقٌ كثير من الديار المصرية إلى الشام والسواحل.
وحكى ابن جلب راغبٍ في تاريخ مصر: أنه نودي على دجاجة، تزويد فيها إلى أن بلغت
ألف درهم ورقاً. وبيعت بطيخة بفرس. قال: وكانت الدجاجة تباع بالأوقية. وحكى -
أيضاً - أن بعض الناس سمع صياح امرأة، تفتر ثم تعاود الأنين والصراخ ! فتتبع الصوت،
حتى انتهى به إلى منزل وفيه امرأة سمينة ملقاة، وشاب يقطع من لحم فخذها. فلما رأتهم
قالت: لا تعارضوه فإنه ابني، وأنا قلت له يقطع من لحمي، ويأكل ويطعمني، مما آلمنا من الجوع
ولم يسمع بمثل هذا.
وفاة القاضي الفاضل

وشيء من أخباره
هو القاضي الفاضل الأسعد محي الدين، أبو علي عبد الرحيم، بن القاضي الأشرف أبي
الحسين علي بن الحسن، بن الحسين بن أحمد، بن الفرج بن أحمد، اللخمي - الكاتب.
كانت وفاته فجأة في ليلة الأربعاء، السابع من شهر ربيع الآخر، سنة ست وتسعين
وخمسمائة. ومولده بعسقلان في خامس عشر جمادى الآخرة، سنة تسع وعشرين
وخمسمائة.
وكان أبوه قاضي عسقلان، وصاحب ديوانها. ونسبته إلى بيسان نسبة انتقال. وذلك أن
قاضي عسقلان كان قاضي البلاد الشمالية من ساحل الشام، وبيسان في ولايته. وكان إذا
خرج إليها قاضٍ لحقه من الوخم ما يوجب مرضه، ومنهم من يموت. فقرر قاضي عسقلان
على الشهود أن يخرج كل واحد منهم إلى بيسان ثلاثة أشهر، ويعود، ويخرج غيره. فجاءت
النوبة لحد القاضي الفاضل، فمضى إليها وصح بها جسمه. فاختار الإقامة بها. فأجيب
إلى ذلك وعمر بها أملاكاً، فعرف بالبيساني.
ثم تقلبت بوالد القاضي الأحوال إلى أن ولي القضاء بعسقلان، والنظر في أموالها. وبقي
إلى زمن الظافر، فدخل إلى مصر لمحاققة واليها بسبب كندٍ كبيرٍ، من الفرنج كان الوالي
داجى عليه وأطلقه. فانتصر بعض الأمراء للوالي ونصروه، فخانق الأسعد. وصودر، ووقع
التحامل عيه، إلى أن لم يبق له شيء.
وخرج ولده الفاضل إلى ثغر الإسكندرية، واجتمع بابن حديد - القاضي والناظر بها -
وعرفه بوالده فعرفه بالسمعة، فاستكتبه ابن حديد، وأطلق له معلوماً. وبقيت كتبه ترد إلى
مجلس الخلافة بخط الفاضل وهي مشحونةٌ بالبلاغة. فكشف عن ذلك ابن الخلال
والجليس بن الحباب - وكانا في ديوان المكاتبات - فحسداه على فضيلته، وعلما أنه يتقدم،
فقالا للظافر عنه: انه قصر في المكاتبة.
وكان صاحب ديوان المجلس - الأثير بن بنان - يحكى أنه دخل على الظافر، فأمره أن
يكتب لابن حديد بقطع يد كاتبه، بسبب أنه جعل بين السطرين الأولين مقدار شبر، وهذا

سوء أدب، فقال الأثير للظافر: يا أمير المؤمنين، تأمر بإحضار الكتب، فأحضرت. فلما
قرأها الأثير علم فضل الفاضل، فقال له: هذا الكاتب لم يحصل منه سوء أدب، وانما حسد
على بلاغته، فعمل على أذاه. فقال: اكتب لابن حديد يسيره إلينا، لنستخدمه. فصار من
كتاب الدرج، في أواخر الدولة العبيدية.
وأما اتصاله بملوك الدولة الأيوبية فحكى عن الأثير بن بنان أنه قال: لما ولي أسد الدين
شيركوه اختص به ابن الصقيل البلنسي. وكنت بالقصر أنا والفاضل، فدخل علينا ابن
الصقيل وقال: كنت البارحة عند السلطان، وذكركما وتوعدكما بالقتل. ثم خرج من
عندنا. فلم يكن بأسرع من أن طلبنا أسد الدين من العاضد، فأرسلنا إليه.
قال الأثير: فلما دخلنا عليه وجدنا الأمراء عنده. فسلمت سلاماً سمعه من حضر، فلم
يرد علينا! فقلت له: ولم لا ترد السلام ؟ فالتفت إلي، وقال: لستما عندي من أهل السلام
! لأن النبي صلى الله عليه وسلم يقول: السلام تحيةٌ لملتنا، وأمانٌ لذمتنا. ولا تحية لكما
عندي ! فوقفنا، فقلت: لا قدرة لي على القيام، فقال أجث، فجثوت. ثم قلت ولم لا أتربع
؟ ففسح لي في ذلك. قلت: وصاحبي. قال: وصاحبك.
ثم التفت إليه دوني، وقال له: تكتب للفرنج على لسان شاور، وتقول في حقنا ما قلت،
وتحثهم على قتالنا ! والله لأقتلنك شر قتلة، ولأسلن لسانك، ولأقطعن يدك ورجلك، من
خلاف !! فقلت: أدام الله سلطان مولانا. هذا القاضي إذا عدم، لا يوجد مثله في جميع
البلاد. فالتفت إلي، وقال: نجرب قولك. وقال له: أكتب كتابين: أحدهما للمولى نور الدين بن
زنكي، يقرأ على منبر دمشق يهنيه بالفتوح، وكتاب يقرأ على منبر القاهرة. واشتغل في
الحديث. فسارع الفاضل في انجاز الكتابين، وجعل أسد الدين يسارقه النظر، والفاضل
يكتب كأنه يكتب من حفظه. وفرغ منهما إلى أسرع وقت. فقال أسد الدين: أقرأهما،
فقرأهما. قال الأثير: والله لو حسن الرقص في ذلك المكان، لرقصت !.
فعند ذلك التفت إلى أسد الدين، وقال: يا قاضي، جزاك الله خيراً في حقه. عندنا كتبةٌ

بالشام نأمرهم بالشيء، فيمضون ويقيمون اليوم واليومين، ولا يأتون به على الغرض. وهذا
قلنا له كلمتين، كتب هذه الكتب التي لا نظير لها. وأقمنا عنده إلى صلاة المغرب، فقام
للصلاة. فقال لي: تقدم. فقلت: هذا أفضل مني، لأني توليت المكوس، وهذا لم يل شيئاً
منها. فتقدم الفاضل وصلى. واتصل به. هذا ما نقل عن الأثير بن بنان.
وقيل: إنه لما اتصل بخدمة الملك الناصر صلاح الدين، وأن الأثير كان يكتب بين يديه قبله،
فاشتكى من بطئه في المكاتبات، فقيل له: إن الأسعد البيساني لم يكن في الكتاب أرشق
منه. فاستدعاه وأمره بكتاب، فكتب بين يديه وبالغ فيه، وأسرع في انجازه وقرأه عليه.
فعظم عند الملك الناصر، ونعته بالقاضي الفاضل. وكان له شعر حسن.
وقيل: إن أول اتصال الفاضل بالدولة العبيدية في أيام العادل بن الصالح ابن رزيك. وأنه
استخدم في ديوان الجيوش، فأقام فيه مدة. فلما كانت دولة شاور الثانية، نقله إلى ديوان
المكاتبات شريكاً للموفق بن الخلال. فلم يزل إلى أيام أسد الدين، فاتفق له ما ذكرناه.
ولما استقر الملك الناصر في الملك، علت منزلته عنده، واختص به وقرب منه، وتمكن في
دولته. قال: ومن سعادة الفاضل أنه مات قبل ملك العادل، لأنه كان بينهما شحناء باطنة.
ولما مات، صلى عليه الملك الأفضل. ودفن بسفح المقطم - رحمه الله. وقد ذكرنا من
كلامه في باب كتابة الإنشاء ما يدل على تمكنه وفضله.
واستهلت سنة سبع وتسعين وخمسمائة
الأمراء الصلاحية والملك العادل
قال المؤرخ: كان ابتداء فساد الحال بينهم في سنة سبع وتسعين وخمسمائة.
وسبب ذلك أن الملك العادل لما ملك الديار المصرية أقطع الإقطاعات المحلولة عن الأمراء
المنصرفين عن الخدمة، وحاسب المستمرين حساباً شديداً، فساءت ظنونهم وتغيرت
قلوبهم، وفسدت نياتهم.
وكان فارس الدين ميمون القصري مقيماً بنابلس، فلما بلغه إسقاط خطبة الملك المنصور
بن العزيز، واستقلال الملك العادل بالملك - عظم ذلك عليه ونفر منه، وأنكره. وكتب إلى

الملك العادل يقول: إنا إنما دخلنا في طاعتك، ونصرناك على مواليناً: أولاد الملك الناصر،
مراعاةً للملك العزيز، وخوفاً أن يتطرق إلى ولده ضرر ويزول عنه ملكه، ولا بد أنه تعيده إلى
حاله. وإن لم ترجع عما فعلت، كان ذلك سبب فساد قلوب الجند، ودخول الوهن على
الدولة. فغالطه العادل في الجواب.
فراسله ميمون ثانياً يقول إنا كنا حلفنا على قاعدة، فإن كانت تغيرت فلا يسعنا المقام بعد
ذلك بهذه الدار، وأنا أسال أن أعطى دستوراً ليقوم عند الله وعند الناس عذرى، فأرسل
إليه الملك العادل، يقول: لم أدخل في هذا الأمر إلا بعد أن رضي به الجماعة. فإن كرهت
مجاورتي فصر إلى أرزن الروم، وتزوج بصاحبتها ماما خاتون، فإنها أرسلت إلي وطلبت
مني من أنفذه إليها.
وكان ميمون قد كاتب الأمراء الصلاحية، فأجابوه: إنا قد افتضحنا بين الناس بأننا نقيم في
كل يوم ملكاً، ونعزل آخر. ثم إلى من نسلم هذا الأمر ؟ أما الملك الأفضل فغير أهل،
وغيره من إخوته فغير عظيم في الأنفس. والملك الظاهر بعيد عنا، ولا يمكنه أن يترك بلاده
ويصير إلينا.
قال: واتفق ورود رسل الملك الظاهر - صاحب حلب - إلى عمه العادل، في شهر ربيع
الآخر من السنة، وهما: نظام الدين كاتبه، وعلم الدين قيصر الصلاحي. فلما وصلا إلى
بلبيس، أرسل العادل إليهما أن لا يدخلا القاهرة. وأن يذكرا رسالتهما لقاضي بلبيس يبلغها
عنهما، وإن لم يفعلا فيرجعا إلى صاحبهما.
فعادا إلى الملك الظاهر، واجتمعا بميمون القصري في عودهما، ورغباه في الخدمة
الظاهرية. فمضى إلى صرخد وبها الملك الظافر أخو الأفضل. ولحق بميمون جماعة من
الصلاحية.
واعتزل عنه فخر الدين جهاركس في قلاعه - وكان معه بانياس وتبنين وشقيف أرنون
ووافقه على الاعتزال زين الدين قراجا، وأظهر الاعتزال عن الفريقين. وباطنهما مع الملك
العادل.
قال: ولما وصل ميمون إلى صرخد، كاتب الأفضل والظاهر ودعاهما إليه. وأنفذ إلى الملك

الظاهر فخر الدين الطنبا الجحاف فلما وصل إليه، قوى عزم الملك الظاهر على الخروج.
فراسل ميمون، وأخذ عليه وعلى من معه من الأمراء العهود والأيمان.
ثم قدم عليه أخوه الأفضل في تاسع جمادى الأولى، وسارا إلى أفاميه، وبها قراقوش - مملوك شمس الدين بن المقدم - فأغلق الأبواب دونهما، وامتنع من تسليمها. فضرب الظاهر ابن المقدم تحت القلعة ضرباً موجعاً، بحيث يراه مملوكه قراقوش، فلم يكترث لذلك. وراسله ابن المقدم في تسليمها، فامتنع كل الامتناع. فلما أيس الظاهر منه أرسل ابن المقدم إلى حلب، وأمر باعتقاله بها.
وسارا بعد ذلك إلى بعلبك لقصد دمشق، وسار إليهما ميمون القصري ومن معه والملك الظافر، واجتمعوا بمكان يعرف بالزراعة. وتشاوروا على قصد دمشق، وبها يومئذ الملك المعظم عيسى بن العادل وهو صغير، والقيم بأمره فلك الدين سليمان بن شروة بن جلدك - وهو أخو العادل لأمه - ومن الأمراء الأكابر عز الدين أسامة. فساروا بأجمعهم إلى دمشق، وحاصروها في رابع عشر ذي القعدة، سنة سبع وتسعين، واشتد الحصار.
قال: ولما اتصل بالملك العادل خروج الظاهر من حلب، خرج من القاهرة في شهر رمضان من السنة. وجد السير إلى أن نزل على نابلس، وجعل يعمل الحيل والمكايد بين الظاهر والأفضل، وإفساد قلوب الأمراء الذين مع الظاهر. وأرغب الملك الظاهر أنه إن فارق أخاه الأفضل يملكه قطعة من بلاد المشرق، التي بيد العادل.
وكاتب الظاهر فخر الدين جهاركس، وزين الدين قراجا، وأرغبهما في الانضمام إليه. فوقع الاتفاق معهما - بعد مراجعة - أن الأفضل يسلم لزين الدين قراجا صرخد وعشرة آلاف دينار، وللأمير فخر الدين جهاركس عشرين ألف دينار. واستقرت القاعدة على ذلك. فلما تسلما ذلك وصلا إلى الخدمة الظاهرية، واجتمعا بالأفضل والظاهر.
ثم شرعا يستوقفان الأمراء عن حصار دمشق. فاتصل ذلك بالملكين فهرب جهاركس وقراجا وصار إلى بانياس، فراسلهما الظاهر وقبح فعلهما. فأعادا الجواب: إنا قد

استشعرنا الخوف بسبب ما نسب الينا. ونحن على الطاعة ومتى فتحت دمشق كنا في
خدمتكما. وجد الظاهر في حصار دمشق إلى أن نزل وقاتل بنفسه، وجرح في رجله
بسهم. ثم هرب الطنبا الهيجاوي من عسكر الظاهر وتلاه علاء الدين شقير، ودخلا
دمشق. ودخل معهما جماعة من المفاردة فانحل لذلك عزم الظاهر، ورجع عن دمشق إلى
بلاده وصحبه الملك الأفضل.
وقيل: بل كان سبب الرجوع عن دمشق أن الاتفاق كان قد حصل بين الأخوين: الأفضل
والظاهر، على أنه إذا فتحت دمشق كانت للأفضل. فإذا استقر بها، سار هو والظاهر إلى
مصر، وقاتلا العادل، فإذا حصلت مصر لهما تكون حينئذ للأفضل، ودمشق للظاهر. فلما
قوى الحصار على دمشق ولم يبق إلا فتحها، حسد الظاهر أخاه الأفضل عليها، وقال
آخذها لنفسي. فلاطفه الأفضل وسأل أن ينعم بها عليه، فامتنع، وقال: إن فتحت تكون
لي دونك. فلما أيس منه الأفضل، خرج من ساعته واجتمع بالأمراء، وقال: إن كنتم
خرجتم إلى فقد أذنت لكم في الرجوع إلى العادل، وإن كنتم خرجتم إلى أخي الظاهر
فشأنكم وإياه. وكتب في الوقت إلى عمه الملك العادل، وهو يطلب منه سميساط وسروج
ورأس العين، فأعطاه ذلك، وحلف عليه. فلما اتصل ذلك بالظاهر كتب أيضاً إلى عمه
العادل، يطلب منه منبج وأفامية وكفر طاب، فأعطاه ذلك. وارتحلا عن دمشق.
فبقى الأفضل بسميساط، إلى أن مات.
وعاد الظاهر إلى حلب. وصحبه ميمون القصري. فأقطعه الظاهر إقطاعات عظيمة.
وهي: أعزاز وقلعتها، والخوار وبلدها، ونهر الجوز وبلده، وجسر الحديد وبلدها، وأماكن
متفرقة، وأكرمه إكراماً تاماً. وبقي في خدمته، إلى أن مات في سنة عشر وستمائة. وسار
معه أيضاً سرا سنقر والفارس البكي، وجماعة الصلاحية، وأقطعهم الإقطاعات الحسنة.
وكان رحيلهم عن دمشق في ذي الحجة، سنة سبع وتسعين وخمسمائة، وسار الملك
العادل ودخل دمشق. واصطلح مع الملك المنصور صاحب حماه. وتزوج العادل ابنته.

اتفاق الملوك الأيوبية
وما استقر لكل منهم من الممالك
قال المؤرخ: ثم استقرت القاعدة بين الملوك، في سنة تسع وتسعين وخمسمائة على أن يكون
للملك العادل الديار المصرية، ودمشق والسواحل وبيت المقدس، وجميع ما هو في يده ويد
أولاده ببلاد الشرق.
وأن يكون للملك الظاهر حلب وما معها. وأن يكون للملك المنصور - ناصر الدين محمد
بن تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب - حماه وأعمالها، والمعرة وسلمية وبارين.
وأن يكون للملك المجاهد أسد الدين شيركوه بن محمد بن شيركوه حمص، والرحبة، تدمر.
وأن يكون للملك الأمجد، بن فرخشاه ابن شاهنشاه بن أيوب، بعلبك وأعمالها.
وأن يكون للملك الأفضل، بن الملك الناصر، سميساط وبلادها، لا غير.
وأن يقطع الملك الظاهر خبز عماد الدين المشطوب ولا يستخدمه. فقطع خبزه، فصار إلى
الملك العادل فلم يستخدمه، وقال له: تخدم بعض أولادي. فقصد الملك الأوحد، فلم
يستخدمه. فاستخدمه الملك الأشرف، وندبه لحصار ماردين، وحلف له على أربعمائة
فارس، إذا فتحت. فسار ابن المشطوب إليها وحاصرها، فأرسل صاحبها إلى الملك
الأشرف خمسة آلاف دينار، فتركها.
نعود إلى أخبار الملك العادل، في أثناء هذه المدة التي قدمنا ذكرها، والحوادث التي وقعت
في خلالها.
وفي سنة سبع وتسعين وخمسمائة، في ذي القعدة، اعتقل الملك العادل، الملك المؤيد والملك
العزيز وهما: ابنا أخيه صلاح الدين يوسف. رحمه الله تعالى.
زلزال في مصر والشام
الحادثة بالديار المصرية والبلاد الشامية، وغيرها
وفي هذه السنة في شعبان، جاءت زلزلةٌ من الصعيد، فعمت الدنيا في ساعة واحدة.
وهدمت أماكن كثيرة بالديار المصرية، ومات تحت الهدم خلقٌ كثير.
وامتدت إلى الشام والساحل، فهدمت مدينة نابلس، فلم يبق بها جدارٌ قائم إلا حارة
السامرة، ومات تحت الهدم ثلاثون ألفاً. وهدمت عكا وصور وجميع قلاع الساحل.

وامتدت إلى دمشق، فرمت بعض المنارة بالجامع، وأكثر الكلاسة والبيمارستان النورى،
وعامة دور دمشق إلا القليل. وهرب الناس إلى الميادين.
وسقط من الجامع ستة عشر
شرفة، وتشققت قبة النسر.
وتهدمت بانياس وهونين وتبنين. وخرج قوم من بعلبك يجمعون الريباس من جبل لبنان،
فالتقى عليهم الجبلان، فماتوا بأسرهم. وتهدمت قلعة بعلبك - مع عظم حجارتها.
وامتدت إلى حمص، وحماه، وحلب، والعواصم.
وقطعت البحر إلى قبرص، وانفرق البحر فصار أطواداً، وقذف بالمراكب إلى الساحل،
فتكسرت. ثم امتدت إلى خلاط وأرمينية وأذربيجان والجزيرة.
وأحصى من هلك في هذه السنة، بسبب هذه الزلزلة، فكانوا ألف ألف إنسان، ومائة
ألف. وكانت قوة الزلزلة، في مبدأ الأمر، بمقدار ما يقرأ الإنسان سورة الكهف. ثم دامت
بعد ذلك أياماً.
حكى ذلك أبو المظفر يوسف سبط بن الجوزي في تاريخه: مرآة الزمان. وقد ذكرت زلزلة
أيضاً في شعبان، سنة ثمان وتسعين وخمسمائة، وذكر مما حدث بسببها نحو هذا. فالله
أعلم: هل هي هذه، أو هما اثنتان ؟.
وفي هذه السنة توفي الأمير بهاء الدين قراقوش الأسدي، الزمام، في مستهل شهر رجب
بالقاهرة، وله من العمر ثمان وثمانون سنة.
وهو الذي عمر سور القاهرة، وقلعة الجبل وقناطر نهيا من الجيزة. وعمر بالمقس رباطاً،
وبظاهر القاهرة - خارج باب الفتوح - سبيل. والناس ينسبون إليه في ولايته أحكاماً
غريبة، حتى وضع الأسعد بن مماتى خبراً لطيفاً، سماه الفاشوش في أحكام قراقوش، ذكر
فيه أشياء يبعد وقوعها من مثله، فإن الملك الناصر صلاح الدين يوسف، مع حسن تدبيره
وسداد رأيه، كان يعتمد عليه في المهمات الجليلة والمناصب العالية، وثوقاً بمعرفته وكفايته.
والله أعلم. ولما مات، أقطع الملك العادل إقطاعه لابنه الملك الكامل.
وفيها، في يوم الاثنين مستهل شهر رمضان، توفي بدمشق القاضي عماد الدين محمد بن
محمد بن حامد، الأصفهاني، الكاتب، صاحب الخريدة، والرسائل المشهورة. ومولده في يوم

الاثنين، ثاني جمادى الآخرة، سنة تسع عشرة وخمسمائة.
وفيها كانت وفاة الشيخ جمال الدين أبو الفرج: عبد الرحمن، بن علي، بن عبيد الله، بن
حماد، بن أحمد، بن جعفر، الجوزي الواعظ، البكري التيمي ببغداد، في الليلة المسفرة عن
يوم الجمعة، ثالث عشر رمضان. ودفن يوم الجمعة عند قبر الإمام أحمد بن حنبل - رحمهما
الله تعالى.
واستهلت سنة ثمان وتسعين وخمسمائة:
عمارة المسجد الجامع بقاسيون
في هذه السنة، شرع الشيخ أبو عمر محمد بن أحمد بن محمد بن قدامة المقدسي الحنبلي
شيخ المقادسة - رحمه الله تعالى - في بناء المسجد الجامع، بجبل قاسيون. وكان بالجبل
رجل فامى، يقال له أبو داود، فوضع أساسه وبلغ قامة، وأنفق عليه ما كان يملكه. وبلغ
مظفر الدين بن زين الدين صاحب إربل ذلك، فبعث إلى الشيخ أبي عمر مالاً يملكه، ووقف
عليه وقفاً. ثم أرسل ألف دينار. وأراد أن يسوق إليه الماء من برزه، فقال الملك المعظم
عيسى: طريق الماء كلها مقابر، فكيف يجوز أن تنبش أموات المسلمين ! وأشار أن
يشترى بغل يدور بدولاب، ويشترى ببقية المال مكان يوقف عليه. ففعلوا ذلك.
وفاة الملك المعز صاحب اليمن
وقيام أخيه نجم الدين أيوب
كانت وفاة الملك المعز: فتح الدين أبي الفدا إسماعيل، بن الملك العزيز، ظهير الدين أبي
الفوارس: سيف الإسلام طغتكين بن أيوب، ملك اليمن بالقرو من أعمال زبيد، في شهر
رجب سنة ثمان وتسعين وخمسمائة.
وكان قد ادعى أنه من بني أمية، وتلقب بألقاب الخلفاء، وهو الإمام الهادي بنور الله، المعز
لدين الله، أمير المؤمنين. وغير زيه، فلبس القميص الواسع والعمامة والطيلسان. وكتب إليه
عمه العادل ينكر عليه ذلك، فلم يجبه. وكان سبب ذلك أن الشعراء باليمن سموه في
مدائحهم بالخليفة، وفضلوه على من سواه. ومنهم من امتدحه بقوله:
بني العباس هاتوا ناظرونا. .
وهي أبيات لم يقع لي منها غير هذا.

ولما مات، قام بعده بملك اليمن أخوه: نجم الدين أيوب، وتلقب بالناصر. وكان دون البالغ،
فقام بأمره سيف الدين: مملوك أبيه.
وفيها توفي الرئيس مؤيد الدين، أبو المعالي: أسعد، بن عز الدين أبي يعلى حمزة، بن
القلانسي التميمي بدمشق، فجأة في رابع عشرين شهر ربيع الأول. ومولده في سابع عشر
شهر رمضان سنة سبع عشرة وخمسمائة.
وكان رئيس دمشق وكبيرها وصدرها. وسائر أهل البلد تحت حكمه، وهو المقدم
عليهم. وكان الدماشقة في الزمن الأول لكل طائفة منهم مقدم، يركبون مع الملوك ويجاهدون
الفرنج. ولكل طائفة قطعة من السور يحفظونها، بغير إقطاع لهم على ذلك ولا جامكية.
وما برح الحال على ذلك إلى زمن الملك المعظم عيسى بن الملك العادل، فأبطل ذلك وقال:
لا نقاتل بالعوام. وإنما فعل ذلك خوفاً على نفسه منهم، فإنهم كانوا إذا طلبهم ملك قتلوه.
ولما ولى الملك الصالح إسماعيل بن الملك العادل دمشق، شرع في مصادرة أكابر دمشق
واستئصال أموالهم. فاشتغلوا بالظلم عما كانوا بصدده، من ركوب الخيل وجمع السلاح،
وغير ذلك.
وكان مؤيد الدين هذا رئيس دمشق في زمانه، ومقدم الجماعة. بحيث أنه لا يباع من أملاك
دمشق ملك، حتى يأتيه جماعة ويشهدون عنده أنه ملك البائع، انتقل إليه بالميراث أو
الابتياع. فإذا ثبت ذلك عنده كتب بخطه في ذيل الكتاب ليشهد فيه بالتبايع، فيشهد
الشهود بعد ذلك. وخطه موجود في الكتب القديمة بذلك. وكان رحمه الله تعالى من
أرباب المروءات لمن قصده ولجأ إليه.
وله نظمٌ حسن، فمن نظمه:

يا رب جد لي إذا ما ضمّني جدثي برحمةٍ منك تنجيني من النار
أحسن إليّ إذا أصبحت جارك في لحدي، فإنك قد أوصيت بالجار

وتوفي والده عز الدين حمزة يوم الجمعة، سابع شهر ربيع الأول سنة خمس وخمسين
وخمسمائة. ودفن بقاسيون. وكان فاضلاً حسن الخط والنظم. وجمع تاريخاً لحوادث سنة
أربعمائة إلى حين وفاته - رحمهما الله تعالى.

وفي يوم عيد النحر من هذه السنة، ورد إلى فوه مراكب الروم فنهبوها نهباً شديداً.
واستهلت سنة تسع وتسعين وخمسمائة:
في هذه السنة أخرج الملك العادل الملك المنصور، بن العزيز، من الديار المصرية إلى الرها.
وفيها ملك الفرنج القسطنطينية من الروم.
وخرج الفرنج منها لقصد الساحل. فجمع الملك العادل عساكره وخرج إليهم. فاستقر
الصلح بينه وبينهم على أن يكون لهم من بلاد المناصفات أشياء، مثل الرملة والناصرة.
وفيها بعث الخليفة - الناصر لدين الله - الخلع إلى الملك العادل وأولاده، وسراويلات
الفتوة، فلبسوها في شهر رمضان.
حصار ماردين
وما حصل من الاتفاق
وفي سنة تسع وتسعين وخمسمائة، جمع السلطان الملك العادل عساكره، وفرق فيهم السلاح
والأموال، وقدم عليهم ولده: الملك الأشرف موسى، وأمره بالمسير إلى ماردين. فسار إليها
وحاصرها، وشدد الحصار.
فدخل الملك الظاهر غازي، صاحب حلب، في الصلح بين عمه وصاحب ماردين.
فأجاب الملك العادل إلى الصلح - على أن يخطب له صاحب ماردين في جميع بلاده،
ويضرب السكة باسمه، ويحمل إليه مائة ألف وخمسين ألف دينار، ويكون عسكر ماردين في
خدمته، متى طلبه. فأجاب صاحب ماردين إلى ذلك.
فرحل الملك الأشرف عنها، وحمل صاحب ماردين إلى الملك الظاهر عشرين ألف دينار،
لتوسطه في الصلح.
وحكى أن السبب في حصار ماردين أن شاعراً، يقال له الكمال، قال:

متى تقبل الرايات من أرض جلّق وتنتزع الشهباء من كفّ أرتق !

فبلغ هذا البيت أرتق صاحب ماردين، فاعتقل هذا الشاعر.
فاتصل خبره بالملك العادل،
فندب هذا الجيش إليها. والله أعلم.
وفي هذه السنة - في أواخرها - حصل الشروع في عمارة سور قلعة دمشق. فابتدئ
ببرج الزاوية القبلى منها، المجاور لباب النصر.
وفيها ماجت النجوم شرقاً وغرباً، وتطايرت كالجراد المنتشر، يميناً وشمالاً. ولم ينقل ذلك

إلا في مبعث النبي صلى الله عليه وسلم، وفي سنة إحدى وأربعين ومائتين. ويقال إن هذه
السنة كانت أكثر انتشاراً. والله أعلم.
واستهلت سنة ستمائة
في هذه السنة وصلت مراكب الفرنج من ساحل عكا إلى فوه، فنهبوها وغنموا كثيراً من
أطرافها. وأقاموا عليها خمسة أيام. وخرج بعض عساكر مصر فقاتلتهم.
وفيها كانت وفاة الحافظ: عبد الغني بن عبد الواحد بن علي، ابن سرور بن رافع بن
حسن بن جعفر، المقدسي الحنبلي، الجماعيلي. ولد بجماعيل - وهي قرية من أعمال
نابلس، في سنة إحدى وأربعين وخمسمائة.
وفيها، في العاشر من جمادى الأولى، كانت وفاة القاضي السعيد أبو القاسم: هبة الله بن
أبي الرداد - متولى المقياس بجزيرة مصر - وكان خطيب الجامع.
واستهلت سنة إحدى وستمائة:
في هذه السنة رخصت أسعار الديار المصرية. وبلغ سعر القمح ستة أرادب بدينار.
وفيها قدم الملك العادل من الشام في ثالث جمادى الآخرة وتوجه إلى الإسكندرية، وحصل
منها أموالاً جمة.
وفيها، أخرج الملك الكامل أولاد الخليفة العاضد لدين الله، وهم: داود والمظفر، إلى
الإيوان بالقصر، وقيدهم، وأخذ جميع ما كان عندهم من الأقمشة والأواني وغير ذلك.
وفيها ابتدأ الصاحب صفي الدين بن شكر بمصادرة أصحاب الدواوين، ومستخدمي
الدولة والمتعينين، وأهانهم، لما كان في باطنه منهم.
وفيها توفي القاضي كمال الدين أبو السعادات: أحمد بن القاضي جلال الدين أبي المعالي
شكر، بن محمود بن يعقوب اللخمي. وكان ناظر الدواوين في الأيام الناصرية والعزيزية.
وكانت وفاته بثغر الإسكندرية. وهو الذي نوه بذكر الصاحب صفي الدين ورباه، وصفي
الدين ربيبه. كان جلال الدين شكر والمخلص أبو الحسن - والد الصاحب صفي الدين -
إخوةً لأم.
واستهلت سنة اثنتين وستمائة:
في هذه السنة هدمت قنطرة الباب الشرقي بدمشق، وبلط بحجارتها صحن الجامع، وفرغ

منها في شهر رمضان سنة أربع وستمائة، وفيها في شوال غير قبة النسر بجامع دمشق، عدة
أضلاع من شماليها. والله أعلم.
واستهلت سنة ثلاث وستمائة:
قصد العادل بلاد الفرنج
في هذه السنة في جمادى الأولى، وقيل في شعبان، خرج الملك العادل بعساكره وقصد
عكا. فصالحه أهلها. فعاد إلى دمشق.
وخرج الفرنج من طرابلس، وأغاروا على حمص. فخرج الملك العادل من دمشق، ونزل
على بحيرة قدس بظاهر حمص، وحضرت إليه عساكر البلاد.
فأقام إلى آخر شهر
رمضان. وتوجه يوم العيد إلى حصن الأكراد، وقاتل أشد قتال، وفتح برجا بالقرب من
الحصن، وأخذ منه خمسمائة رجل وسلاحاً. ثم سار إلى القليعات، فأخذها بعد
حصار. وتقدم إلى طرابلس، وقاتل قتالاً شديداً، وأقطع ثمارها.
ثم أنس من عسكره
فشلاً، فعاد إلى حمص. فأنفذ إليه صاحب طرابلس وطلب الصلح، وأرسل مالاً وأسرى.
وفيها توفي الطواشي جمال الدين إقبال، الخادم الصلاحي، من خدام الملك الناصر صلاح
الدين يوسف. وكانت وفاته بالبيت المقدس، بعد أن وقف داريه بدمشق مدرستين:
إحداهما على الطائفة الشافعية، والأخرى على طائفة الحنفية، ووقف عليهما أوقافاً: جعل
ثلثيها للشافعية وثلثها للحنفية. وذلك في رابع عشر ذي القعدة.
واستهلت سنة أربع وستمائة:
ذكر انتقال السلطنة من دار الوزارة بالقاهرة إلى قلعة الجبل
وأول من سكن قلعة الجبل من الملوك الملك الكامل ناصر الدين محمد، بن السلطان الملك
العادل. وذلك في سنة أربع وستمائة - وهو إذا ذاك ينوب عن والده بالديار المصرية.
وأول من بدأ بعمارتها الملك الناصر صلاح الدين يوسف. فعمر بها برجاً، وهو المطل
على مشهد السيدة نفيسة. ثم كملت في أيام الملك العادل.
ونقل أولاد العاضد من القصر
إلى قلعة الجبل، وبنى لهم بها مكان اعتقلوا فيه. فكانوا فيه إلى سنة إحدى وسبعين
وستمائة. وتوفي الأمير داود في هذه السنة.
ورود رسل الخليفة الناصر لدين الله بالخلع للملك العادل وأولاده ووزيره

كان السلطان الملك العادل قد جهز القاضي نجم الدين خليل الحنفي - قاضي عسكر
الشام - رسولاً إلى الخليفة الناصر لدين الله، فوصل إلى بغداد في هذه السنة فجهز الخليفة
إلى السلطان رسولين، وهما: الشيخ شهاب الدين اسهروردي ونور الدين سنقر الركني
الخليفتي. وأصحبهما الخلع للسلطان، ولولديه: الأشرف والمعظم، ولوزيره صفي الدين بن
شكر، ولأستاذ داره شمس الدين إلدكز العادلي.
وكانت خلعة السلطان جبة أطلس وسيعة الكم بطراز ذهب، وعمامة سوداء بطراز
ذهب، وطوق ذهب مجوهر، وسيف جميع ملبس بالذهب، وحصان أشهب بمركب ذهب،
وقصبة ذهب عليها علم أسود، مكتوب عليه بالبياض.
فتلقاها السلطان الملك العادل إلى الغسولة بجميع عساكره، وعاد. ولبسوا الخلع من القصر
إلى القلعة بدمشق. وحمل الأمير بدر الدين دلدرم التقليد على رأسه بين يدي السلطان،
ودخلوا جميعهم من باب الحديد وقت أذان الظهر. وقرأ الوزير التقليد قائماً، بمحضر من
القضاة وبياض البلد، بإيوان القلعة، والسلطان وأولاده وسائر من حضر قياماً إلى أن
تكاملت قراءته.
وتضمن التقليد تفويض البلاد إلى السلطان، وهي ديار مصر والساحل ودمشق، وبلاد
الشرق وخلاط. وحضرت رسل الملوك: الظاهر صاحب حلب، والمنصور صاحب حماة،
وصاحب حمص، ومع كل منهم ألف دينار، ينثرها على السلطان. فرسم السلطان بتوفير
ذلك لرسول الخليفة.
وسار الشيخ شهاب الدين ورفيقه إلى القاهرة، بخلعة الملك الكامل. فتلقاهما الملك
الكامل، وزينت القاهرة ومصر لدخول الرسل. ولبس الكامل الخلعة الخليفية.
ثم عاد الشيخ شهاب الدين السهروردي ورفيقه إلى بغداد. وأصحبهما السلطان أستاذ
داره شمس الدين، وصحبته التحف والألطاف. فوصل إلى بغداد في سنة خمس وستمائة.
فتلقى بالموكب. ونقم الخليفة على الشيخ شهاب الدين السهروردي كونه مد يده إلى الأموال
وقبلها، وحضر دعوات الأمراء بالشام، منهم الأمير عز الدين سامه وغيره. وكان قبل ذلك

قد اشتهر بالزهد. فاعتذر أنه إنما قبل الأموال ليفرقها في الفقراء فلم يقبل عذره. ومنع من
الوعظ، وأخذ منه الربط التي كانت بيده. وفرق الشيخ ما كان قد حصل له من الأموال -
وكانت جملة طائلة - فاغتنى بها جماعة من الفقراء. وقبل الخليفة ما كان مع شمس الدين
إلدكز من الهدايا، وشرفه وأعاده إلى مرسله.
استيلاء الملك الأوحد على خلاط
وفي سنة أربع وستمائة، استولى الملك الأوحد: نجم الدين أيوب، بن الملك العادل على
مدينة خلاط، بمكاتبة أهلها.
وكان سبب ذلك أن الهزار ديناري قتل صاحبها ابن بكتمر - وكان شاباً لم يبلغ عشرين
سنة - وقيل انه غرقه في بحر خلاط. وكانت أخته بنت بكتمر زوجة صاحب أرزن
الروم، فقالت: لا أرضى إلا بقتل قاتل أخي. فسار صاحب أرزن إلى خلاط فخرج إليه
الهزار ديناري وتبارزا، فقتله صاحب أرزن الروم. وعاد إلى أرزن. وبقيت خلاط بغير
ملك.
وكان الملك الأوحد - صاحب ميافارقين - يكاتبه أعيان خلاط. فجاء إليهم واستولى
على المدينة. واشترط عليه مقدموها شروطاً، وكانوا جبابرة، فقبل الشروط. ثم أبادهم
- قتلا وتغريقاً - وبدد شملهم.
ومن عجيب ما اتفق أن الملك العادل، سيف الدين، كان له عدة أولاد، ليس فيهم أقبح
صورة من الملك الأوحد هذا، فإنه كان قصيراً ألثغ زري المنظر. فخرج مع والده وإخوته إلى الصيد. فأرسل والده بازياً على طائر، فسقط البازي على
رأس الأوحد، فضحك السلطان والده، وقال: قد صاد بازينا اليوم بومة ! فانكسر خاطر
الأوحد لذلك، وتألم وأسرها في نفسه. فلما قدر الله تعالى له بفتح خلاط، وخطب له بشاه
أرمن على قاعدة ملوك خلاط، كتب إلى أبيه الملك العادل، يبشره بالفتح، ويقول له: إن
البومة - التي صادها بازي مولانا السلطان في اليوم الفلاني - قد اصطادت مدينة خلاط،
وصارت شاه أرمن ! وكان بين الواقعتين عشر سنين.
وفي هذه السنة، في شهر رجب، وضعت الساعات بالمئذنة الشمالية بجامع دمشق. وفيها

حصل الشروع في عمارة البرج الذي يقابل المدرسة القيمازية من قلعة دمشق. وفيها حدثت
زلازل ورياح شديدة ببلاد خلاط، وخسف بمكان الملك الأوحد بن الملك العادل قد نزل به
ثم رحل عنه، قبل الخسف بليلة.
وفيها كانت وفاة الأمير داود، بن الخليفة العاضد لدين الله، في محبسه بقلعة الجبل. وكان
دعاة الإسماعيلية يقولون إن العاضد نص عليه بالإمامة، وأنه صاحب الأمر بعده. وكان
عظيماً عند العامة. فلما توفي انقطعت دعوة الإسماعيلية وزال أمرهم.
وأشهر العادل وفاته، فعظم موته على من هو يتوالي فيهم. فاستأذن الناس الملك الكامل في
النياحة عليه وندبه، فأذن لهم. فبرز النساء حاسرات، والرجال في ثياب الصوف والشعر،
وأخذوا في ندبه والبكاء عليه. واشتهر من كان مستتراً من الإسماعيلية. فلما اجتمعوا
وكملوا، أرسل الملك الكامل جماعة من عسكره، فنهبوا ذلك الجمع، وقبض على المعروفين
منهم، وملأ بهم الحبوس، واستصفى أموال ذوي اليسار منهم، وهرب جماعة آخرون.
وزال أمر الإسماعيلية من الديار المصرية. ولم يتجاهر بعد ذلك أحدٌ بمذهبهم.
واستهلت سنة خمسة وستمائة:
في هذه السنة في يوم الجمعة، خامس شهر رمضان، ولى قاضي القضاة عماد الدين عبد
الرحمن، بن عبد العلي، بن علي، السكري - القضاء بالديار المصرية.
وذلك أن الملك العادل كان قد خرج إلى الشام في شعبان، فلما وصل إلى العباسة، بلغه
وفاة قاضي القضاة: صدر الدين عبد الملك بن درباس. وكانت وفاته في ليلة الأربعاء،
الخامس من شهر رجب، من هذه السنة. ومولده في أواخر سنة ست عشرة، أو أوائل
سنة سبع عشرة وخمسمائة. ودفن بالقرافة رحمه الله تعالى.
ولما اتصلت وفاته بالسلطان، استدعى الفقيه عماد الدين، فسار إلى العباسة. فولاه
الحكم، وعاد إلى القاهرة. فدخلها في يوم الاثنين، ثامن الشهر.
ولما وصل إلى مسجد التبن،
دخل إليه - ومسجد التبن بظاهر القاهرة - ولبس الطرحة وألقى الطيلسان. وكانت العادة
جارية أن لا يتطرح إلا من علم فضله واشتهر.

وفيها كانت وفاة الملك الأمجد: مجد الدين حسن، بن السلطان الملك العادل سيف الدين
أبي بكر محمد، بالقدس - وهو شقيق الملك المعظم والملك العزيز - رحمهم الله تعالى.
واستهلت سنة ست وستمائة:
في هذه السنة - وقيل في سنة سبع - نزلت الكرج على خلاط، وبها الملك الأوحد، بن
الملك العادل. وملك الكرج اسمه إيراني.
واتفق في أمر هذا الحصار واقعة غريبة، ذكرها الشيخ شمس الدين محمد بن إبراهيم بن
أبي بكر بن إبراهيم الجزري في تاريخه: حوادث الزمان عمن حكى لوالده، قال:
كنت في خلاط، وقد أشرف الكرج على فتحها، ولم يبق إلا دخولهم إليها. فبلغ الملك
الأوحد أن منجم ايراني قد حكم لصاحبه أنه متى زحف يوم السبت أول النهار، دخل
خلاط، وجلس على تحت الملك، ولا يبيت ليلة الأحد إلا في قلعته. فأحضر الملك
الأوحد منجمه، وذكر له ما بلغه، فقال له: لا تخف، فإن خلاط لا تخرج عن ملكك، وأنت
مستظهر على الكرج.
واتفق أن إيراني شرب الخمر، وركب في جيوشه وقصد باب أرجيش، وحمل ليدخل البلد
قبل أخيه، فكبا به فرسه في حفيرة، فسقط إلى الأرض. واتفق خروج جماعة من القيمرية
من ذلك الباب، ليدفعوا الكرج من البلد، فرأوا إراني قد سقط، فحملوا على أصحابه
وكشفوهم عنه، وأسروه. ودخلوا باب المدينة، وقد تجهز الملك الأوحد للهزيمة، فجلس في
القلعة أمام تخت المملكة على كرسي. وكان بقلعة خلاط تخت عظيم، لا يجلس عليه
الملك إلا في يوم ملكه، ثم لا يعود يجلس عليه. فلما أحضر ملك الكرج إليه، تلقاه وأكرمه،
وأجلسه على تخت الملك وجلس بين يديه على كرسي، وقال له: البلاد لك. فكتب إيراني
إلى أخيه، وإلى الكرج، بالانصراف عن البلد، فرحلوا.
وتحالف الملك الأوحد وملك الكرج على الموافقة والمعاضدة.
وتزوج الملك الأوحد ابنة
إيراني، وجهزه إلى مدينته تفليس، بعد أن استأذن والده على ذلك، فأذن له. ويقال كان
إطلاقه في ثاني عشر جمادى الأولى، سنة سبع وستمائة. والله أعلم. وزفت البنت إلى

الملك الأوحد بعد ذلك، وهي على دينها، وبنى لها بيعة بقلعة خلاط. وأطلق الكرج
القلاع التي كانت أخذت - وهي احدى وعشرون قلعة - ومائة ألف دينار. ووافق قول كل
من المنجمين: جلس الكرجي على تخت الملك، وبات بالقلعة، وانتصر الأوحد.
وفيها جهز الملك العادل جمال الدين المصري رسولاً إلى الخليفة. فأدى، وأعيد. وصحبه
من الديوان العزيز ابن الضحاك وأقباش الناصري. فاجتمعوا بالسلطان الملك العادل على
رأس العين.
حصار الملك العادل سنجار
ورجوعه عنها وأخذ نصيبين والخابور
وفي سنة ست وستمائة، سار الملك العادل إلى سنجار - وصاحبها، يوم ذاك، قطب
الدين بن عماد الدين زنكي.
فلما خيم بظاهرها، أخرج صاحبها نساءه وخدمه، يسألن العادل إبقاء المدينة عليه.
فلما حصلن عنده، أمر باعتقالهن. وأرسل إلى قطب الدين، يقول: انه لا يطلقهن إلا بعد
تسليم البلد. فاضطر إلى موافقته. وتقررت الحال بينهما: أن يعوض قطب الدين الرقة
وسروج وضياع في بلاد حران.
فأطلق العادل النسوة، وأرسل أعلامه إلى البلد، فلما دخلن البلد، ودخلت الأعلام
العادلية، أمر قطب الدين بغلق الأبواب وتكسير الأعلام. وأرسل إلى العادل، يقول: غدرةٌ
بغدرة، والبادي أظلم.
فحاصرها العادل، وقطع أشجارها وهدم جواسقها. فانتصر صاحب الموصل لصاحب
سنجار، خوفاً على بلاده. وراسل مظفر الدين صاحب إربل، وكان بينهما وحشة. وكان
من جملة رسالة صاحب الموصل له: أن الأحقاد تذهبها الشدائد. فراسل مظفر الدين
العادل، يشفع عنده في صاحب سنجار. فرد رسوله أقبح رد. فمضى إلى صاحب
الموصل، واتفق معه، وراسلا صاحب الجزيرة.
وأرسل مظفر الدين إلى صاحب سنجار، يشير عليه بمراسلة الخليفة. فأرسل إليه،
فمضى الرسول إلى بغداد. فأرسل الخليفة إلى العادل، يشفع عنده في صاحب سنجار.

فلم يجب العادل لذلك. فغضب رسول الخليفة، وعاد إلى الموصل، وقال لمن بها من الملوك:
قد أذن لكم أمير المؤمنين في قتال العادل.
فكتبوا إلى الملك الظاهر صاحب حلب، وأغروه بعمه. فأرسل أخاه الملك المؤيد: نجم
الدين مسعود إلى عمه، يشفع في صاحب سنجار. فرده أقبح رد. فبرز الظاهر من حلب،
في ثامن شعبان، لقصد العادل. فتفرقت عساكره، والتحق بعضها بالعادل.
ثم رأى أهل سنجار أن من خرج منهم غصبه عسكر العادل، وفسقوا بمن خرج من
النساء، فقاتلوا قتال الحريم. فاضطر العادل إلى الصلح مع صاحب سنجار. فتقرر أن
يسلموا إلى العادل: نصيبين والخابور، ويحملوا إليه مالا. ففعل، وفارق سنجار.
وفيها كانت وفاة الملك المؤيد: نجم الدين مسعود بن السلطان صلاح الدين يوسف بن
أيوب، برأس عين، عند منصرفه من عند عمه الملك العادل، برسالة أخيه بسبب سنجار.
وكان قد نام في بيت مع ثلاثة نفر، وعندهم منقل فيه نار، والبيت بغير منفذ، فانعكس
البخار فأخذ على أنفاسهم، فماتوا جميعاً فحمل المؤيد في محفة إلى حلب، فدفن بها.
وفيها توفي الشيخ الإمام العلامة: فخر الدين أبو عبد الله، محمد بن عمر بن الحسين بن
علي بن محمد، التيمي البكري الطبرستاني الأصلي، الرزاي - المعروف بابن خطيب الري،
الفقيه الشافعي، صاحب التصانيف المشهورة. وكانت وفاته بهراه في يوم الاثنين - وهو يوم
عيد الفطر - سنة ست وستمائة. ومولده في خامس عشر شهر رمضان، سنة ثلاث
وأربعين وخمسمائة.
وفيها كانت وفاة القاضي الأسعد: أبي المكارم أسعد بن الخطير أبي سعيد، مهذب بن
مينا بن زكريا بن أبي قدامة، بن أبي مليح مماتي، المصري الكاتب الشاعر.
كان يتولى نظر الدواوين بالديار المصرية. وكان نصرانياً فأسلم في ابتداء الدولة الناصرية
الصلاحية، هو وجماعته. وله مصنفات عديدة: نظم سيرة الملك الناصر صلاح الدين،
ونظم كتاب كليلة ودمنة. وله ديوان شعر. وباشر ديوان الجيش الصلاحي، ثم ولى نظر

الدواوين. وخاف الصاحب صفي الدين بن شكر فهرب إلى حلب، والتحق بالملك الظاهر
صاحبها.
وكانت وفاته بحلب في سلخ جمادى الأولى سنة ست وستمائة، وعمره اثنتان وستون
سنة. ودفن بالمقبرة المعروفة بالمقام، على جانب الطريق بالقرب من مشهد الشيخ الهروي.
ومماتي لقب أبي المليح جده الأعلى. وسبب تلقيبه بهذا اللقب أنه وقع بمصر غلاء عظيم،
وكان كثير الصدقة والإطعام، خصوصاً لأطفال المسلمين، وكان الأطفال إذا رأوه نادوه:
مماتي، فغلب عليه. حكى ذلك ابن خلكان عن الحافظ زكي الدين عبد العظيم - رحمه
الله تعالى.
واستهلت سنة سبع وستمائة:
في هذه السنة - في يوم الاثنين الثاني والعشرين من شعبان - قدم الملك العادل إلى القاهرة،
وصحبته الصاحب صفي الدين عبد الله بن شكر. ثم توجه إلى الطور لعمارته.
وفي هذه السنة، في سابع شوال، حصل الشروع في عمارة مصلى ظاهر دمشق، وهي
المجاورة لمسجد النارنج، فعمرت لصلاة العيدين، ثم عمل بالمصلى رواقات في سنة ثلاث
عشرة وستمائة، وعملت حيطانه ورتب فيه خطيب لإقامة صلاة الجمعة في سابع عشر من
شهر رمضان. وفيها، في حادي عشر من شهر شوال جددت أبواب جامع دمشق من جهة
باب البريد، وعملت بالنحاس الأصفر وركبت. وفي سادس عشر من شوال حصل الشروع
في إصلاح الفوارة بجيرون. وعمل الشاذروان والبركة.
بساحتها، واتخذ فيها مسجد بإمام راتب. وأول من رتب فيه - بأمر الصاحب صفي
الدين بن شكر - الشيخ نفيس الدين المصري، كان يلقب بوق الجامع لقوة صوته، وكان
حسن الصوت.
وفيها في سابع عشر من ذي القعدة، وصلت مراكب الفرنج إلى ثغر دمياط، على غرةٍ من
أهله. فنهبوا أطراف الثغر، وأسروا جماعة من المسلمين.
واستهلت سنة ثمان وستمائة:
والسلطان الملك العادل، وابنه الملك المعظم، نازلان بالمخيم على الطور، ومعهما العساكر،
لعمارة حصنه. وهما مجتهدان في إدارته حوشاً.

بناء القبة على ضريح الإمام الشافعي
- رحمه الله تعالى - وعمارة السوق
كان ابتداء عمارة هذه القبة في سنة ثمان وستمائة وكانت أرض هذا المكان مقبرة عتيقة.
فاتفق أن الملك الناصر صلاح الدين يوسف أنشأ المدرسة المجاورة للضريح. فلما كان في
هذه السنة، في خامس عشر من صفر، توفيت والدة الملك الكامل، وكان الملك الكامل،
قبل وفاتها بأيام، ركب وطوف القرافة على مكان يبنيه عليها، ويجعل فيه سوقاً. فوقع
الاختيار على دفنها بالضريح. فلما توفيت، دفنها وعمر عليها هذه القبة الموجودة الآن.
وغرم عليها أموالاً جليلة المقدار، أجرى إليها الماء الحلو من بركة الحبش وانتقل البناء من
القرافة الكبرى إلى هذا الموضع. ثم تغالى الناس بعد ذلك في العمائر بالقرافة وزخرفوها،
حتى صارت على ما هي عليه الآن.
وفي هذه السنة، كانت وفاة الأمير فخر الدين أبي المنصور، أياز جهاركس، الناصري
الصلاحي، بدمشق في صفر، ودفن بقاسيون.
وكان الملك العادل قد أقطعه بانياس وتبنين والشقيف وهونين وتلك البلاد، لأجل انحرافه
عن الملك الأفضل، ابن أخيه الملك الناصر. ولما مات جهاركس، أقر السلطان ما كان بيده
على ابنيه. وقام بالأمر والتدبير الأمير صارم الدين خطلبا التبنيني أحسن قيام، وسد تلك
الثغور. واشترى صارم الدين ضيعة بوادي بردى تسمى الكفر، ووقفها على تربة
جهاركس، وعمر له قبة.
وفيها توفي الأمير صارم الدين برغش العادلي، بدمشق، في ثالث وعشرين صفر، ودفن
بقاسيون غربي بالجامع المظفري.
واستهلت سنة تسع وستمائة:
عزل الصاحب صفي الدين عبد الله بن علي بن شكر
وولاية الصاحب الأعز بن شكر
وفي يوم الاثنين، لسبع مضين من شهر ربيع الأول، سنة تسع وستمائة، صرف الصاحب
صفي الدين من الوزارة وألزم داره.
ونحن الآن نذكر في هذا الموضع سبب اتصاله بخدمة السلطان العادل، وموجب انفصاله.
كان قد اتصل بالخدمة العادلية في أواخر الأيام الناصرية. فلما مات ابن النحال النصراني

- كاتب الملك العادل - تقدم صفي الدين، فرآه شهماً مقداماً فقدمه، وتمكن من دولته.
فلما كانت حادثة الأفضل، ورجوعه عن دمشق بعد حصارها، وخرج العادل في طلبه
اجتاز بالبيت المقدس، ومعه صفي الدين، فتحلف معه أنه إن قدر الله تعالى له بملك الديار
المصرية، يمكنه من المصريين، وحلفه على ذلك فحلف له.
فلما ملك العادل الديار المصرية، لم يتمكن صفي الدين من مصادرات المصريين، لأمرين:
أحدهما ما حل بالناس من الغلاء المشهور، والثاني ملازمة العادل ببلاد الشام. فلم يزل
كذلك إلى سنة اثنتين وستمائة عند قدوم العادل من الشام، فأمسك الصاحب جماعة من
رؤساء المصريين، وأصحاب الدواوين والمستخدمين وغيرهم، وعاقبهم أشد عقوبة ونكل
بهم، وفعل بهم ما أوجب حقد الناس عليه. وكثر بطشه بالناس، وأقام لنفسه حرمةً
عظيمة زادت على حرمة السلطان وعظم أمره، حتى كان أولاد الملك العادل يأتون إلى داره
فيجلسون على بابه، حتى يؤذن لهم، فثقل ذلك على أمراء الدولة وخاطبوا السلطان في
أمره، وهو لا يسمع فيه كلام متكلم.
فلما كان في سنة ست وستمائة - والسلطان على سنجار - اتفق أن الصاحب تحدث
معه في شيء، لم يوافق رأى السلطان، فتوقف عن إجابته. فقام الصاحب من مجلس
السلطان، وقد غضب، وجرح جرحاً مفرطاً في المجلس، حتى خجل العادل ممن حضره،
ووجدوا للكلام مجالا فتكلموا فيه. وكان العادل من أثبت الناس، وأحلمهم وأقلهم بطشاً،
وصفي الدين بخلاف ذلك. فبقيت هذه الحادثة في نفس السلطان كامنة. وكان القاضي
الأعز بن شكر في هذه السفرة نائب الوزارة بالديار المصرية، وهو ناظر الدواوين بها في
خدمة الملك الكامل، فحصل بينهما مودة. فحسده من كان ينوب عن الصاحب في الوزارة
قبله. وكانوا يكاتبون الصاحب ويقولون له إن الأعز قد توثب عليك، واتصل بالكامل
وتمكن منه.
فلما كان في ذي الحجة، سنة سبع وستمائة، اجتمع بنو شكر عند الصاحب على

طعامه. فأشار أن توضع زبدية طعام مخصوص بين يدي الموفق - وهو أحد من كان ينوب
عن الوزارة - فقال أحد الحاضرين: يده طويلة ! - يريد أنها تطول لمكان الزبدية. فقال
آخر: طولها الذي صرفه من نيابة الوزارة - يعرض به أنه كان يتبرطل ! فضحك الأعز
ضحكاً مفرطاً، بمعنى أنه أمين، ليس فيه ما يقال كما قيل في غيره ! فغضب الصاحب
لذلك وانتهره، لإساءته في مجلسه بالضحك.
فأسرع الأعز في القيام إلى داره. فلما قام، قال بعض من حضر للصاحب: لا تأمنه من
سوء يكيدك به. وأغروه به، فأمر باحضاره. فلما جاءه الرسول، علم أنه إن وقع في يده لا
يأمنه على نفسه. فتسور من مكان في داره، وطلع إلى القلعة، واحتمى بالكامل. فلما سمع
الصاحب بذلك طلبه من الكامل، فدافعه به. فغضب واجتمع بالملك العادل، وقال: ان
الأعز لزمه حساب، وقد أحماه الكامل علينا. وكرر عليه القول. فتحدث العادل مع ابنه
الكامل في ذلك، فقال: يصلح بينهما. وقصد الكامل بذلك مدافعة الأيام، ليقع سفر العادل
إلى الشام معه، فيسكن ما عند الصاحب منه، فلم يزده ذلك إلا حنقاً.
فلما كان في آخر ذي الحجة - سنة ثمان وستمائة - ركب الكامل إلى دار الوزارة، وحضر
مجلس الوزير، والأعز معه، وأصلح بينهما. فاصطلحا ظاهراً، والبواطن بخلاف ذلك.
وقصد الصاحب أن الأعز إذا انصرف إلى داره، قبض عليه، فلم يفارق الأعز الخدمة
الكاملية بالقلعة. فازداد الصاحب حنقاً عليه، وتحدث مع العادل أن يعزل عن نظر
الدواوين. فتوقف السلطان في ذلك.
وتمادى الأمر، إلى آخر صفر. فامتنع الصاحب من الكتابة على المناشير والتواقيع،
وحلف أنه لا يباشر والأعز يكتب معه أيداً، فتعطلت أحوال الناس، وشكوا ذلك إلى
السلطان. فأرسل إلى الصاحب بروضه، ويقول: لا بد أن أمكنك من الأعز، وهو لا يزداد
إلا غضباً وإساءة في الجواب. فإذا عاد رسول السلطان إليه، لا يمكنه مخاطبته بما قاله
الصاحب، ويغالط في الجواب. فأرسل السلطان بعض الأمراء إلى الصاحب برسالة، ومعه

أحد مماليكه، وقال له احفظ ما يقوله الصاحب، وأعده علي. فكان من جملة قول
الصاحب: والله لاكتبت والأعز يكتب معي أبداً. فعند ذلك، خرج السلطان على ابنه
الكامل وانتهره، وأغلظ في القول، وقال: يسلم الأعز إلى الصاحب في هذه الساعة !.
فلما عاد الكامل إلى القلعة، تلقاه الأعز على عادته. فقال: قد أمر السلطان بتسليمك
للصاحب، وخرج علي بسببك، وعجزت عن حمايتك. فقال له الأعز: يا مولانا، والله
عداوتي للصاحب بسببك ! وهو أنه كاتبني في حقك أنه لا بد أن يعمل على صرفك من
مملكة الديار المصرية، وأن يجعل عوضاً عنك الأشرف موسى. وهذه كتبه إلي. فلما وقف
الكامل على الكتب كان من جملة ما تضمنته: وأما هذا المجنون - يشير إلى الكامل - فلا
بد من صرفه، وإحضار الأشرف إلى الديار المصرية. وتضمنت من سبه وشتمه كثيراً.
فعاد الكامل للعادل، والكتب معه، وجاء في غير الوقت المعتاد. فقال له العادل: ما جاء
بك الآن ؟ فقال: هذا الصاحب يريد أن يوقع بين السلطان وأولاده، وبين الإخوة. هذه كتبه
للأعز، وعداوته بسببها. فلما وقف العادل عليها، عظم عليه سبه لابنه - وكان العادل
يداري جميع أولاده، خوفاً أن يقوم أحدهم عليه، فتنخرق حرمته - فقال نعزله، ولا يسلم
إليه الأعز. ويكتب الأعز وحده.
فخرج الكامل لوقته، واستدعى الأعز فخر الدين أبا الفوارس مقدام، بن القاضي جمال
الدين أحمد بن شكر. وأمر أمير جانداره بجمع الدواوين وتسليمهم للأعز. فسلمهم إليه.
وجلس الصاحب الأعز، وتحدث في الوزارة لوقته. وقام الصاحب صفي الدين من مجلس
الوزارة ولازم داره. ثم كان من خبر مصادرته، وإخراجه من الديار المصرية ما نذكره - إن
شاء الله تعالى.
ذكر حادثة الأمير عز الدين أسامة واعتقاله والاستيلاء على قلاعه
كان الأمير عز الدين أسامة الجبلي من أكابر الأمراء، وصهر الملك العادل. وهو الذي بني
الجسر الذي على نهر الأردن، المعروف بجسر أسامة. وقيل أنه هو الذي بني قلعة

عجلون. وكانت داره بدمشق، التي هي الآن المدرسة البادرائية بدمشق.
فاتهمه السلطان بمباطنة الملك الظاهر صاحب حلب، واستوحش هو أيضاً من السلطان
الملك العادل وأولاده، فقصد الانحياز إلى قلاعه - وكان له عجلون وقلعة كوكب. واتفق أن
السلطان توجه في هذه السنة إلى ثغر دمياط، وصحبته أولاده الملك الكامل والملك المعظم
والملك الفائز، فاغتنم عز الدين أسامة غيبتهم، وركب من القاهرة في يوم الاثنين سلخ جمادى
الآخرة، وخرج وأظهر أنه يريد الصيد.
فلما مر ببلبيس، بطق متوليها إلى السلطان يخبره. فقال الملك العادل: من ساق خلفه فله
أمواله وقلاعه. فانتدب الملك المعظم لذلك. وركب من ثغر دمياط ليلة الثلاثاء، غرة شهر
رجب. وساق في ثمانية ممن يعتمد عليهم، وعلى يده حصان جنيب فوصل إلى غزة صبح
الجمعة، وسبق أسامة إليها، وأمسك عليه الطرق. وأما أسامة فإنه تقطعت عنه مماليكه
ومن كان معه، وبقي وحده، وبه مرض النقرس. ووصل إلى الداروم فعرفه بعض الصيادين،
فأعطاه أسامة ألف دينار، وقال: خذ هذه وأوصلني إلى الشام. فأخذه وجاء إلى رفاقه
فعرفوه، وتوجهوا به على طريق الخليل، ليتوجهوا به إلى عجلون. فوصلوا به إلى القدس، في
يوم الأحد سادس من شهر رجب. ونزل بصهيون - وهي ضيعة بالقدس.
وعلم به الملك المعظم، فأرسل إليه بثياب وطعام، ولاطفه، وقال له أنت شيخ كبير ما
يصلح لك الحصون، فسلم إلى كوكب وعجلون. وقال أنا أحلف لك على مالك وملكك
وجميع أسبابك، وتعيش بيننا مثل الوالد. فامتنع من ذلك، وسب المعظم أقبح سب. فلما
يئس منه، بعث به إلى الكرك واعتقله بها واستولى على قلاعه وأمواله وذخائره. فكان
قيمة ما أخذ له ألف ألف دينار.
وأما السلطان الملك العادل فانه كان توجه في العشرين من جمادى الأولى إلى ثغر دمياط،
وتوجه منه إلى ثغر الاسكندرية، ثم عاد وتوجه إلى الشام، في ثاني شوال من هذه السنة.
وحاصر كوكب أشد حصار، واستولى عليها. وأخذ منها أموالا عظيمة وهدمها وعفى

أثرها. وذلك في العشر الأوسط من ذي القعدة
وفاة الملك الأوحد
صاحب خلاط واستيلاء أخيه الملك الأشرف عليها
وفي هذه السنة، كانت وفاة الملك الأوحد نجم الدين أيوب، بن السلطان الملك العادل، وهو
صاحب خلاط. وكانت وفاته بملازكرد في ثامن شهر ربيع الأول، ودفن بها.
وكان قد استزار أخاه الملك الأشرف من حران، فأقام عنده أياماً. واشتد مرضه، فقصد
الأشرف الرجوع إلى حران لئلا يتخيل منه الأوحد. فقال له الأوحد: يا أخي كم تلح ؟
والله، إني ميت، وأنت تأخذ البلاد ! ثم مات. فدفنه الملك الأشرف. وجاء إلى خلاط،
واستولى عليها، وعلى ما بها من الأموال.
فتوجه الملك العادل إليه، وقد غضب لكونه فعل بغير أمره. فلما وصل إليها، اعتذر الملك
الأشرف أنه إنما فعل ذلك خوفاً أن يسبقه غيره من ملوك الأطراف إليها، فقبل عذره،
واستمر به فيها. وأنعم السلطان على ولده الملك المظفر شهاب الدين غازي بميافارقين
وأعمالها.
واستهلت سنة عشر وستمائة:
قيام أهل مصر على الملك الكامل ورجمه
وفي جمادى الأولى سنة عشر وستمائة، شغب العوام بمصر على الملك الكامل ورجموه،
وسبب ذلك أن أبا شاكر النصراني الطبيب كان الملك الكامل يميل إليه، وكان إلى جانب
الكنيسة المعلقة بمصر مسجد قد عفى أثره، فقصد العوام تجديده. فامتنع الكامل من
إجابتهم إلى ذلك، بسبب أبي شاكر. فثار العوام، وقالوا لا بد من عمارته. فركب الملك
الكامل من القلعة، وجاء إلى الكنيسة المعلقة، وكشف المكان بنفسه. فلما شاهده، قال:
ما كان هذا مسجداً قط. فاستغاث العوام، وشغبوا ورموه بالحجارة، فهرب منهم إلى
القلعة.
وفيها توجه الملك الظافر الخضر، بن السلطان الناصر: صلاح الدين يوسف بن أيوب، من
حلب لقصد الحج. فنزل بالقابون في يوم الأحد رابع شوال، ثم انتقل إلى مسجد القدم في
خامس الشهر. وكان الملك المعظم بحوران، فوصل إلى دمشق، وأدخله إليها وعمل له

ضيافة. ثم توجه إلى الحجاز، صحبة الركب الشامي، فلما وصل إلى المدينة زار رسول
الله صلى الله عليه وسلم. وأحرم بالحج من ذي الحليفة، فلما انتهى إلى بدر وجد عسكر
الملك الكامل قد سبقه من مصر إلى بدر، خوفاً منه أن يتوجه إلى اليمن. فقالوا له: ترجع.
فعلم مرادهم. فقال إنه قد بقي بيني وبين مكة مسافة يسيرة، وإني قد أحرمت. ووالله ما
قصدي اليمن ولا أقصد غير الحج، فقيدوني، واحتاطوا بي، حتى أقضي المناسك وأعود.
فلم يوافقوه على ذلك، وأعادوه إلى الشام فصنع كما صنع النبي صلى الله عليه وسلم حين
صده المشركون عن البيت: قصر وذبح ما تيسر، وعاد إلى الشام.
وفيها توفي الأمير فارس الدين ميمون القصري بحلب في رابع عشر من شهر رمضان. وكان
من أكابر الأمراء الناصرية. وكانت أعزاز إقطاعه. وخلف أموالاً جمة. وهذه النسبة إلى
القصر الذي بالقاهرة، كان تربى فيه - رحمه الله.
واستهلت سنة إحدى عشرة وستمائة:
استيلاء الملك المسعود على اليمن
وفي هذه السنة جهز الملك الكامل ابنه الملك المسعود، صلاح الدين أتسز - وهو أقسيس
- إلى الحجاز، ويتوجه من هناك إلى اليمن.
وكان سبب إرساله إلى اليمن أن الناصر أيوب، بن سيف الإسلام بن أيوب، قد توفي،
واستولى على اليمن سليمان بن شاهنشاه، بن تقي الدين عمر، بن شاهنشاه بن أيوب -
باتفاق من أجنادها - وتزوج بأم الناصر. ووصل الخبر إلى الملك الكامل بذلك، فجهز ابنه
الملك المسعود. فرحل من بركة الجب في يوم الاثنين، سابع عشر من شهر رمضان، ومعه
ألف فارس، ومن الجاندارية والرماة خمسمائة وكان ذلك بعد أن سيره إلى خدمة السلطان
الملك العادل بدمشق، ولقبه بالملك المسعود، وأعاده إلى القاهرة.
فتوجه إلى مكة - شرفها الله تعالى، فلما قضى مناسك الحج توجه إلى بلاد اليمن. فكان
وصوله إلى زبيد في يوم السبت مستهل المحرم، سنة ثنتي عشرة وستمائة. فملكها من غير
قتال، وتسلم ثمانية حصون من تهامة. وندب قطعة من العسكر لحصار تعز - وكان

سليمان قد تحصن بها - ففتح الحصن في ثالث صفر، ودخله العسكر المسعودي، ومسك
سليمان واعتقل. ثم جهزه إلى الديار المصرية هو زوجته.
وكانت صنعاء في يد عبد الله بن حمزة - المدعي الخلافة - فجرد الملك المسعود إليه
عسكراً، فوصل العسكر إلى صنعاء في مستهل جمادى الأولى.
فهرب عبد الله لما سمع
بقرب العسكر، وجعل لا يخرج من مدينة إلا بعد تخريب أسوارها، وتعفية ما يستطيع من
أثرها، وهدم منار المساجد، ولحق بالجبال وتعلق بها. وملك الملك المسعود البلاد. وكان
جباراً فاتكاً، فيقال إنه قتل باليمن ثمانمائة شريف، وخلقاً كثيراً من الأكابر.
وفيها استولى الملك المعظم - شرف الدين عيسى - على قلعة صرخد، وأخذها من ابن
قراجا، وعوضه عنها مالاً وإقطاعاً، وأعطاها لمملوكه، أستاذ داره عز الدين أيبك
المعظمى. فبقيت في يده إلى أن أخرجه منها الملك الصالح نجم الدين أيوب، في سنة أربع
وأربعين وستمائة.
وفيها أحدثت المعاملة بالقراطيس السود العادلية بدمشق، كما يتعامل الناس بالورق بالديار
المصرية. فبقيت زماناً، ثم بطل ضربها وتناقصت من أيدي الناس، إلى أن توفي الملك
العادل.
وفيها توجه الملك المعظم شرف الدين عيسى، بن الملك العادل، من دمشق إلى الحجاز.
وجدد في الطريق البرك والمصانع والمناهل، وأحسن إلى الناس، وتصدق، وحج قارناً -
وكان حنفي المذهب - وعاد إلى الشام.
وفيها اهتم السلطان - الملك العادل - بعمل الميدان الذي بسوق الخيل، بظاهر القاهرة،
والفساقى المجاورة لها.
وفيها، في ثالث شهر ربيع الأول، فوض تدريس الحنفية، بالمدرسة النورية بدمشق، للشيخ
جمال الدين محمد بن الحصيري العجمي. وحضر الملك المعظم درسه مع الفقهاء.
واستهلت سنة ثنتي عشرة وستمائة:
في هذه السنة، وصل الملك المعظم شرف الدين عيسى من الحجاز، وصحبته الأمير
السيد الشريف: سالم بن قاسم، أمير المدينة النبوية - على ساكنها أفضل الصلاة والسلام.

وكان قد شكى من قتادة: أمير مكة، فوعده بالمساعدة عليه.
فلما وصل الآن معه، اجتمع
بالسلطان الملك العادل - وكان بخربة اللصوص - وقدم الشريف
إلى السلطان ما أحضره -
على سبيل الهدية - من تحف الحجاز، وعشرين فرساً من خيل
الحجاز، فأكرمه السلطان.
واستخدم معه جماعة من أمراء التركمان والرجال، فتوجه بهم
في ثالث عشر شعبان.
واتفقت وفاته قبل وصوله إلى المدينة، فقام ولد أخيه الأمير
جماز بن شيحه بالأمر بعد
عمه، واجتمع أهله على طاعته. فمضى من كان مع عمه لقصد
قتادة أمير مكة. فجمع
قتادة عسكره وأصحابه والتقوا بوادي الصفراء. وكان الظفر
لجماز ومن معه، واستولوا
على عسكر قتاده، قتلا ونهبا وأسرا. وانهزم قتادة إلى الينبع
وتحصن بقلعته، فتبعوه
وحصروه.
ثم عاد من كان مع الأمير سالم من التركمان وغيرهم، صحبة
الناهض ابن الجرخي، وفي
صحبتهم كثير مما غنموه، من أموال قتادة ومن النساء
والصبيان. وظهر منهم جماعة من
الأشراف، فسلموا إلى أكابر أشراف دمشق، ليكفلوهم
ويشركوهم في وقف الأشراف
وفي هذه السنة حصل الشروع في عمارة المدرسة العادلية
بدمشق وحضر السلطان الملك
العادل لترتيب وضعها.
وفيها في سابع من شهر ربيع الأول، عزل قاضي القضاة: زكي
الدين أبو العباس الطاهر، بن
محيي الدين، عن الحكم بدمشق وأعمالها. وولي من الغد الشيخ
جمال الدين الحرستاني،
وهو ابن اثنتين وتسعين سنة وشهور.
وفيها أبطل السلطان الملك العادل ضمان الخمر والقيان
بدمشق، في رابع عشرين جمادى
الآخرة. وبقي الأمر على ذلك، إلى أن توفي الملك العادل في
سنة خمس عشرة وستمائة.
وفيها وصل رسول الخليفة من بغداد، وهو الشيخ شهاب الدين
السهروردي ونزل بجوسق
العادل. وتوجه إلى السلطان فلحقه بالقدس الشريف، فأدى
الرسالة وعاد، في خامس عشر
شوال.

وفيها - في منتصف شعبان، توفي الشيخ الصالح العارف: أبو الحسن على بن حميد،
المعروف بابن الصباغ قدس الله روحه. وكانت وفاته بقنا - من الأعمال القوصية من
الصعيد الأعلى. ودفن بجانبها عند قبر شيخه: الشيخ السيد القطب عبد الرحيم.
وضريحهما من المزارات المشهورة - نفع الله تعالى بهما.
واستهلت سنة ثلاث عشرة وستمائة:
في هذه السنة كانت الحادثة بين أهل الشاغور والعقيبة بدمشق. وحملت كل طائفة منهم
السلاح، واقتتلوا. فركب العسكر للفصل بينهم. وحضر الملك المعظم من جوسق الرئيس
لتسكين الفتنة - وكان مقيماً به. وقبض على جماعة من مقدمي الحارات واعتقلوا، بسبب
ذلك.
ذكر القبض على الصاحب الأعز
وفي يوم الاثنين، سابع عشر جمادى الآخرة، سنة ثلاث عشرة وستمائة. قبض الملك العادل
على وزيره الصاحب فخر الدين الأعز، وضربه وقيده، وحمله إلى قلعة بصرى فاعتقله بها.
وكان لذلك أسباب: منها أنه صرف ما غرم على القبة بالشافعي من مال الديوان - وكان
تقرر صرفه من مال الديوان الكاملي. ومنها أنه كشف على الأموال التي أنفقت في تجهيز
الملك المسعود إلى اليمن، وكانت جملة عظيمة، فأنكر عليه ذلك، وفعل به ما فعل.
وعرضت الوزارة على القاضي الأشرف: أحمد بن القاضي الفاضل عبد الرحيم، فتوقف
عنها. ثم خوطب فقال: كان والدي في الأيام الناصرية لا يكتب في الدولة. فأجيب إلى
ذلك، واستقرت القاعدة أنه يتحدث في الأموال بلسانه، دون قلمه. ورتب القاضي عماد
الدين بن جبريل صاحب ديوان الدولة، ورتب شمس الدين أبو القاسم بن التبني وزير
الصحبة.
وفيها في شهر المحرم، صرف قاضي القضاة عماد الدين عبد الرحمن، ابن عبد العلي بن
علي السكري - عن القضاء بالديار المصرية.
وكان سبب ذلك أن السلطان عقد مجلساً بحضوره بسبب وقف المدرسة - التي أوقفها
إبراهيم بن شروه، وولي القطب، قاضي قوص، النظر عليها - فلم يمض القاضي عماد

الدين الوقف. فقال السلطان: هذه القضية أنا أعرفها وأشهد بها. فامتنع من إثباتها.
فغضب السلطان، وأشهد على نفسه بعزله في المجلس. ثم صرف عن الخطابة بالجامع
الحاكمي، وولاها الشيخ بهاء الدين بن الجميزي لأربع بقين من شهر ربيع الآخر من السنة.
ولما عزله السلطان عن القضاء، استشار شيخ الشيوخ: صدر الدين أبا الحسن بن حمويه،
فيمن يوليه القضاء. فأشار أن يقسم العمل شطرين: قبلياً وبحرياً، وأن يولي ابن عين الدولة
القاهرة والوجه البحري، وابن الخراط مصر والوجه القبلي. فعمل برأيه.
وفوض السلطان قضاء القاهرة والوجه البحري للقاضي شرف الدين بن عين الدولة، في يوم
السبت ثاني صفر منها - وقيل في المحرم - وفوض قضاء مصر والوجه القبلي للقاضي تاج
الدين: أبي محمد عبد السلام بن علي بن الخراط - وكان قاضي دمياط - وذلك في يوم
الاثنين سابع عشر صفر - وقيل في يوم الاثنين ثالث عشر المحرم.
هذا هو السبب الظاهر للناس في عزل القاضي عماد الدين بن السكري وأما السبب
الباطن - وهو مما أخبرني به والدي رحمه الله تعالى عن جده زكي الدين عبد الدايم،
وغيره - أن الفقيه الشيخ الصالح الشهيد الناطق: رضي الدين: عبد الرحمن العقيلي،
المعروف بالنويري وهي نسبة انتقال، وانما هو قدم من بلاد المغرب مع أبيه وسكنا النويرة،
واستوطنها الشيخ عبد الرحمن وخدمه أهلها، وكانوا يفتخرون بالانتساب إلى خدمته،
واختص بخدمته جد والدي زكي الدين عبد الدايم، فكان أخص الناس به، وأعلاهم منزلة
عنده - كان مع ما هو عليه من العبادة والصلاح المشهور، ينوب عن القاضي عماد الدين
في الحكم بالنويرة، وما معها. فاتفق أن رجلين تداعيا في بقرة، فكتب أحدهما محضراً أن
البقرة ملكه وشهد فيه جماعة من الشهود، وأدوا شهادتهم بذلك عند الفقيه، ولم يبق إلا
تسليمها لصاحب المحضر.
فتأمل الفقيه البقرة، ونظر إليها. وسأله الذي شهد له الحكم بما ثبت عنده، وتسليمها

إليه. فقال: كيف أسلمها إليك، وهي تقول أنها لخصمك، وتخبرني أن المحضر زور - أو ما
هذا معناه ؟!. وسلمها لخصمه. فاعترف الخصم الذي أثبت بصحة ما أخبر به الشيخ
الفقيه رضي الدين عن البقرة، وأظهر التوبة والإنابة. فلما اتصلت هذه الواقعة بالقاضي
عماد الدين، كتب إلى الشيخ رضي الدين يقول: كان ينبغي أن تعمل في هذه القضية بظاهر
الشرع، وتسلم البقرة لمن أثبت. وعزله عن نيابته.
فلما اتصل العزل به، قال لمن حضر عنده: اشهدوا علي اني قد عزلته، وعزلت ذريته من
بعده. فعزل في تلك الساعة. ولم يعد إلى القضاء بعدها، ولاولي القضاء بعده أحد من
ذريته. وأعرف أن القاضي عماد الدين، ولد ولده فوه له بالقضاء غير مرة، وعين وربما
فصلت له خلعة الولاية، ورسم بكتابة تقليده، ثم يعدل عنه إلى غيره، ولا يتم أمره. ومات
- رحمه الله تعالى - ولم يل القضاء. ولم يبق من ذريته في وقتنا هذا من فيه أهلية لذلك.
وهذه الحكاية التي ذكرتها لا أشك فيها ولا أرتاب، وهي مشهورة يعرفها كثير من الناس.
وفي سنة ثلاث عشرة وستمائة - في العشرين من جمادى الآخرة - توفي الملك الظاهر:
غياث الدين غازي، بن الملك الناصر صلاح الدين يوسف، صاحب حلب - رحمه الله
تعالى بحلب.
وكان مولده بالقاهرة، في منتصف شهر رمضان، سنة ثمان وستين وخمسمائة. وملك بعده
ولده: الملك العزيز غياث الدين محمد. وكان صغير السن، يقال كان عمره ثلاث سنين،
فقامت ضيفة خاتون - ابنة الملك العادل - بتدبير الدولة. ونصبت شهاب الدين طغرل
الخادم في أتابكية الدولة.
ذكر مصادرة الصاحب صفي الدين بن شكر ونفيه من الديار المصرية
كان سبب ذلك أن السلطان الملك العادل، لما قدم من الشام، ظن الصاحب صفي الدين
أنه يعيده إلى الوزارة. فصار يركب في المواكب، ويستعرض للقاء السلطان. ثم فتح بابه
وصار الناس يدخلون إليه، والأعز وغيره يذكروه ذلك للملك الكامل. فاتفق أن الملك

الكامل مر بدار الصاحب فوجد الخيل على بابه، فقال لمن معه من الأمراء: ما هذا إلا
أحمق ! يفتح بابه ويأمر الناس أن يدخلوا إليه ويمد السماط، والسلطان غير راضٍ عنه.
فبلغ العادل ما قاله الكامل. فقال في مجلسه: ما يكفي ابن شكر أنه أخذ مالي، حتى أطرح
جانبي بفتح بابه.
فاتصل ذلك بالصاحب، فركب إلى القلعة، وأراد الاجتماع بالملك الكامل - وكان الملك
الكامل على الشراب. فسير إليه، وقال ما حاجتك ؟ فإن لنا الآن شغلاً ! فقال: القصد
أن يستخدمني السلطان، أو يتركني أخرج من بلاده. وسأل أن يكون الكامل سفيره عند
أبيه الملك العادل. فعز كلامه عليه، وقال للرسول قل له: هذا ما لا أدخل فيه.
فعاد خجلاً، ومضى إلى دار والدة الملك المعز مجير الدين يعقوب، بن السلطان الملك
العادل، وتعلق بذيل ستر الباب. ووافق أن العادل كان عندها في ذلك الوقت. فعظم ذلك
عليه. لكونه قصد زوجته، وأراد قتله، ثم سكن، وأرسل إلى الملك الكامل يقول: إن ابن
شكر أخذ مني وأنا على سنجار ستمائة ألف دينار، فطالبه بها.
فأحضره الملك الكامل في مجلس شرابه، ووبخه، وأمر بأخذ أملاكه وحسبها له، بستمائة
ألف دينار. ثم حضر جماعة بعد ذلك إلى الملك الكامل، فقالوا: هذا كان في ابتداء أمره
قطاناً، فمن أين له هذا المال ؟ فقال ابن التبني: أنا صانعته عن نفسي بمائتي ألف دينار،
وصانعه شهاب الدين بن الفاضل بثلاثمائة ألف دينار. فنقل المجلس إلى الملك العادل، وذكر
له من أخذ منه المصانعات، فأمر بنفيه.
فاستمهل إلى أن يبيع موجوده، فأذن له. فشرع في بيع موجوده إلى أن كمل ثم أرسل إليه
السلطان يقول: أخرج من بلادي إلى بلد، لا تقام لي فيه خطبة.
فخرج من القاهرة في يوم الخميس، لخمس بقين من جمادى الآخرة من السنة. فلما وصل
إلى بلبيس أمر السلطان الملك العادل بتعويقه، وأخذ منه مالاً ووكل به أياماً ببلبيس ثم
أطلقه فتوجه إلى آمد.
وفيها صادر السلطان الملك العادل حسام الدين يونس، متولي الإسكندرية، على ثلاثمائة
ألف دينار.

وفيها في سابع شوال، توجه العادل إلى ثغر الإسكندرية. وذلك أنه اجتمع بها من تجار
الفرنج نحو ثلاثة آلاف رجل، فخاف أهل الثغر جانبهم. فخرج السلطان بعساكره إلى الثغر،
وبه ملكان من ملوك الفرنج. فأحضرهما، فذكرا أن التجار صمموا على الوثوب بأهل الثغر
وقتلهم، وأخذه. فقبض حينئذ على تجار الفرنج واستصفى أموالهم، واعتقلهم، واعتقل
الملكين. وعاد إلى القاهرة، في سابع ذي الحجة من السنة.
واستهلت سنة أربع عشرة وستمائة:
ذكر مسير السلطان إلى الشام
وفي يوم الأحد، التاسع من شهر ربيع الآخر، من هذه السنة - توجه السلطان الملك العادل
إلى الشام، لما بلغه قصد الفرنج بلاد الشام.
وكان رحيله من البركة يوم السبت لثمان بقين من الشهر، وتوجه إلى البيت المقدس. وقال
الشيخ شهاب الدين أبو شامة، في كتاب الروضتين في أخبار الدولتين أنه توجه إلى قلعة
الكرك بذخائره وأمواله، وأقام بها مدة، وترك الأموال والذخائر بها.
وقال غيره: إنه بقي بالقدس إلى أن وصلت أمداد الفرنج في البحر، من روميه الكبرى ومن
الغرب الشمالي - وكان المقدم عليهم صاحب روميه - فنزلوا على عكا. وسار الملك
العادل على أنه يسبقهم إلى الماء بخربة اللصوص، فسبقوه إليها. فلما قاربهم، حيد عنهم
إلى جهة دمشق. فأغاروا على بيسان فنهبوها وما حولها، وعادوا إلى مرج عكا بالسبي
والغنائم.
وجهزوا آلات الحصار، وقصدوا الطور - وكان العادل قد بناه في سنة تسع وستمائة -
فحاصروه سبعة عشر يوماً. فقتل بعض ملوكهم بسهم، ففارقوا الحصن. واستشهد على
حصار الطور من أبطال المسلمين: الأمير بدر الدين محمد بن أبي القاسم، وسيف الدين بن
المرزبان - وكان من الصالحين الأجواد.
وكتب الملك المعظم إلى الخليفة كتاباً أوله:
قل للخليفة - لا زالت عزائمه لها على الكفر إبراقٌ وإرعاد
إن الفرنج بأرض القدس قد نزلت لا تغفلنّ، فأرض القدس بغداد
وفي نسخة:

إن الفرنج بحصن الطّور قد نزلوا لا تغفلنّ، فحصن الطّور بغداد
قصد الفرنج جزين
وقتلهم
قال: ولما انفصل الفرنج، قصد ابن أخت الهنكر جبل صيدا
وقال: لا بد لي من أهل هذا
الجبل. فنهاه صاحب صيدا، وقال إن أهله رماة، وبلده وعر. فلم يقبل قوله. وصعد في
خمسمائة من أبطال الفرنج إلى مدين - وهي ضيعة الميادنة بالقرب من مشغرا - فأخلاها
أهلها. ونزلها الفرنج وترجلوا عن خيولهم للراحة. فتحدرت عليهم الميادنة من الجبال،
فأخذوا خيولهم وقتلوا عامتهم. وأسروا ابن أخت الهنكر. وهرب من بقي منهم نحو
صيدا.
وكان معهم رجلٌ يقال له الجاموس، كانوا أسروه من المسلمين، فقال لهم أنا أعرف إلى
صيدا طريقاً سهلاً أوصلكم إليها. فقالوا: إن فعلت أغنيناك. فسلك بهم أودية وعرة،
والمسلمون خلفهم يقتلون ويأسرون، ففهموا أن الجاموس قصد ذلك، فقتلوه. ولم يفلت منهم
إلى صيدا غير ثلاثة، وكانوا خمسمائة. وجاءوا بالأسرى إلى دمشق، وكان يوماً مشهوداً.
وفي هذه السنة، احترق مسجد الحسين بالقاهرة.
وفيها، توفي قاضي القضاة جمال الدين أبو القاسم: عبد الصمد بن محمد بن أبي الفضل،
الأنصاري الحرستاني وكانت وفاته بدمشق في رابع ذي الحجة، ودفن بقاسيون. ومولده في
سنة عشرين وخمسمائة. وأعيد القاضي زكي الدين إلى القضاء، بعد وفاته.
واستهلت سنة خمس عشرة وستمائة:
تخريب حصن الطور
في هذه السنة استدعى السلطان الملك العادل ولده الملك المعظم، وقال له: إنك قد بنيت
هذا الطور، وهو يكون سبب خراب الشام، وقد سلم الله تعالى من كان فيه من أبطال
المسلمين، والسلاح والذخائر. وأرى من المصلحة خرابه، ليتوفر من فيه من المسلمين
والعدد على حفظ دمياط، وأنا أعوضك عنه. وكانت دمياط قد حوصرت - على ما
نذكره. فتوقف الملك المعظم، وبقي أياماً لا يدخل على أبيه العادل. فبعث إليه وأرضاه

بمال، ووعده ببلاد بالديار المصرية. فأجاب، وبعث فنقل ما كان فيه من العدد والذخائر
إلى القدس وعجلون والكرك، ودمشق، وهدمه.
وفاة السلطان الملك العادل
سيف الدين أبي بكر: محمد بن أيوب وشيء من أخباره
كانت وفاته - رحمه الله تعالى - في يوم الجمعة سابع جمادى الآخرة، سنة خمس عشرة
وستمائة، بعالقين.
وذلك أنه لما عرج عن الفرنج وقصد دمشق، أقام بظاهرها مدة وهو مريض. فلما بلغه
أخذ برج السلسلة بثغر دمياط، ضرب بيده على صدره، وانزعج، وحصل له من الغم ما
أفضى به إلى الوفاة - رحمه الله تعالى. ومات، وله ست وسبعون سنة تقريباً. وذلك أنه
سئل عن مولده، فقال: ولدت سنة فتوح الرها. وذلك في سنة تسع وثلاثين وخمسمائة.
وقيل كان مولده ببعلبك، لما كان والده في خدمة الملك العادل: نور الدين الشهيد.
ومدة ملكه تسع عشرة سنة، وأربعين يوماً. ولما مات لم يشعر بوفاته غير كريم الدين
الخلاطي. وكان ولده الملك المعظم عيسى بنابلس. وكان قد التقى مع الفرنج على القيمون
في هذا الشهر، فانتصر عليهم، وقتل منهم مقتلاً عظيمة، وأسر من الداوية مائة فارس،
وأدخلهم القدس منكسةً أعلامهم. وأقام بنابلس. فكتب إليه على جناح طائر يعلمه
بالخبر، فجاء يوم السبت إلى عالقين. فاحتاط على الخزائن، وصبر أباه العادل وكتم موته،
وجعله في محفة، وعنده خادم يروح عليه، ورفع طرف سجاف المحفة وأظهر أنه مريض.
ودخلوا به إلى دمشق في يوم الأحد، والناس يشيرون إلى من بالمحفة بالخدمة والسلام،
والخادم يوميء إلى جهة السلطان، كأنه يخبره بمن يسلم عليه، ودخلوا به إلى قلعة دمشق.
قال الشيخ شهاب الدين أبو شامة، وشمس الدين أبو المظفر سبط ابن الجوزي، في
تاريخهما: ومن العجائب أنهم طلبوا له كفناً فلم يقدروا عليه، فأخذوا عمامة النجيب
الفقيه ابن فارس فكفنوه بها، وأخرجوا قطناً من مخدة فلفوه به، ولم يقدروا على ما يحفرون
به، فسرق كريم فأساً من الخندق فحفروا له به. ودفن بقلعة دمشق، إلى أن بني له القبة

المجاورة لمدرسته، فنقل إليها في سنة تسع عشرة وستمائة. وحصل لابنه الملك المعظم
وهمٌ، فلما دفن السلطان قام قائماً، وشق ثيابه ولطم على رأسه ووجهه.
واشتهرت وفاته بعد دفنه. وعمل عزاؤه ثلاثة أيام، وصلى عليه في غالب مدن الإسلام.
ونودي ببغداد: من أراد الصلاة على الملك العادل الغازي، المجاهد في سبيل الله، فليحضر
إلى جامع القصر. فحضر الناس وصلوا عليه صلاة الغائب. ولم يتأخر غير الخليفة.
وتقدموا إلى خطباء الجوامع بأسرهم، فصلوا عليه بعد صلاة الجمعة.
وكان - رحمه الله - قد امتد ملكه واتسعت ممالكه. وكان ثبتاً حازماً، حسن التدبير
صفوحاً، يدبر الملك والممالك على الوجه المرضي، متمسكاً بأوامر الشرع الشريف
ونواهيه، منفذاً للأحكام الشرعية، عادلاً مجاهداً عفيفاً، كثير الصدقة، آمراً بالمعروف
ناهياً عن المنكر. طهر جميع ممالكه من الخمور والفواحش بأسرها، وأسقط كثيراً من
المكوس والمظالم. وكان الذي يتحصل من هذه الجهات بدمشق خاصة مائة ألف دينار،
فأبطل ذلك. وشدد في أمر الخمر، ومنع من دخوله إلى دمشق - رحمه الله تعالى.
أولاد السلطان الملك العادل
وما استقر لهم من الممالك والإقطاع
كان له رحمه الله تعالى من الأولاد الذكور سبعة عشر، وهم: الملك الكامل، ناصر الدين محمد، ملك الديار المصرية. والملك المعظم: شرف الدين
عيسى، صاحب دمشق والبيت المقدس، والكرك والشوبك، والسواحل. والملك
الأشرف: مظفر الدين موسى، صاحب خلاط وما والاها وحران والرها، وما مع ذلك.
والملك المظفر شهاب الدين غازي، صاحب ميافارقين وما والاها والملك المظفر شهاب
الدين الحافظ أرسلان صاحب قلعة جعبر وأعمالها. والملك العزيز: عثمان له بانياس
وتبنين وأعمال ذلك، وعدة أماكن من بلد دمشق، مثل نوى وغيرها. والملك الصالح: عماد
الدين اسماعيل، له قلعة بصرى وأعمالها، والسواد جميعه - وهو والعزيز في خدمة أخيهما
الملك المعظم.

والملك الفائز: إبراهيم، كان السلطان قد اقطعه الأعمال القوصية والملك المفضل: قطب
الدين، أقطعه السلطان أيضاً الأعمال الفيومية، فأقر الملك الكامل ذلك بأيديهما. والملك
المعز: مجير الدين يعقوب. والملك الأمجد: تقي الدين أبو الفضائل عباس - عند أخيهما
الملك الأشرف صاحب خلاط. وله أيضاً غير هؤلاء: الملك القاهر: إسحاق، وخليل -
وهو أصغرهم.
ومات له من الأولاد - في حياته - أربعة، وهم: شمس الدين مودود، والد الملك الجواد
يونس. والملك الأوحد: نجم الدين أيوب، الذي افتتح خلاط، كما تقدم. والملك المغيث:
محمود. والملك الأمجد حسن - وهو شقيق الملك المعظم، والملك العزيز.
وكان له عدة بنات، أجلهن ضيفة خاتون، والدة الملك العزيز، ابن الملك الظاهر صاحب
حلب.
ولما مات السلطان الملك العادل، أقر ولده - الملك المعظم - أحوال دمشق، على ماهي
عليه في أيام والده بقية جمادى الآخرة. فلما استهل شهر رجب، أعاد المكوس وأطلق
الخمور والمنكرات، وما كان والده السلطان قد أبطله. فقيل له في ذلك، فاعتذر بقلة الأموال
وقتال الفرنج.
ثم سار إلى بانياس، وراسل الأمير صارم الدين التبيني في تسليم الحصون التي بيده،
فأجاب إلى ذلك، وسلمها، فأخرب الملك المعظم بانياس وتبنين. وأعطى ما كان بيد أولاد
الأمير فخر الدين جهاركس لأخيه الملك العزيز عثمان، وزوجه ابنة جهاركس. ونزل الأمير
صارم الدين وولده وأصحابه من الحصون، فأكرمهم الملك المعظم وأحسن إليهم، وأظهر أنه
ما أخرب بانياس وتبنين، إلا خوفاً من استيلاء الفرنج عليها.
ذكر أخبار السلطان الملك الكامل ناصر الدين ابن السلطان الملك العادل
سيف الدين، أبي بكر محمد بن أيوب
وهو السادس من ملوك الدولة الأيوبية بالديار المصرية.
ملك الديار المصرية بعد وفاة والده الملك العادل، في جمادى الآخرة سنة خمس عشرة
وستمائة. وكان قبل ذلك ينوب عن والده بها كما تقدم.

ونحن نذكر أخبار الملك الكامل، وما اتفق من الحوادث والوقائع في أيامه، بالديار المصرية:
في كل سنة نبدأ بذلك، ثم نذكر في بقية السنة أخبار ملوك الشام من إخوته وغيرهم، ومن
توفي فيها من المشهورين، ونأتي بالسنة التي بعدها، على ما تقف عليه - إن شاء الله.
نزول الفرنج على ثغر دمياط
كان نزول الفرنج على ثغر دمياط في يوم الثلاثاء، لثلاث خلون من شهر ربيع الأول، سنة
خمس عشرة وستمائة - وذلك قبل وفاة الملك العادل، وهو إذ ذاك بمرج الصفر.
ونزلوا بالبر الغربي. فخرج إليهم الملك الكامل بعساكره، وكتب إلى السلطان بالخبر.
فأرسل إليه عساكر الديار المصرية التي كانت في صحبته.
وأقام الملك الكامل بثغر دمياط
بظاهرها، واتصل القتال بين الفريقين.
فلما كان في جمادى الأولى، ملك الفرنج برج السلسلة - وهو بين دمياط والبر الغربي، في
وسط بحر النيل - وذلك أنهم عملوا برجا من الخشب على بطسةٍ كبيرة، وأسندوه إلى
البرج. وحصل القتال بين المسلمين المقيمين به وبين الفرنج، إلى أن ملكوه في يوم السبت، ثامن
الشهر.
ثم كانت وقعةٌ كبيرة بين المسلمين والفرنج. فلما كان في شهر رمضان، عمل الفرنج مرمةً
عظيمة، وزحفوا بها في بطسة، وقصدوا سور دمياط. فأحرقها المسلمون. وغرق للفرنج
في هذا الشهر مراكب كثيرة، في البحر الملح.
ذكر حوادث وقعت في مدة حصار ثغر دمياط
كان مما اتفق في مدة الحصار جباية التبرع من التجار، من أرباب الأموال وذلك في ذي
القعدة، سنة خمس عشرة.
وفي يوم الثلاثاء، سابع عشر من الشهر، رحل السلطان الملك الكامل عن ثغر دمياط،
وتأخر إلى أشموم.
وسبب ذلك أن الملك الفائز كان عند أخيه الملك الكامل بثغر دمياط، وكان الأمير عماد
الدين بن المشطوب يكره الملك الكامل، فأراد القبض عليه، وإقامة الملك الفائز. فاتصل
ذلك بالكامل، فارتحل عن دمياط ليلاً، وترك خيامه وخزائنه.
فشعر المسلمون برحيله،

فارتحلوا بأجمعهم، وتركوا أثقالهم وأموالهم. وأصبح الفرنج فلم يروا أحداً في البر الشرقي.
فظنوا أن ذلك مكيدة، فارتابوا. ثم حققوا الأمر، فلما اتضح لهم عدوا بجملتهم، وكبسوا
المنزلة ونهبوا ما كان بها، واحتاطوا بدمياط براً وبحراً.
وكان السلطان قصد أن يتوجه إلى مصر، لخوفه من ابن المشطوب، فأشار عليه بعض
الأمراء بالإقامة على المنصورة، فاستقر بها. وثارت الفتن بالديار من العربان، فكانوا على
المسلمين أشد من الفرنج.
وصول الملك المعظم عيسى
صاحب دمشق وإخراج عماد الدين بن المشطوب وما اتفق له بعد خروجه
كان وصول الملك المعظم شرف الدين عيسى إلى المنصورة في يوم الخميس، لليلة بقيت من
ذي القعدة، من السنة. فاشتد به عضد أخيه الملك الكامل.
ولما وصل، شكى له ما يحذره من أمر عماد الدين بن المشطوب.
فركب الملك المعظم
وجاء إلى خيمة عماد الدين. فلما أخبر بذلك، قال لغلمانه قولوا له هو نائم ! فذكروا ذلك
للملك المعظم، فقال: ننتظره إلى أن يستيقظ، وثنى رجله إلى عنق فرسه. فلما طال ذلك
على عماد الدين، خشى عاقبة هذا الأمر. فخرج إليه وهو بغير خف، وقبل يده. فقال له
المعظم: ليركب الأمير، حتى يحصل الاتفاق معه على نصب المجانيق على أطراف البحر.
فلما ركب، سايره الملك المعظم وشغله بالحديث حتى أحاط به عسكر المعظم. ثم نظر
إليه نظرة مغضب، وقال له: لما مات السلطان الملك العادل كان من أولاده من اسمه: عماد
الدين بن المشطوب ؟! قال: الله الله، يا مولانا ! فأمر بإنزاله عن فرسه فأنزل. وحمل على
بغلة إلى أشموم.
ولما أمر الملك المعظم بسفره، اعتذر أن لا نفقة معه، وسأل الرجوع إلى خيمته ليلبس
خفه، ويأخذ نفقة. فأعطاه الملك المعظم خمسمائة دينار، وقال له: جميع ما تخلف من
أموالك وأثقالك ودوابك يصل إليك. ثم رجع المعظم إلى خيمة ابن المشطوب، فجهز إليه
خيله وأثقاله وغلمانه، وجميع ما يتعلق به، فلحقوه إلى الشام.
ووصل ابن المشطوب إلى دمشق، ثم إلى حماه وأقام بها.
فبعث إليه الملك الأشرف

منشوراً، بأرجيش ببلاد خلاط، وزيادة. وبعث إليه بالخلع. فتوجه إلى خدمته، فأكرمه
وأحسن إليه. فصار يركب بالشبابة، ويمشي مشي الملوك.
ثم خرج عن طاعة الملك الأشرف، في سنة سبع عشرة. وعاث في أرض سنجار،
وساعده صاحب ماردين. فسار إليه الملك الأشرف، ونزل على دنيسر. وجاء الملك
الصالح، فأصلح بين الأشرف صاحب ماردين. ودخل ابن المشطوب إلى تل أعفر. فسار
إليه فارس الدين بن صيره من نصيبين، وبدر الدين لؤلؤ من الموصل، وحصراه بها. فاستنزله
الملك الرحيم بدر الدين لؤلؤ بالأمان، وحمله معه إلى الموصل، ثم قيده وبعث به إلى الملك
الأشرف. فاعتقله بالجب فمات بالجوع والقمل. وكانت وفاته في سنة تسع عشرة وستمائة.
على ما نذكره.
ذكر وصول الصاحب صفي الدين بن شكر ووزارته
وفي مستهل ذي الحجة، سنة خمس عشرة وستمائة، قدم الصاحب صفي الدين بن شكر
من آمد، وكان السلطان قد استدعاه. فلما قدم، ركب إليه وتلقاه وأكرمه وذكر له السلطان
ما يحتاج إليه من الأموال والكلف، فالتزم له بتحصيل ذلك. وشرع في مصادرات أرباب
الأموال والتجار والأكابر. وقرر التبرع على الأملاك، وأحدث حوادث كثيرة. وجبي
الأموال، حتى من الساسة والصوانع والمغاني ومعلمي المكاتب، وغيرهم.
واستهلت سنة ست عشرة وستمائة:
في مستهل المحرم منها، أمر السلطان بخروج أهل مصر والقاهرة، لقتال الفرنج. فخرج
الناس. وأقام الصاحب بالقاهرة إلى سابع عشرين من شهر رمضان، سنة ست عشرة.
فاستدعاه السلطان واستوزره، وصرفه. واحتجب الملك الكامل من الناس بعد ذلك.
وكان قبل ذلك يركب بنفسه، ويستحث العوام على جهاد الفرنج.
خراب القدس
كان ابتداء الخراب بالقدس في بكرة يوم الأحد سابع المحرم، سنة ست عشرة وستمائة.
وسبب ذلك أن الملك المعظم لما توجه إلى أخيه الملك العادل، بلغه أن طائفة من الفرنج قد

عزموا على قصد القدس. فاتفق مع جماعة من الأمراء على إخرابه. وقال: قد خلا الشام
من العساكر، فلو أخذه الفرنج حكموا على دمشق وبلاد الشام. فأمر بإخرابه. وكان
بالقدس الملك العزيز عثمان، وعز الدين أيبك أستاذ الدار.
ووقع في البلد ضجة عظيمة. وخرج الناس أجمع، حتى البنات المخدرات والعجائز
والشيوخ وغيرهم، إلى الصخرة والأقصى، فقطعوا شعورهم ومزقوا ثيابهم. وخرجوا على
وجوههم وتركوا أموالهم. وامتلأت بهم الطرقات، فمنهم من توجه إلى الديار المصرية،
ومنهم من توجه إلى الكرك، وبعضهم إلى دمشق. وصار البنات المخدرات يمزقن ثيابهن،
ويلففنها على أرجلهن، من الحفا. ومات خلق كثير من الجوع والعطش. ونهب ما كان لهم
بالقدس، حتى بيع القنطار الزيت بالقدس بعشرة دراهم، ورطل النحاس بنصف درهم.
وأكثر الشعراء القول في ذلك، فقال بعض أهل العلم - يشير إلى الملك المعظم - من أبيات:

في رجبٍ حلّل الحميّا وأخرب القدس في المحرّم !

ذكر استيلاء الفرنج على دمياط

كان استيلاء الفرنج على ثغر دمياط في يوم الثلاثاء، لخمس بقين من شعبان سنة ست
عشرة - وقيل لثلاث بقين منه.
وذلك أنهم كانوا قد أحاطوا بها براً وبحراً، ومنعوا الميرة عن أهلها، حتى هلكوا من
الجوع، ومات أكثرهم. وعدمت الأقوات، وغلت الأسعار حتى بيع السكر بزنته ذهباً،
والدجاجة بثلاثين ديناراً، والبيضة بدينار، وبيعت بقرة بألف وستمائة دينار، واشترط البائع
أن يكون له بطنها ورأسها، فباع ذلك بمائة دينار وأربعة عشر ديناراً مصرية - على ما
حكاه ابن جلب راغب في تاريخه.
قال: فلما اشتد بهم ذلك، بذل لهم الفرنج الأمان على أنهم يخرجون منها ويتسلمها الفرنج،
فأجابوه إلى ذلك، وخرج الناس منها. وبقي من عجز عن الحركة، فأسرهم الفرنج، وحملوا
في المراكب إلى عكا. فكانت مدة الحصار على ثغر دمياط ستة عشر شهراً، واثنين
وعشرين يوماً. وكان السلطان إذا أراد أن يرسل إلى دمياط أرسل العوامين، فيحلمون

الكتب ويغطسون في الماء، ويطلعون من تحت سور دمياط.
فلما أحس الفرنج بذلك،
عملوا شباكاً وخطاطيف من دمياط إلى البر الغربي، وثبتوا ذلك في المراكب. فصار العوام
إذا غطس في الماء وقع في الشباك أو الخطاطيف، فيأخذونه فلا يكاد يفوتهم عوام، ويقتلون
من يجدونه. فامتنع الدخول إليها.
ولما استولى الفرنج على ثغر دمياط، أشار السلطان الملك الكامل على أخيه الملك المعظم
بالعود إلى الشام، وغزو الفرج من تلك الجهة، واستجلاب العساكر من بلاد الشرق.
ذكر عود الملك المعظم شرف الدين عيسى إلى الشام وما اعتمده
قال الشيخ أبو المظفر: يوسف، سبط بن الجوزي في تاريخه:
لما استولى الفرنج على ثغر دمياط، كتب إلى الملك المعظم كتاباً بخطه، يخبرني بما جرى
على أهل دمياط من الكفر، ويقول: إني كشفت ضياع الشام فوجدتها ألفي ضيعة: ألف
وستمائة أملاك لأهلها، وأربعمائة سلطانية. وكم مقدار ما تقوم هذه الأربعمائة من العساكر
؟ وأريد أن يخرج الدماشقة، ليذبوا عن أملاكهم - الأصاغر منهم والأكابر - ويكون لقاؤنا
وهم في صحبتك إلى نابلس، في وقت سماه.
قال: فجلست في جامع دمشق، وقرأت كتابه عليهم، فأجابوا بالسمع والطاعة فلما حل
ركابه بالساحل وقع التقاعد من الأماثل، فأوجب ذلك أخذ الثمن والخمس من أموالهم،
مؤاخذةً لهم. قال: وخرجت أنا إليه بالساحل وهو نازل على قيسارية، فأقام بها حتى
فتحها عنوةً، وفتح غيرها. وعاد إلى دمشق.
وفاة ست الشام ابنة أيوب
وإيقافها أملاكها، وتفرقة أموالها، وما فعله الملك المعظم مع قاضي الشام، بسبب ذلك
وفي هذه السنة في ذي القعدة، كانت وفاة ست الشام بنت أيوب: أخت السلطان الملك
الناصر صلاح الدين، والملك العادل. وهي شقيقة الملك المعظم: شمس الدولة تورانشاه،
وسيف الاسلام: ابني أيوب.
وكانت سيدة الخواتين. وهي التي ينسب إليها المدرستان، بدمشق وظاهرها، أحداهما
قبلى البيمارستان النورى، والأخرى ظاهر دمشق بالعوينة.
وتعرف أيضاً بالحسامية، نسبة

إلى ابنها حسام الدين بن لاجين - وكانت دفنته بها. ودفنت هي معه في قبره. وهو القبر
الذي يلي الباب القبو من القبور الثلاثة. والقبلي قبر تورانشاه بن أيوب، والأوسط قبر ابن
عمها: ناصر الدين محمد بن شيركوه بن شادي - وكان قد تزوجها بعد لاجين.
وكانت - رحمها الله - كثيرة الصدقة والبر. وكانت تصنع الأشربة والأدوية والمعاجين
والعقاقير، في كل سنة بألوف دنانير، وتفرقها على الناس.
وكانت ست الشام، وأختها ربعية
خاتون، محرماً على نيف وثلاثين ملكاً وسلطاناً.
وكان الملك المعظم يتهمها أن عندها من الجواهر ما لا يحصى قيمته. وأن ذلك اتصل إليها
مما كان بالقصور بالقاهرة. وكان كثير الإحسان إليها والبر بها، ويمنعها من الخروج من
دمشق، ويظهر أن ذلك برأيها. ويرجو وفاتها عنده، ليستولي على أموالها وأملاكها، فاتفقت
وفاتها وهو بالصيد.
ولما مرضت، جاء وكيلها ابن الشيرجي إلى قاضي القضاة: زكي الدين، وطلبه إليها
بدارها. فأخذ معه أربعين عدلاً من أعيان دمشق، فشهدوا عليها أنها أوقفت أملاكها
على مدرستها، ووجوه البر وأنواع القربات، وجعلت دارها مدرسة ووقفت عليها وقوفاً،
وأبرأت جواريها وخدمها ووكلاءها. وماتت بعد ذلك. وأسندت وصيتها إلى القاضي.
فعاد السلطان من الصيد، فوجد الأمر قد مضى على ذلك. فتألم لوقوعه، وأنكر على
القاضي، وقال: يحضر إلى دار عمتي من غير إذني، ويسمع كلامها، هو والشهود !.
ثم اتفق بعد ذلك أن القاضي طلب جابي أوقاف المدرسة العزيزية - وهو سالم بن عبد
الرازق، خطيب عقرباً - أخو المؤيد العقرباني - وطلب منه حسابها، فأغلظ له في القول.
فأمر القاضي بضربه، فضرب بين يديه، كما تفعل الولاة.
فوجد الملك المعظم سبيلا إلى إظهار ما عنده، فأرسل إلى القاضي بقجة، وهو في مجلس
حكمه، وفي مجلسه الجمال المصري وكيل بيت المال، وجماعة كثيرة من العدول والمتحاكمين،
فجاءه الرسول، وقال للقاضي: السلطان يسلم عليك ويقول لك: الخليفة - سلم الله عليه -

إذا أراد أن يشرف أحداً من أصحابه خلع عليه من ملابيسه، ونحن نسلك طريقه ! وقد
أرسل إليك من ملابيسه، وأمر أن تلبسها في مجلسك هذا، وأنت تحكم بين الناس. وكان
الملك المعظم أكثر ما يلبس قباءً أبيض، وكلوتة صفراء. وفتح الرسول البقجة. فلما نظر
القاضي إلى ما فيها وجم!.
قال الشيخ شهاب الدين أبو شامة: فأخبرني الرسول الذي أحضر هذه الخلعة والرسالة
بذلك، قال: وكان السلطان قد أمرني أن ألبسه إياها بيدي، إن امتنع أو توقف. فأشرت
عليه بلبسها، وأعدت عليه الرسالة. فأخذ القباء ووضعه على كتفه، ووضع عمامته
بالأرض ولبس الكلوتة الصفراء على رأسه، ثم قام ودخل بيته إثر هذه الحادثة، ورمى كبده
ومات. ويقال أن ذلك كان في يوم الأربعاء، سابع عشرين شهر ربيع الأول سنة سبع عشرة
وستمائة.
وفوض السلطان قضاء الشام بعده للجمال المصري وكيل بيت المال، وذلك في شهر رجب
سنة ثمان عشرة وستمائة.
قال أبو المظفر سبط ابن الجوزي: وكانت حركةً قبيحة وواقعة شنيعة، لم يجر في الإسلام
أقبح منها. وكانت من غلطات الملك المعظم. قال ولقد قلت له: ما فعلت إلا بصاحب
الشرع، ولقد وجبت عليك دية القاضي. فقال: هو أحوجني إلى هذا. ولقد ندمت.
واتفق أن الملك المعظم بعث إلى شرف الدين بن عنين الشاعر - حين تزهد - خمراً
ونردا، وقال: سبح بهذا - إشارةً إلى أن زهده ليس حقيقة ! فكتب إليه ابن عنين:

يا أيها الملك المعظم، سنّةً أحدثتها، تبقى على الآباد
تجرى الملوك على طريقك بعدها : خلع القضاة وتحفة الزّهّاد

وفي هذه السنة، توفي الشيخ جلال الدين أبو محمد: عبد الله بن نجم ابن شاس بن نزار، بن
عشائر بن عبد الله بن محمد بن شاس، الجذامي السعدي: الفقيه المالكي. وكان عالم
مذهب مالك في زمانه. وصنف في مذهب مالك كتاباً نفيسا، سماه: الجواهر الثمينة في
علم صاحب المدينة. فانتفع به المالكية انتفاعاً كثيرا. وكان مدرساً بمدرسة المالكية

بمصر، المجاورة للجامع. ثم توجه إلى ثغر دمياط بنية الجهاد، فتوفى هناك في جمادى
الآخرة، أو رجب، سنة ست عشرة وستمائة - رحمه الله تعالى.
وفيها، توفي بالقاهرة القاضي: جمال الدين أبو الحسن علي، ابن القاضي شرف الدين أبو
المعالي شكر، بن القاضي كمال الدين أبو السعادات: أحمد بن شكر، الشافعي - رحمه الله
تعالى.
واستهلت سنة سبع عشرة وستمائة:
في هذه السنة، كانت وقعة البرلس: بين السلطان الملك الكامل والفرنج. وكانت من الوقعات
العظيمة، المشهورة. قتل من الفرنج فيها عشرة آلاف. وغنم المسلمون خيولهم وسلاحهم.
فرجعوا إلى دمياط.
وفيها أخذ ابن حسون - مقدم الشواني الإسلامية - للفرنج إحدى عشرة حراقة
وفيها في يوم الاثنين، السابع عشر من جمادى الآخرة، احترق بمدينة قوص، بظاهرها -
خان الأمير مجد الدين مكرم بن اللمطي. وعدم للتجار فيه ما يقارب قيمته خمسمائة ألف
دينار.
وكان متولي الأعمال القوصية، يومئذٍ، الأمير سيف الدين: سنقر الدوادار العادلي. فكتب
الأديب الفاضل: نجم الدين عبد الرحمن ابن وهيب القوصي، عن المتولي، كتاباً إلى السلطان
الملك الكامل، يخبره بهذه الحادثة، وهو:
المملوك يقبل الأرض بالمقام العالي، المولوي السلطاني، الملكي الكاملي الناصري: غياث
الاسلام، سلطان الأنام، ولي النعمة، كاشف غياهب الغمة، جامع فضيلتي السيف والقلم،
ورافع زينتي العلم والعلم - لا زالت آيات ملكه باهرة، ونجوم خرصانه في سماء العجاج
زاهرة، ووجوه أوليائه ناضرة، إلى ربها ناظرة ووجوه أعدائه ساهية ساهرة، تظن أن يفعل
بها فاقرة.
وينهى وقوع الكائنة التي عظم مصابها وأصاب عظيمها، وآلم موجعها وأوجع أليمها، وسقم
بها من القلوب صحيحها، وصح بها من الخطوب سقيمها.
وأحالت الأفكار في ميدان
الفكرة، وأطلق من الألسن والأعين عنان العبرة والعبرة. وهي حلول النار بالخان، الذي
أنشأه الأمير مجد الدين مكرم بن اللمطي بظاهر مدينة قوص

وهذا الخان المذكور، قد كان محطاً للرفيق ومجتمعاً للسفار، يأتون إليه من كل فج وطريق،
خصوصا الكارم الإسكندري - عوضهم الله أموالهم، وبلغهم آمالهم - فلا ينزلون بغيره
منزلا، ولا يختارون سواه حصناً وموئلاً. وإذا حل به أحدهم فكأنه ما فارق وطنه.
يتخيرون منازله وغرفه، ويهرعون إليه كما يهرعون ليوم عرفة.
فاتفق لقضاء الله السابق وقدره اللاحق، وإظهار ما كان من مغيبه مستورا، وتلاوتهم كان
ذلك في الكتاب مسطورا - فاتفق يوم الاثنين السابع عشر من جمادى الآخرة، أن خطبت
على أعاليه ألسن النيران، واسود الفضاء المشرق لتتابع الدخان. وعاين أهله الهلاك،
وجاءهم الموت من كل مكان. فلم يلبثوا إلا ساعةً من نهار، وقد احدقت بهم النار
إحداق الإجفان بالأحداق واستدار عليهم اللهب استدارة الأطواق بالأعناق. وتلا لهم
لسان القدر: ما عندكم ينفد وما عند الله باق.
وزحفت الخطوب إليه زحفا، وصار للوقت دكاً دكا. والناس حوله صفاً صفا. ولسان
النار يقول: هل من مزيد ؟ ومدامع الخلق تهمى وتزيد، فعلت الأصوات عند ذلك بالدعاء،
وكاد اللهب يخمد من جريان ماء البكاء، وشهد الناس منه اليوم المشهود. وهبت الأرياح
فلم تخمد للأرواح ضراما، وخالفت هذه النار نار الخليل، فلم تعقب برداً وسلاما !
فكل مالكٍ لموضع صار فيه مالكا. وكل ذي حال حسنة حاله حالكا. فمن فائزٍ بنفسه
دون نفائسه، ومن راغبٍ في هربه لشدة رهبه، ومن آبقٍ بمرده دون أهله وولده. قد لزم كل
منهم ما يعنيه، وعمل بقوله عز وجل: يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه،
لكل امريءٍ منهم يومئذ شأن يغنيه. فإنا لله وانا إليه راجعون، ولأمره طائعون. لا صادق
لمصادف قضائه، ولا صارف لصرف بلائه.
لم يبق هذا المصاب لهؤلاء القوم جلدا، ولم يؤخر عنه حزنا ولا كمدا. وكل أحد منهم
يقول: أهلكت مالاً لبدا. فكم من كريم كان يجزل الهبات فصار جديرا بأن يتصدق بها
عليه. وكم من ممولٍ كان يؤدى الزكاة فصار مستحقاً بأن تصرف إليه. كانوا أعزاء في الغربة

بأموالهم، فصاروا أذلاء في المواطن لإقلالهم. لم يخلص لهم إلا النزر اليسير، والشيء الحقير،
والقليل من الكثير مقدار أزوادهم إلى مواطنهم، وكفافهم إلى وصول مساكنهم.
هذا، ولم يعلم السبب في وقوع النار. فقال قوم: صاعقةٌ سمائية، وقال قوم: آفةٌ أرضية.
وتزاحمت في ذلك الظنون، وعند الله من علمه السر الكنون. إلا أن المملوك أرسل عليه
من الماء طوفانا، وأجرى إليه بحارا - ولا أقول غدرانا - إلى أن عاد غريقاً بعد ما كان
حريقا، وصار موردا بعد ما كان موقدا. وأصبح ماء ثجاجاً بعد ما كان سراجاً وهاجا.
وعلموا أن المدفوع من بلاء الله أعظم، وقرأوا: ولكن الله سلم.
أنهى المملوك ذلك، ليطالح بخفى الأحوال وجليها، حتى لا يخفى عن علمه السامي خافية
- لا زالت أنوار المملوك بذلك المقام متوالية متلالية - إن شاء الله تعالى.
وفيها، في العشر الآخر من شعبان، صرف قاضي القضاة تاج الدين ابن الخراط عن
القضاء، بمصر والوجه القبلى.
وسبب ذلك أن إحدى بنات مرزوق العلائي تزوجت بإنسان علاف اسمه داود، وهو غير
كفءٍ لها. فاستدعاه السلطان إلى المنصورة، وعقد له مجلسا وسلم المرأة لزوجها.
وصرف القاضي عن الحكم، وصك الشهود. وأضاف قضاء مصر والوجه القبلي لقاضي
القضاة: شرف الدين بن عين الدولة الصفراوي.
ثم ولى القاضي تاج الدين المذكور، بعد ذلك، قضاء دمياط وكان بها، إلى أن مات -
رحمه الله.
وفيها خربت صفد. ثم عمرها الفرنج بعد ذلك، عندما تسلموها من الملك الصالح
إسماعيل - في سنة ثمان وثلاثين.
وفيها قتل صاحب سنجار أخاه. فسار الملك الأشرف إليها، فأخذها وعوض صاحب
سنجار الرقة
وفيها قصد مظفر الدين بن زين الدين - صاحب إربل - الموصل. فخرج إليه بدر الدين
لؤلؤ، فهزمه زين الدين، فأفلت لؤلؤ وحده. فانتصر الملك الأشرف له، ونازل إربل. فبعث
الخليفة إليه، فرده عنها، وأصلح بين الملوك.

وفي هذه السنة، كانت وفاة الملك الفائز: إبراهيم، بن الملك العادل.
وكان قد وافق الأمير عماد الدين بن المشطوب، وحلف له جماعةٌ من الأمراء بالديار
المصرية على الملك الكامل. وكاد أمره يتم. فاتفق من إخراج ابن المشطور ما قدمناه.
وبقي الملك الكامل في ضيقٍ منه.
فيقال انه استشار الصاحب - صفي الدين بن شكر الوزير - في أمره، فأشار بإرساله إلى
الملوك ببلاد الشرق، يستحثهم على الحضور. فلما كانت واقعة البرلس، قال السلطان الملك
الكامل للملك الفائز: إن الملك المعظم قد أبطأ علينا والملك الأشرف، وليس لهذا المهم
سؤال، فتوجه إلى أخيك الملك الأشرف، وعرفه ما نحن فيه من الضائقة. فتوجه.
وكان الملك الأشرف على الموصل. فمرض الفائز بين سنجار والموصل. فمات - وقيل انه
سم - فرده من معه إلى سنجار. فدفن عند تربة عماد الدين زنكي - رحمهما الله تعالى.
وحكى ابن جلب راغب، في وفاته، أن السلطان جهزه إلى الملك الأشرف، باتفاق من
الملك المعظم، وبرأي الصاحب صفي الدين، وأنه جهز معه شيخ الشيوخ، فسقاه سماً في
طريقه. فلما شعر الفائز به، قال له: يا شيخ السوء فعلتها بي ! كل من هذا الذي
أحضرته. فأكل منه، فماتا جميعاً.
وحكى غير ابن جلب راغب - وهو أقعد منه بهذه الحادثة - في وفاة شيخ الشيوخ،
فقال ما معناه: كانت وفاة شيخ الشيوخ: صدر الدين أبي الحسن محمد، بن الإمام شيخ
الشيوخ عماد الدين أبي الفتوح عمر، ابن الفقيه أصيل خراسان أبي الحسن علي، بن الإمام
الزاهد: أبي عبد الله محمد، بن حمويه، الحموي الخراساني النيسابوري الجويني، البحيراباذي
الشافعي - في منتصف جمادى الآخرة - وقيل في يوم الاثنين رابع عشرين الشهر بالموصل،
بعلة الذرب. وكان الملك الكامل قد أرسله إلى الخليفة، يستنجده على الفرنج، فمرض بين
حران والموصل، فوصل إلى الموصل ومات بها. وقيل كانت وفاته في جمادى الأولى.
ومولده بجوين في سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة. وجوين هذه، التي نسب إليها، ناحية كبيرة

من نواحي نيسابور، وإليها ينسب إمام الحرمين أبو المعالي: عبد الملك الجويني. وأما أبو
المعالي الجويني: محمد بن الحسن ابن عبد الله - فهو منسوب إلى جوين: قريةٍ من قرى
سرخس. وهو إمام فاضل. وأما وقاد بن قيس الجويني الشاعر فمنسوب إلى جوين: بطنٍ
من سنبس.
وفي هذه السنة كانت وفاة السيد الشريف: قتادة بن إدريس، الزيدي الحسني العلوي، أمير
مكة. وكنيته أبو عزيز. كان رحمه الله - عادلاً منصفا. واطمأن الحاج في أيامه. وما
وطيء بساط خليفةٍ قط. وكان يحمل إليه في كل سنة من بغداد الخلع والذهب. وكان
يقول: أنا أحق بالخلافة من غيري.
وبعث إليه الخليفة الناصر يستدعيه، ويقول له: أنت ابن العم والصاحب، وقد بلغني
شهامتك وحفظك للحاج، وعدلك وشرف نفسك، وقد أحببت أن أراك وأشاهدك،
وأحسن إليك. فكتب إليه:

ولي كفّ ضرغام أدلّ ببسطها وأشرى بها بين الورى وأبيع
تظلّ ملوك الأرض تلثم ظهرها وفي وسطها للمجدبين ربيع
أأجعلها تحت الرّجا، ثم أبتغي خلاصاً لها، إني إذاً لوضيع
وما أنا إلا المسك في كل بقعة يضوع، وأما عندكم فيضيع

وكانت وفاته - رحمه الله - إحدى الجماديين، بمكة - شرفها الله تعالى - وله سبعون
سنة.
وملك بعده ابنه الحسن - وقيل أن ابنه الحسن سمه - وكان له ولد آخر اسمه: راجح.
وكان قتادة قد اتسعت ولايته من حدود اليمن إلى المدينة: وله قلعة ينبع واستكثر من
المماليك. وذكر ابن الأثير وفاته في سنة ثمان عشرة. والله أعلم.
وفيها، كانت وفاة الملك المنصور: محمد بن عمر بن شاهنشاه ابن أيوب - صاحب حماه.
وكان شجاعاً محباً للعلماء. وصنف كتابا سماه: المضمار جمع فيه جملةً من التواريخ،
وأسماء من ورد عليه وأقام عنده، في عشرة مجلدات. وكان كثير الصدقة، حافظاً لرعيته.
وكانت وفاته بحماه في شوال، ودفن عند أبيه.
وقام بعده بملك حماه ولده الأكبر: الملك الناصر قليج أرسلان. ثم أخذ منه الملك الكامل حماه، وأعطاه لأخيه الملك المظفر، واعتقل قليج أرسلان في

الجب بقلعة الجبل، بظاهر القاهرة المعزية.
وفيها كانت وفاة الملك الصالح: نجم الدين محمود بن محمد بن قرا أرسلان بن أرتق،
صاحب آمد. وكان شجاعا عاقلاً جوادا، محباً للعلماء. وكان الملك الأشرف يحبه،
وحضر إلى خدمة الأشرف غير مرة إلى دنيسر، وغيرها. ومات بآمد في صفر.
وقام بعده ولده الملك المسعود. وكان ضد اسمه: بخيلاً فاسقا.
حضره الملك الكامل بعد
ذلك في آمد، ووجد في قصره خمسمائة امرأة من الحرائر يفترسهن، من بنات الناس. فأخذه
الكامل إلى مصر، وأحسن إليه. وكاتب الروم وسعى في هلاك الكامل. فقبض عليه
واعتقله في الجب. ثم أطلقه، فتوجه إلى التتار. وكان معه جواهر كثيرة، وأخت جميلة،
فقتله التتار، وأخذوا ما معه.
وفيها، في العشر الأول من ذي الحجة، توفي الشيخ القدوة العارف: أسد الشام عبد الله
اليوناني صاحب الكرامات المشهورة والرياضات والمجاهدات. وكان - رحمه الله ورضي
عنه - لا يقوم لأحدٍ من الملوك ولا لغيرهم، تعظيماً لله تعالى، ويقول: لا ينبغي القيام لغير الله
تعالى. وكان لا يمس بيده درهماً ولا دينارا، ولا يلبس غير الثوب الخام، وقلنسوة من جلد
الماعز. ويبعث إليه بعض أصحابه في الشتاء بفروة قرظ، يلبسها، ثم يؤثر بها إذا اشتد
البرد. وكان إذا لبس ثوباً قال: هذا لفلان وهذا لفلانة، يوعد به ويعطيه إذا أتاه غيره.
وكان من خبر وفاته أنه دخل الحمام في يوم الجمعة واغتسل، ولبس ثوبيه، وكان قد سماهما
لا مرأتين، وصلى الجمعة بجامع بعلبك وهو صحيح. وجاءه داود المؤذن وكان يغسل
الموتى، فقال له: ويحك يا داود، انظر كيف تكون غداً ! فلم يفهم. ثم صعد الشيخ
المغارة، وكان قد أمر الفقراء أن يقطعوا الصخرة التي عند اللورة، التي كان ينام تحتها ويجلس
عندها، وعندها قبره. فنجزت في نهار الجمعة، وبقي منها مقدار نصف ذراع. فقال لهم:
لا تطلع الشمس إلا وقد فرغتم منها.
وبات في ليلة السبت، وهو يذكر أصحابه ومعارفه، ويدعو لهم حتى طلع الفجر. فصلى

بهم الصبح، وخرج إلى صخرة كان يجلس عليها، فجلس وبيده سبحة. وقام الفقراء
ليكملوا حفر الصخرة، فطلعت الشمس وقد فرغوا منها، والشيخ قاعد وبيده السبحة.
وجاء خادم من القلعة إليه في شغل، فرآه نائما، فما تجاسر أن يوقظه. فجلس ساعة، فلما
طال مجلسه قال لخادم الشيخ: يا عبد الصمد، ما أستطيع أن أقعد أكثر من هذا. قال عبد
الصمد: فتقدمت إليه، وناديته: سيدي سيدي ! فما تكلم. فحركته، فإذا هو ميت !
فارتفع الصياح.
وكان الملك الأمجد - صاحب بعلبك - في الصيد، فأرسلوا إليه. فجاء، فرآه على تلك
الحال: لم يقع: ولا وقعت السبحة من يده، وهو كأنه نائم ! فقال: نبني عليه بنياناً وهو على
حاله، ليكون أعجوبة ! فقال أتباع الشيخ: السنة أولى. وغسله داود، ودفع الثوبين
للمرأتين.
ولما ألحدوه، قال له الحفار: يا شيخ عبد الله، اذكر ما فارقتنا، أو اذكرنا عند ربك. قال:
ففتح عينيه، ونظر إلى شزراً. ودفن رحمه الله في يوم السبت، وقد جاوز ثمانين سنة.
والأخبار عنه في الكرامات كثيرة، قد اقتصرنا على هذه النبذة.
واستهلت سنة ثماني عشرة وستمائة:
انهزام الفرنج واستعادة ثغر دمياط
وتقرير الهدنة
في هذه السنة، توجه الملك المعظم شرف الدين عيسى، بن السلطان الملك العادل، إلى
أخيه الملك الأشرف، واجتمعا على حران.
وكان الملك المعظم من أحرص الناس على إعانة أخيه الملك الكامل، على استعادة ثغر
دمياط من الفرنج. وكان الملك الأشرف قد باين الملك الكامل، وتقاعد عنه في هذه
الحادثة: فتلطف الملك المعظم بالملك الأشرف، ولم يزل به حتى قطع الفرات بالعساكر،
والمعظم يقدمه، إلى أن نزل الملك المعظم على حمص، والأشرف على سلمية.
قال أبو المظفر يوسف، في تاريخه: وكنت قد توجهت إلى حمص لطلب الغزاة، وكان العزم
قد وقع على دخول العساكر إلى طرابلس. فاجتمعت بالملك المعظم على حمص في شهر

ربيع الآخر. فقال لي: قد سحبت الأشرف إلى ههنا بأسناني وهو كاره، وكل يوم أعتبه في
تأخره وهو يكاشر، وأخاف من الفرنج أن يستووا على مصر. وهو صديقك، فتوجه إليه،
فإنه قد سألني عنك مرارا.
قال: ثم كتب كتابا إلى أخيه بخطه نحو ثمانين سطرا، فأخذته وتوجهت إليه إلى سلمية ؟
فتلقاني وأكرمني، فقلت له: المسلمون في ضائقة، وإذا أخذ الفرنج الديار المصرية، ملكوا
حضرموت وعفوا آثار مكة، وأنت تلعب ؟ قم الساعة وارحل. فأمر برمي الخيام
والدهليز لوقته. وقمت فركبت، وسبقته إلى حمص. فركب المعظم والتقى بي، وقال: والله
ما نمت البارحة، ولا أكلت في يومي هذا ! فأخبرته أن الملك الأشرف يصل إليه بكرة
الغد. فسر بذلك، ودعا لي. وأقبلت الأطلاب من الغد. وجاء الأشرف فما رأيت أجمل
من طلبه، ولا أحسن رجالا ولا أكمل عدة.
قال: وبات الأخوان الملكان في تلك الليلة يتشاوران. فاتفقا على الدخول في السحر إلى
طرابلس، وكانوا على أحسن حال. فأنطق الله الملك الأشرف - من غير قصد - وقال
للمعظم: يا خوند، م عوض دخولنا إلى الساحل ونضعف عساكرنا وخيلنا، ونضيع الزمان،
ما نتوجه إلى دمياط ونستريح ! فحلفه المعظم بقول رماة البندق فحلف، وقبل المعظم
قدمه.
ونام الأشرف، فخرج المعظم من الخيمة ونادى في الناس: الرحيل إلى دمياط، وما كان يظن
أن الأشرف يسمح بذلك. وساق المعظم إلى دمشق، وتبعته العساكر. ونام الأشرف في
خيمته إلى وقت الظهر، وانتبه فدخل الحمام فلم ير حول خيمته خيمة ! فسأل عن
العساكر، فأخبر بالخبر. فسكت وركب إلى دمشق. ونزل القصر في رابع عشر جمادى
الأولى، فأقام بها إلى سلخ الشهر.
وعرض العساكر، وتوجه إلى مصر، هو والملك المعظم - في غرة جمادى الآخرة. ووصلوا
إلى المنصورة، في ثالث شهر رجب من السنة. ووصل أيضاً الملك المظفر بن الملك
المنصور، صاحب حماه، وغيره من الملوك. هذا ما كان من خبر هؤلاء.

وأما الملك الكامل، فإنه في هذه السنة اجتهد في قتال الفرنج.. واستمر القتال بينهم وبينه
في البر والبحر. وطلع النيل وعم البلاد، وجرى في بحر المحلة، فرتب السلطان مراكب
الأسطول في بحر المحلة، ومنع الميرة عن الفرنج. فاشتد ضررهم لذلك، وعدموا القوت.
وعزموا على الرجوع إلى دمياط، فأحرقوا أثقالهم وهربوا ليلاً. فأمر السلطان بقطع جسر
البرمون، وغيره من الجسور، فقطعت. فأحاط بهم النيل من كل جانب. وكان فيهم مائة
كند، وثمانمائة من الخيالة المعروفين، وملك عكا، والدوك واللوكان نائب الباب، ومن الرجالة
ما لا يحصى كثرة.
فلما عاينوا الهلاك، رسالوا السلطان، وبذلوا له أن ينزلوا على ثغر دمياط، ويؤمنهم على
أنفسهم وأموالهم. فأجابهم إلى ذلك. ووصل الملكان: الأشرف والمعظم في هذه الأيام.
وتقررت الهدنة ثماني سنين، وأنه يطلق جميع الأسرى من الجهتين.
وجلس الملك الكامل مجلساً عظيماً. ووقف الملك الأشرف والملك المعظم وسائر الملوك
في خدمته. ولم يجلس معه إلا الملك المعظم محمد بن سنجرشاه، بن أتابك، صاحب جزيرة
ابن عمر - وكان قد وصل إلى الملك الكامل في أوائل هذه السنة، قبل وصول الأشرف
والمعظم - وعظمه الملك الكامل تعظيماً كثيراً. وكان في مدة مقامه عنده، إذا حضر رسل
الفرنج يقول لهم الملك الكامل: إنه الآن لا حكم لي، وحديثكم مع ملك الشرق، والأمر له.
وحضر رسول الفرنج مرة، فوقف الملك الكامل بين يدي الملك المعظم هذا، وكذلك من كان
بحضرته من الملوك الأيوبية. وكان الملك المعظم محمد شكلاً مهيباً، جهوري الصوت، هيول
الخلقة ففرق رسل الفرنج منه. ولما جلس السلطان في هذا اليوم، أراد الملك المعظم الوقوف
بين يديه مع الملوك الأيوبية، فلم يمكنه من ذلك، وأجلسه إلى جانبه.
وحضر الملك يوحنا - صاحب عكا - إلى السلطان بظاهر البرمون، بعد أن أعطاه
السلطان رهاين: ولده الملك الصالح نجم الدين أيوب، وأخاه الملك المفضل قطب الدين،

وجماعة من أولاد الأمراء. فحلف يوحنا للسلطان، ولأخويه: الأشرف والمعظم، وحلفوا
له. وذلك في يوم الأربعاء، لإحدى عشرة ليلة بقيت من شهر رجب، من السنة.
وتسلم ثغر دمياط في تساع عشر شعبان من السنة. فكانت مدة استيلاء الفرنج على
الثغر سنتين، إلا ستة أيام. ومدة مقامهم بالديار المصرية ثلاث سنين، وأربعة أشهر، وستة
عشر يوماً. وتوجه الفرنج إلى عكا: بعضهم في البر، وبعضهم في البحر.
وعاد الملك المعظم، صاحب الجزيرة، والملك المعظم، صاحب دمشق، إلى ممالكهما.
وتأخر الملك الأشرف عند السلطان الملك الكامل، وتصافيا، وزال ما عند كلٍ منهما من
الآخر. واتفقا على الملك المعظم صاحب الشام.
ذكر رجوع السلطان إلى القاهرة وإخراج الأمراء إلى الشام
قال: ولما تسلم السلطان ثغر دمياط، وعاد الفرنج إلى بلادهم، رجع السلطان إلى القاهرة.
واستقر بقلعة الجبل.
ثم ركب في ذي القعدة، وجاء إلى منظرة الصاحب صفي الدين بن شكر، لزيارته. فزاره،
واستشاره في أمر الأمراء، الذين كانوا مع عماد الدين بن المشطوب، لما قصد إقامة الفائز.
فأشار بإخراجهم من البلاد. وكانوا في الجزيرة، مقابل ثغر دمياط، لعمارتها. فكتب
السلطان إليهم بالانصراف، إلى حيث اختاروا. فتوجهوا إلى الشام. ولم يتعرض لشيء من
موجودهم، وأقطع أخبازهم لمماليكه.
في هذه السنة - أعنى سنة ثماني عشرة وستمائة - كانت وفاة أمين الدين أبو الدر: ياقوت
بن عبد الله الموصلي، الكاتب المعروف بالمالكي - نسبة إلى السلطان ملكشاه السلجقي.
إليه انتهى حسن الخط وجوده الكتابة في زمانه، وما أدى أحدٌ طريقة ابن البواب في زمانه
مثله. وكتب كثيراً من الكتب. وانتشر خطه. وكان مغرى بنقل صحاح الجوهري، كتب
منها نسخاً كثيرة: كل نسخة في مجلدة واحدة. قال ابن خلكان: ورأيت منها نسخاً عدة،
وكل نسخة تباع بمائة دينار. وكتب عليه خلقٌ كثير، وانتفعوا به. وقصده الناس من البلاد
إلى الموصل. وبها مات، وقد أسن وتغير خطه - رحمه الله.
واستهلت سنة تسع عشرة وستمائة:

في هذه السنة - في أولها - وصل الملك الأشرف إلى القاهرة إلى أخيه الملك الكامل،
وأمر بعمارة تربة لوالدته بالقرافة. وعاد في شعبان من السنة. وفيها ظهر بالشام جرادٌ كثير، لم يعهد مثله. فأكل الزرع والشجر. فأظهر الملك المعظم أن
ببلاد العجم طائراً، يقال له: السمرمر يأكل الجراد. فأرسل الصدر البكري محتسب دمشق،
ورتب معه صوفية، وقال: تمضي إلى العجم. فهناك عينٌ يجتمع فيها السمرمر، فتأخذ من
مائها قوارير، وتعلقه على رءوس الرماح، فكلما رآه السمرمر يتبعك !
وكان قصد الملك المعظم في إرسال البكري أن يتوجه إلى السلطان: جلال الدين خوارزم
شاه ويتفق معه، لما بلغه إتفاق الملك الكامل والأشرف عليه. فتوجه البكري، واجتمع
بالسلطان جلال الدين، وقرر معه الأمور، وجعله سنداً للملك المعظم. وكان الجراد قد قل،
فلما عاد البكري كثر وولاه الملك المعظم مشيخة الشيوخ مضافة إلى الحسبة.
وفيها نقل الملك العادل في تابوته من قلعة دمشق إلى مدرسته، التي أنشأها عند دار
العقيقي. وأخرجت جنازته من القلعة، وعليها مرقعته، وأرباب الدولة حوله. ودخلوا من
باب البريد إلى الجامع، ووضع في صحن الجامع، قبالة حائط النسر. وصلى عليه الخطيب
الدولعي. ثم حملوا جنازته وخرجوا من باب البطاقين، خوفاً من ازدحام الناس في الطريق.
فلم يصل إلى تربته إلا بعد جهد، لضيق المسلك. وتردد القراء والفقهاء مدةً إلى التربة،
غدوة وعشية. ولم تكن كملت عمارتها.
ثم درس فيها قاضي القضاة جمال الدين المصري، قبل كمال عمارتها. وحضر السلطان
الملك المعظم، وتكلم في الدرس مع الجماعة.
وكان الإجماع بالإيوان الشمالي بالمدرسة. وجلس عن يمين السلطان إلى جانبه - الشيخ
جمال الدين الحصيري شيخ الحنفية، ويليه شيخ الشافعية: الشيخ فخر الدين بن عساكر، ثم
القاضي شمس الدين الشيرازي، ثم القاضي محيي الدين بن الزكي. وجلس عن يسار
السلطان، إلى جانبه، مدرس المدرسة قاضي القضاة، وإلى جانبه سيف الدين علي

الآمدي، ثم القاضي شمس الدين يحيى بن سني الدولة، ثم القاضي نجم الدين خليل قاضي
العسكر. ودارت حلقةٌ صغيرة، والناس وراءهم متصلون ملء الإيوان. وكان في تلك الحلقة
أعيان المدرسين والفقهاء. وقبالة السلطان الشيخ تقي الدين بن الصلاح وغيره. وكان
مجلساً جليلاً، لم يقع مثله إلا في سنة ثلاث وعشرين وستمائة.
ذكر توجه الملك المسعود بن الملك الكامل من اليمن إلى الحجاز، وما اعتمده
في هذه السنة، حج الملك المسعود بن السلطان الملك الكامل بالناس من اليمن، في عسكر
عظيم.
وجاء إلى الجبل وقد لبس هو وأصحابه السلاح، ومنع علم الخليفة. أن يصعد إلى الجبل.
وأصعد علم أبيه: الملك الكامل، وعلمه. وقال لأصحابه: إن طلع البغاددة بعلم الخليفة
فاكسروه، وانهبوهم. ووقفوا تحت الجبل من الظهر إلى غروب الشمس، يضربون الكوسات
ويتعرضون إلى الحاج العراقي، وينادون: يا ثارات ابن المقدم.
فأرسل إليه حسام الدين بن أبي فراس - أمير الحاج العراقي - أباه، وكان شيخاً كبيراً،
فعرفه ما يجب من طاعة الخليفة، وما يلزمه من ذلك من الشناعة. فيقال إنه أذن في صعود
العلم قبيل الغروب. وقيل لم يأذن.
وبدا من الملك المسعود أقسيس في هذه الواقعة جنونٌ عظيم، وأفعالٌ شنيعة. قال أبو
المظفر: حكى لي شيخنا جمال الدين الحصيري، قال: رأيت أقسيس قد صعد على قبة
زمزم، وهو يرمى حمام مكة بالبندق ! قال: ورأيت غلمانه في المسعى يضربون الناس
بالسيوف في أرجلهم، ويقولون: اسعوا قليلاً قليلاً، فإن السلطان نائمٌ سكران في دار
السلطنة التي بالمسعى. والدم يجري من ساقات الناس !.
وفيها، في العشرين من شعبان، ظهر كوكبٌ كبير في الشرق، له ذؤابةٌ طويلة غليظة. وكان
طلوعه وقت السحر، فبقي كذلك عشرة أيام. ثم ظهر أول الليل في المغرب مما يلي الشمال.
فبقي كذلك إلى آخر شهر رمضان.
وفي هذه السنة، توفي الملك المفضل قطب الدين أحمد بن الملك العادل سيف الدين أبي
بكر محمد بن أيوب، بالفيوم. ونقل إلى القاهرة فدفن بالقرافة الصغرى.

وإلى قطب الدين هذا، تنسب الدار القطبية التي بين القصرين بالقاهرة المعزية، التي هي
الآن البيمارستان المنصوري. وكان قد جمع أخواته بنات الملك العادل، بعد وفاة أبيه،
وسكنها، وهن تحت كنفه، فسميت الدار القطبية به - رحمه الله تعالى.
وفيها توفي الأمير عماد الدين: أبو العباس أحمد، بن الأمير الكبير سيف الدين أبي الحسن
علي، بن أحمد، بن أبي الهيجا، بن عبد الله، بن أبي الخليل بن مورتان، الهكاري،
المعروف بابن المشطوب. والمشطوب لقب والده، لقب به لشطبةٍ كانت بوجهه.
وكان أميراً كبيراً، وافر الحرمة عند الملوك، يعدونه بينهم كواحد منهم. وكان عالي الهمة
غزير الجود، واسع الكرم، شجاعاً أبي النفس. وكان من أمراء الدولة الصلاحية. فإن
والده لما توفي، كانت نابلس إقطاعاً له، أرصد منها السلطان الملك الناصر صلاح الدين
الثلث لمصالح بيت المقدس، وأقطع ولده عماد الدين هذا بقيتها. ولم يزل قائم الجاه والحرمة
نافذ الكلمة، إلى أن صدر منه على ثغر دمياط ما قدمنا ذكره. وكان من خبره واعتقاله
ما قدمناه. ثم كانت وفاته بحران. وبنت له ابنته قبةً على باب مدينة رأس عين، ونقلته من
حران إليها، ودفنته بها.
وأما والده - رحمه الله تعالى - فكان من أكابر الأمراء الصلاحية. وكان الملك الناصر
قد رتبه بعكا، هو وبهاء الدين قراقوش الأسدي. ولما خلص منها، وصل إلى السلطان
وهو بالقدس. قال ابن شداد: إنه دخل عليه بغتةً، وعنده الملك العادل، فنهض إليه
واعتنقه، وسر به سروراً عظيماً. وأخلى له المكان، وتحدث معه طويلاً.
ولم يكن في الدولة الناصرية من يضاهيه في الرتبة وعلو المنزلة. وكانوا يسمونه: الأمير
الكبير. وكان ذلك علماً عليه عندهم، لا يشاركه فيه غيره. وكان إقطاعه - نابلس
وغيرها - بعد خلاصه من الأسر - ثلاثمائة ألف دينار. وكانت وفاته - أعنى والده -
بالقدس، في يوم الخميس سادس عشر شوال، سنة ثمان وثمانين وخمسمائة، بعد خلاصه من

الأسر بعكا بمائة يوم. وفدن بداره، بعد أن صلى عليه في المسجد الأقصى - رحمه الله تعالى.

وفيها توفي جلال الدين أبو بكر، بن القاضي كمال الدين أبي السعادات: أحمد بن شكر.

واستهلت سنة عشرين وستمائة:

ملك الملك المسعود مكة

وفي هذه السنة، ملك الملك المسعود أقسيس بن السلطان الملك الكامل - صاحب اليمن - مكة - شرفها الله تعالى. وكان صاحبها يومئذ: الأمير حسن بن قتادة، وكان قد اساء السيرة. فسار إليه الملك المسعود وقاتله بالمسعى ببطن مكة، في رابع شهر ربيع الآخر. فتغير الخليفة الناصر لدين الله على الملك الكامل، بسبب ذلك.

عصيان الملك المظفر شهاب الدين غازي على أخيه الملك الأشرف وقتاله، وانتصار الملك الأشرف

وفي هذه السنة، عاد الملك الأشرف موسى من الديار المصرية، من عند أخيه الملك الكامل. فلما وصل إلى دمشق، تلقاه أخوه الملك المعظم عيسى، وعرض عيه النزول بالقلعة. فامتنع، ونزل بجوسق أبيه. وبدت الوحشة بين الإخوة: الكامل والمعظم والأشرف.

وركب الأشرف من الجوسق في وقت السحر، فسار ونزل ضمير. ولم يعلم المعظم برحيله. وسار يطوي البلاد إلى حران. وكان الأشرف قد استناب أخاه الملك المظفر شهاب الدين غازي، صاحب ميافارقين، بخلاط، لما توجه إلى مصر، وجعله ولي عهده، ومكنه في جميع بلاده. فسولت له نفسه العصيان، وحسنه له أخوه الملك المعظم، وغيره، ووعدوه المساعدة والإنجاد على أخيه الأشرف.

فسار الأشرف من حران إلى سنجار. وكتب إلى أخيه غازي أن يحضر إليه، فامتنع.

فكتب إليه ثانياً، يحذره عاقبة العصيان، ويلاطفه ويقول له: أنت ولي عهدي، والبلاد والخزائن بحكمك، فلا تخرب بيدك وتسمع كلام أعدائك. فأصر على العصيان.

فجمع الأشرف عساكر الشرق وحلب، وتجهز وسار إليه. وجمع غازي جمعاً، وخرج إليه. والتقوا، واقتتلوا، في سنة إحدى وعشرين وستمائة. وقاتل غازي قتالاً شديداً. وكان

أهل خلاط يحبون الملك الأشرف. فبينما غازي يقاتل من باب فتح أهل خلاط باباً آخر.
وأصعدوا صناجق الأشرف منه، ونادوا بشعاره. فهرب غازي إلى القلعة، وتحصن بها
يومين.
ثم نزل إلى أخيه الملك الأشرف، واعتذر. فقبل عذره، وأعاده إلى ميافارقين وديار بكر.
فتوجه إلى ميافارقين، مريضاً من جراحات أصابته. وأقام الملك الأشرف بخلاط ثلاثة ايام،
وسلمها لمملوكه أيبك والحاجب علي، ورجع إلى رأس عين.
وكان الملك المعظم قد خرج من دمشق، ونزل بالقطنة، لإنجاد أخيه غازي على أخيه
الأشرف. وبعث إليه عيسى الدباهي سراً. فوصل، وقد فات الأمر. ورجع المعظم إلى
دمشق، وذلك في سنة إحدى وعشرين وستمائة.
وفيها كانت وفاة مبارز الدين سنقر الحلبي - الصلاحي - والد الظهير.
وكان قبل ذلك مقيماً بحلب، ثم انتقل إلى ماردين فخاف الملك الأشرف عاقبة قربه، فبعث
إلى أخيه الملك المعظم يقول: ما دام المبارز في الشرق لا آمن على نفسي ! فبعث إليك
الملك المعظم ولده الظهير غازي، يلتمس منه وصوله إليه، ويعرفه رغبته فيه، ووعده أن
يقطعه نابلس، وما اختار من بلاد الشام.
فتوجه إليه ولده الظهير، وأبلغه رسالة الملك المعظم إليه. وعرفه رغبته فيه. فأشار عليه
صاحب ماردين أن يقيم، ولا يتوجه، وقال: هذه خديعة. ومكنه من مملكته وخزائنه.
فأبى إلا الانحياز إلى الملك المعظم. وتوجه إلى الشام، في سنة ثماني عشرة وستمائة.
فخرج المعظم إليه وتلقاه، ولم ينصفه. ونزل بدار شبل الدولة الحسامي بقاسيون. وأعرض
المعظم عنه، إلى أن تفرق عنه من كان حوله، وأنفق ما كان في حاصله، واحتاج إلى بيع
دوابه وقماشه. ولم يزل كذلك إلى أن مات غماً، في هذه السنة.
وكان قد وصل إلى الشام،
ودائرته بمائة ألف دينار، فمات وليس له ما يكفن فيه ! فقام بتجهيزه شبل الدولة كافور
الحسامي، وابتاع له تربةً بألف درهم، ودفنه بها.
وكانت للمبارز المواقف المشهودة، حتى يقال إنه لم يكن في زمانه أشجع ولا أكرم منه. ويقال

إنه كان مملوك شمس الدولة تورانشاه بن أيوب - رحمهما الله تعالى.
واستهلت سنة إحدى وعشرين وستمائة:
ذكر وصول الملك المسعود من اليمن
وفي هذه السنة، قدم الملك المسعود أقسيس - بن الملك الكامل - من اليمن إلى القاهرة،
من جهة الحجاز. وإنما جاء طمعاً في أخذ دمشق والشام.
وكان معه من الهدايا والتحف أشياء كثيرة: من جملة ذلك ثلاثة أفيلة، الكبير منها يدعى
بالملك، وعليه محفة بدرابزين، يجلس فيها على ظهره عشرة أنفس، وفياله راكبٌ على
رقبته، وبيده كلاب يضربه به، ويسوقه كيف أراد ! وركب السلطان الملك الكامل للقائه.
فلما دنت الفيلة منه، وضعت رؤوسها إلى الأرض، خدمة للسلطان ! وكان في جملة الهدية
مائتا خادم، وأحمال من العود والمسك والعنبر، وتحف اليمن.
وقيل إن قدمته هذه كانت في سنة ثلاث وعشرين. والله أعلم.
وفيها، أنشأ الملك الكامل دار الحديث الكاملية التي بالقاهرة المعزية بين القصرية وهي تقابل
باب القصر، المعروف بباب البحر.
وفي سنة إحدى وعشرين أيضاً - في سلخ شعبان - توفي الوزير الأعز فخر الدين أبو
الفوارس مقدام بن القاضي كمال الدين أبو السعادات أحمد بن شكر ومولده في سنة إحدى
وستين وخمسمائة.
وتوفي الصاحب صفي الدين أبو محمد عبد الله، بن المخلص أبي الحسن علي، بن الحسين
بن عبد الخالق، بن الحسين بن الحسن بن منصور - الشيبي القرشي المالكي، المعروف بابن
شكر. ولم يكن من بني شكر، إنما هو ابن عم كمال الدين أحمد بن شكر لأمه، فعرف به.
ومولده بالدميرة: بلدةٌ من الأعمال الغربية بالديار المصرية - في تاسع صفر، سنة ثمان
وأربعين وخمسمائة. وقد تقدم ذكر وزارته وعزله وإعادته، وغير ذلك من أحواله. وكانت
وفاته في يوم الجمعة ثامن شعبان، ودفن برباطه الذي أنشأه بالقاهرة، بالقرب من مدرسته.
وكان شديد البطش، عظيم الهيبة سريع البادرة، جسوراً مقداماً. وقاسى الناس منه
شدائد كبيرة. وانتزح جماعةٌ من الأكابر عن أوطانهم بسببه.
وكان كريماً، إلا أنه لم يسمع
بوزير من المتعممين كان أظلم منه.

ولما مات، استوزر السلطان الملك الكامل بعده ولده: الصاحب تاج الدين يوسف، نحو
شهرين. ثم قبض عليه واعتقله. وانتصب السلطان الملك الكامل للأمور بنفسه، وقرر
مصالح دولته، ونظر في وجوه الأموال ومصارفها، واستصفى أموال الصاحب صفي الدين،
وذخائره وأملاكه.
وفيها، في سلخ شوال، توفي القاضي الأسعد: أبو البركات عبد القوي، بن القاضي الجليس:
مكين الدولة أبي المعالي عبد العزيز بن الحسين، بن عبد الله بن الحباب - رحمه الله تعالى.
واستهلت سنة ثنتين وعشرين وستمائة:
ضرب الفلوس بمصر
في هذه السنة في ذي القعدة، ضربت الفلوس بالقاهرة ومصر، وصارت من جملة النقود.
وتقررت القيمة عن كل درهم ورق، من معاملة الديار المصرية، ستة عشر فلساً. ثم أبطلت
المعاملة بها، في سنة ثلاثين وستمائة. ثم عادت.
وفيها ضربت دراهم مستديرة، وأمر السلطان أن لا يتعامل بالدراهم المصرية العتق،
وحصل للناس ضررٌ عظيم بسبب ذلك، وصار كل ما يتحصل منها يسبك ويضرب من
الجديد، وبلغ ضرب العتيق ستين درهما بدينار.
وفيها، في يوم الأربعاء سابع عشر شعبان، استخدم السلطان الملك الكامل القاضي سديد
الدين: أبا عبد الله محمد بن سليم، صاحب ديوان الجيوش. ثم صرف بعد ذلك بمدة
يسيرة. وهو والد الصاحب بهاء الدين علي، المعروف بابن حنا: وزير الدولة الظاهرية
الركنية - وسيأتي ذكره - إن شاء الله تعالى.
وفيها صلب الملك المعظم عيسى رجلاً، يقال له: ابن الكعكي، ورفيقاً له.
وكان ابن الكعكي رأس حرب، وله جماعةٌ أتباع وكانوا ينزلون على الناس في البساتين،
ويقتلون وينهبون. والمعظم يوم ذاك بالكرك، وبلغه أن ابن الكعكي قال لأخيه الملك الصالح
إسماعيل: أنا آخذ لك دمشق، وكان إسماعيل ببصرى. فكتب الملك المعظم إلى متولي
دمشق أن يصلب ابن الكعكي، ورفيقه، منكسين. فصلبا، في العشر الآخر من شهر
رمضان. فأقاما أياماً لا يجسر أحد أن يطعمهما ولا يسقيهما، فماتا. وقدم الملك المعظم

دمشق بعد وفاتهما، فمرض مرضاً أشفى منه، ثم أبل. ولم يزل ينتقض عليه، حتى مات.
وكان رفيق ابن الكعكي خياطاً، شهد له أهل دمشق بالصلاح، والبراءة مما رمى به.
وفيها كانت وفاة الملك الأفضل، نور الدين علي بن السلطان الملك الناصر: صلاح الدين
يوسف بن أيوب - فجأة - في صفر، سنة ثنتين وعشرين وستمائة، بسميساط. ونقل إلى
حلب، فدفن بها بظاهرها بتربته.
وكان مولده بالقاهرة في سنة خمس وستين وخمسمائة، يوم عيد الفطر. وكان فاضلاً شاعراً
حسن الخط قليل الحظ، تقلبت به الأحوال. وقد تقدم ذكر ملكه دمشق ومصر، وغير
ذلك. ثم استقر آخرا بسميساط.
ومما يعزى إليه من الشعر أنه كتب إلى الخليفة الناصر - لما أخرج من دمشق، واتفق عليه
أخوه الملك العزيز عثمان وعمه الملك العادل أبو بكر:
مولاي، إن ابا بكر، وصاحبه عثمان، قد غضبا بالسيف حقّ علي
فانظر إلى حظ هذا الاسم، كيف لقي من الأواخر، ما لاقى من الأول
فأتاه الجواب من الإمام الناصر، وفي أول الكتاب:
وافى كتابك يا ابن يوسف معلناً بالود، يخبر أن أصلك طاهر
غضبوا علياً حقه إذ لم يكن بعد النبي له بيثرب ناصر
فابشر، فإن غدا عليه حسابهم واصبر، فناصرك الامام الناصر
وقيل أن الخليفة جرد لنصرته سبعين ألف فارس، فبلغه فوات الأمر فأعاد العسكر إلى
بغداد.
وفيها، في يوم الخميس سادس عشر ذي الحجة - وقيل سابع عشر ذي القعدة - توفي
الإمام فخر الدين أبو عبد الله: محمد بن إبراهيم بن أحمد ابن طاهر، بن أبي الفوارس
الخبري الفارسي الشيرازي الفيروزبادي، الشافعي الصوفي، من أجل مشايخ الطريقة، كبير
الشأن. وكانت وفاته بمعبده: معبد ذي النون بالقرافة الصغرى، على شفير الخندق من
غربيه. ودفن بتربته، وقبره من المزارات المباركة المشهورة.
وكان من علماء مشايخ وقته،
شديد الهيبة في قلوب الناس. وله تصانيف كثيرة في الطريق، وشعر.

قدم دمشق في شهر رجب، سنة ست وستين وخمسمائة، ودخل مصر في نصف شعبان
من السنة: ورحل إلى الإسكندرية، وسمع بها من الحافظ السلفي، وحدث بالكثير عنه.
وتوفي، وله من العمر ثلاثٌ وتسعون سنة. وجاور بمكة، وحدث بها. وقال: نحن من خبر
سروشين، وهو إقليم من عمل شيراز، مشربهم من جبل الدينار. ولهم خبر آخر يقال له:
خبر سمكان، من عمل شيراز أيضاً. وخبر ثالث، يقال له: خبر فيروز أباد - خبر بإسكان
الباء الموحدة.
واستهلت سنة ثلاث وعشرين وستمائة:
ذكر وصول رسول الخليفة إلى الملوك أولاد السلطان الملك العادل، وطلب الصلح بينهم
والاتفاق
في هذه السنة، قدم الشيخ جمال الدين أبو محمد يوسف بن الجوزي، رسولاً من الخليفة
الظاهر بأمر الله - إلى السلطان الملك الكامل وإخوته، وصحبته الخلع للملك الكامل،
والتقليد بالولاية. والخلع لولديه: الملك المسعود، والملك الصالح. وخلعة لوزيرة الصاحب
صفي الدين - وكان قد مات - فأمر السلطان الفخر سليمان، كاتب الإنشاء، أن يلبس
خلعة الصاحب، فلبسها.
ولبس السلطان وولداه الخلع، وعبروا من باب النصر، وخرجوا من باب زويلة بالقاهرة،
وطلعوا إلى القلعة. وكان يوماً مشهوداً.
ووصل أيضاً - صحبته - الخلع للملك المعظم شرف الدين عيسى، وللملك الأشرف:
مظفر الدين موسى.
وتضمنت رسالته إلى الملك المعظم رجوعه عن السلطان جلال الدين خوارزم شاه،
والصلح مع إخوته: الملك الكامل والملك الأشرف. وكان الملك المعظم قد راسل السلطان
جلال الدين - كما تقدم. ثم بعث إليه مملوكه الركين، فرحله من تفليس، وأنزله على
خلاط. والأشرف يومئذ بحران.
فقال الملك المعظم للشيخ جمال الدين: الرسول: إذا رجعت عن السلطان جلال الدين،
وقصدني، إخوتي ينجدونني ؟ قال: نعم. فقال: ليس لكم عادة تنجدون أحدا ! هذه

كتب الخليفة الناصر عندنا ونحن على دمياط، ونحن نكتب إليه نستصرخ به، ونقول
انجدونا. فيجيء الجواب: إنا قد كتبنا إلى ملوك الجزيرة، ولم يفعلوا. ثم ضرب له مثلاً
وحكى عليه حكاية. وقال: إن إخوتي قد اتفقوا علي، وقد أنزلت السلطان جلال الدين
خوارزم شاه على خلاط. فإن قصدني الأشرف منعه، وإن قصدني الكامل قدرت على
ملاقاته ودفعه.
وفي هذه السنة، عاد الملك المسعود إلى اليمن. وكان عوده في ذي القعدة. وقد تقدم ذكر
وصوله إلى خدمة أبيه بالهدايا، في سنة إحدى وعشرين وستمائة. وذكر ابن جلب
راغب: أن قدومه وعوده كان في هذه السنة. والله أعلم.
وفيها وصل الملك الأشرف إلى أخيه الملك المعظم بدمشق، وأعطاه رسالة، وتضرع إليه
واعترف له بسابق فضله وسالف إحسانه، وسأله أن يرسل إلى السلطان جلال الدين
خوارزم شاه يرحله عن خلاط. فبعث إليه فرحله عنها، وكان قد أقام عليها أربعين يوماً.
وسقط عليه وعلى أصحابه بها ثلجٌ عظيم.
وأقام الملك الأشرف عند أخيه الملك المعظم بدمشق. وكان المعظم يلبس خلعة خوارزم
شاه، ويركب فرسه، وإذا جلسوا على الشراب يحلف برأس خوارزم شاه، والأشرف يتألم
لذلك أشد الألم، ولا يستطيع أن يتكلم. ثم توجه الملك الأشرف إلى ضيافة أخيه الملك
الكامل بالديار المصرية.
وفيها، عقد السلطان الملك الكامل نكاح ابنته على ابن صاحب الروم.
وفيها توفي شبل الدولة: كافور بن عبد الله الحسامي، خادم ست الشام.
وكان عاقلاً أديباً فاضلاً، له حرمة وافرة في الدولة، ومنزلة عالية عند الملوك.
وبني مدرسة على نهر ثورا وتربة، ووقف عليها الأوقاف، ونقل إليها الكتب الكثيرة. وبني
الخانقاه للصوفية، إلى جانب مدرسته. وفتح طريقاً للناس من الجبل إلى دمشق، قريب عند
القفارات، على طريق عين الكرش. وبني المصنع الذي على رأس الزقاق، ومصنعاً آخر
عند المدرسة. وكان كثير الإحسان إلى الفقراء، وصدقاته دارةٌ إلى الآن. وسمع الحديث

ورواه. وكانت وفاته في شهر رجب الفرد، ودفن بتربته إلى جانب مدرسته - رحمه الله
تعالى.
وفيها في نصف شهر رجب، توفي قاضي القضاة جمال الدين: أبو محمد وأبو الفضل وأبو
الوليد وأبو الفرج: يونس بن بدران بن فيروز، بن صاعد بن علي بن محمد بن علي، القرشي
الشيبي، الحجازي الأصل، المليجي المولد المصري الدار، الدمشقي الوفاة، المعروف
بالمصري. مولده تقريباً سنة خمسين وخمسمائة. وبلده التي ولد بها مليج: من الأعمال
المنوفية، بالديار المصرية. تفقه بمصر، وسمع بالإسكندرية والقاهرة. وترسل لبغداد. وتولى
وكالة بيت المال بدمشق، ثم ولى القضاء بها - كما تقدم - في سنة ثمان عشرة وستمائة.
رحمه الله تعالى.
وفيها كانت وفاة الشريف حسن بن قتادة، بن إدريس الحسني: أمير مكة - شرفها الله
تعالى.
وكان قد ولى الإمارة بعد أبيه كما تقدم - مغالبةً - وكان سيئ السيرة، ظلوماً مقداماً.
وقتل أقباش أمير الحاج العراقي، في سنة سبع عشرة. وأحدث بمكة أموراً منكرة. ولما
وصل الملك المسعود إلى مكة، وأخذها منه، هرب. فتوجه إلى بغداد مريضاً، فمات
بالجانب الغربي على دكة. فلما علم به، غسل وكفن وصلى عليه وحمل إلى مشهد موسى،
ودفن هناك.
واستهلت سنة أربع وعشرين وستمائة:
في هذه السنة، عاد الملك الأشرف موسى إلى بلاده.
وفيها قدم رسول الأنبرور إلى الملك الكامل، بطلب الفتوح. وتوجه إلى الملك المعظم
بدمشق، فأغلظ له. وقال: قل لصاحبك ما أنا مثل الغير، ليس عندي إلا السيف !
وفيها كان ختان الملك العادل بن الملك الكامل، وعمل سماط عظيم بالميدان الأسود،
تحت قلعة الجبل.
هدم مدينة تنيس
وفي شوال، سنة أربع وعشرين وستمائة، أمر السلطان الملك الكامل بهدم مدينة تنيس.
وسير إليها النقابين والحجارين، فهدمت بكاملها في هذا الشهر، وأخليت ولم يبق بها

ساكن. وكانت من المدن الجليلة: كدمياط والإسكندرية.
ذكر الوحشة الواقعة بين السلطان الملك الكامل وبين أخيه المعظم
وفي هذه السنة، تأكدت الوحشة بين السلطان الملك الكامل وبين أخيه الملك المعظم:
صاحب دمشق. فكتب الملك الكامل إلى الأنبرور - ملك الألمان - أن يحضر إلى الشام
والساحل، ويعطيه البيت المقدس، وجميع الفتوحات الصلاحية بالساحل.
وكتب الملك المعظم إلى السلطان: جلال الدين خوارزم شاه، يسأله أن ينجده ويعينه على
أخيه الملك الكامل. ويكون من جملة المنتمين إليه، ويخطب له على منابر بلاده، ويضرب
باسمه الدينار والدرهم، فأجابه إلى ذلك. وسير إليه خلعةً فلبسها، وشق بها مدينة
دمشق. وغرم على رسل السلطان جلال الدين، في مدة تسعة أشهر، تسعمائة ألف درهم.
وقطع خطبة الملك الكامل.
فتجهز الملك الكامل وخرج لقصد دمشق. فكتب إليه الملك المعظم يقول: إنني قد نذرت
لله تعالى أن كل مرحلة رحلت منها لقصدي أتصدق بألف دينار، فإن جميع عسكرك معي
وكتبهم عندي، وأنا آخذك بعسكرك. هذا ما كتب له في الباطن. وكتب إليه في الظاهر
يقول: أنا مملوكك، وما خرجت عن محبتك وطاعتك، وأنا أول من حضر لخدمتك قبل ملوك
جميع الشام والشرق. فأظهر السلطان هذا الكتاب للأمراء، وعاد إلى القاهرة، وقبض على
جماعة من الأمراء الذين توهم فيهم أنهم كاتبوا الملك المعظم: من جملتهم الأمير فخر الدين
الطنبا الحبيشي، وفخر الدين الطنبا الفيومي أمير جاندار، وعشرة من الأمراء البحرية
العادلية، وأخذ جميع أموالهم.
وفيها، في يوم الأربعاء، سابع عشر شهر ربيع الأول، توفي القاضي ناصر الدولة أبو الحجاج
يوسف، بن الأمير فخر الدين شاهان شاه، بن الأمير عز الدين أبي الفضل غسان، بن الأمير
العظم جلال الدين أبي عبد الله: محمد بن جلب راغب الآمري، وقد تجاوز سبعين سنة.
وهو من أولاد الأمراء المصريين، لم يزالوا أمراء من الدولة الآمرية إلى أيام شاور الوزير،

فأبادهم وقتل بعضهم. ولما جاء أسد الدين شيركوه إلى الديار المصرية تزيا القاضي ناصر
الدولة بزي القضاة، وخدم في الخدم الديوانية، وعند الأمراء. وناصر الدولة هذا هو جد
تاج الدين محمد بن علي، المعروف بابن ميسر، صاحب التاريخ - رحمه الله تعالى.
وفيها في يوم الأحد تساع عشر شوال، كانت وفاة قاضي القضاة: عماد الدين عبد الرحمن،
بن عفيف الدين أبي محمد عبد العلي بن علي، السكري. تفقه على الفقيه شهاب الدين
الطوسي، وعلى الفقيه أبو المنصور ظافر بن الحسين. وسمع الحديث وحدث به. وولي
القضاء - كما تقدم. وولي الخطابة بالجامع الحاكمي بالقاهرة، والتدريس بمدرسة منازل العز
بمصر. ثم صرف عن القضاء والخطابة كما تقدم. وكان هيوباً. وصحب جماعةً من
المشايخ، وله معهم أحوال ومكاشفات. ومولده بمصر في سنة ثلاث وخمسين وخمسمائة.
رحمه الله تعالى.
وفاة الملك المعظم عيسى
وشيء من أخباره وسيرته، وقيام ولده الملك الناصر داود
وفي هذه السنة، في يوم الجمعة مستهل ذي الحجة، كانت وفاة الملك المعظم شرف الدين
عيسى، بن السلطان الملك العادل: سيف الدين أبي بكر محمد، بن أيوب بن شادي -
صاحب دمشق، وكانت مدة ملكه، بعد وفاة والده الملك العادل، تسع سنين وستة أشهر،
إلا ثمانية أيام. ومولده بالقاهرة في سنة ست وسبعين وخمسمائة.
وكان - رحمه الله - قد جهز العساكر إلى نابلس، خوفاً من اتفاق أخيه الملك الكامل مع
الأنبرور، فمرض في منتصف شوال واشتد به مرضه، وأصابه ذربٌ مفرط حتى رمى قطعةً
من كبده. وقيل أنه سم، ومات وغسله كريم الدين الخلاطي، والنجم يصب عليه الماء.
وكان قد أوصى أن لا يدفن بقلعة دمشق، وأن يخرج إلى الميدان فيصلي عليه ويحمل إلى
قاسيون، فيدفن على تربة والدته تحت الشجرة. فلم تنفذ وصيته، ودفن بالقلعة. ثم أخرج
منها بعد مدة، لما ملك الملك الأشرف، على حالةٍ غير مناسبة لمثله، وبين يديه نصف

شمعة ومعه العزيز خليل، ودفن مع والدته في القبة - وفيها أخوه الملك المغيث.
وكان الملك المعظم - رحمه الله تعالى - فقيهاً فاضلاً، نحوياً، قرأ القرآن وتفقه على
مذهب أبي حنيفة على الشيخ فخر الدين الرازي، وحفظ المسعودي، واعتنى بالجامع
الكبير. واشتغل بالأدب على تاج الدين الكندي، فأخذ عنه كتاب سيبويه، وشرحه
للسيرافي، والحجة في القراءات لأبي على الفارسي، والحماسة. وقرأ الإيضاح لأبي علي،
حفظاً. وسمع مسند أحمد بن حنبل بدمشق على ابن طبرزد، وأشياء من مسموعاته.
وسمع السيرة لابن هشام، وغير ذلك. وله ديوان شعر. وصنف في العروض، وكان مع ذلك
لا يقيم وزن الشعر في بعض الأوقات.
وكان شجاعاً مقداماً كثير الحيا متواضعاً، حسن الصوت ضحوكاً غيوراً، جواداً حسن
العشرة، محافظاً على الصحبة والمودة وكان إذا خرج إلى الغزاة لا ينام إلا على حبل طرح،
وزرديته مخدته. ولا يقطع الاشتغال بالقرآن والجامع الكبير وسيبويه. وكان يركب في كل يوم
غالباً، فإذا نزل مد السماط، فإذا أكل الناس انتصب لقضاء الحوائج إلى الظهر.
وكان في ايام الفتح مع الفرنج يرتب النيران على الجبال، من باب نابلس إلى عكا. وله
جماعةٌ على جبل الكرمل - المقابل لعكا - عليه المنورون، وبينهم وبين الجواسيس
علامات. وله في عكا أصحاب أخبار - وأكثرهم نساء الخيالة - وكانت طاقات بيوتهم
مقابلة الكرمل - فإذا عزم الفرنج على الإغارة فتحت المرأة طاقتها. فإن كان يخرج مائة
فارس، أوقدت شمعةً واحدة. وإن كانوا مائتين، أوقدت شمعتين. وتشير بالنار إلى الجهة
التي يقصد الفرنج الإغارة عليها. وكان الفرنج لا يقصدون جهة، إلا يجدون عسكر المعظم
قد سبقهم إليها. وكان يعطى النساء الجواسيس في كل فتح جملةً كثيرة.
قال الشيخ أبو المظفر، يوسف سبط ابن الجوزي: قلت للملك المعظم في بعض الأيام: هذا
إسراف في بيوت الأموال. فقال: أنا أستفتيك:
لما أن عزم الأنبرور على الخروج إلى الشام، أراد أن يخرج من عكا بغتة، ويسير إلى باب

دمشق، فبعث فارساً عظيماً، وقال له: أخف أمرنا ومجيئنا إلى البلاد لنغير بغتة. وكان
بعكا إمرأة مستحسنة، فكتبت إلي تخبرني الخبر. فبعثت إليها ثياباً ملونة، ومقانع وعنبرا،
فلبست ذلك، واجتمعت بذلك الفارس. فدهش، وقال: من أين لك هذا ؟ فقالت: من
عند صديق لي من المسلمين. فقال: من هو ؟ فقالت: الكريدي. فصلب على وجهه، وقام
فخرج من عندها. فما زالت تلك المرأة تتلطف به، حتى تسحب المودة بيني وبينه.
فصرت أهاديه، حتى كان يبعث إلي كتب الأنبرور التي يبعثها إليه، مختومة. وأرسل إليه،
فيكتب ما أقول. فأنا أداري عن المسلمين بهذا القدر اليسير، وأفدي به الخطير، فإن
الأنبرور لو جاء بغتةً، أسر من أهل الشام، وساق من مواشيهم وأموالهم ما لا يحصى
قيمته.
وكان الملك المعظم - رحمه الله - قد أمر الفقهاء أن يجردوا له مذهب أبي حنيفة، دون
صاحبيه. فجردوا له المذهب في عشر مجلدات، وسماه التذكرة. فكان لا يفارقه سفراً ولا
حضرا، ويديم مطالعته. ويكتب على كل مجلد: أنهاه - حفظاً - عيسى بن أبي بكر بن
أيوب. قال أبو المظفر: فقلت له: ربما تؤخذ عليك، لأن أكبر مدرس في الشام يحفظ
القدوري مع تفرغه، وأنت مشغول بتدبير الملك. فقال: ليس الاعتبار بالألفاظ، وإنما
الاعتبار بالمعاني. باسم الله، سلوني عن جميع مسائلها.
وكان رحمه الله تعالى - حسن التدبير للملك. وكان وزيره شرف الدين بن عنين، الشاعر
الهجاء المشهور. واستعفى من الوزارة، وكتب إلى الملك المعظم:

أقلني عثاري، واتّخذها وسيلةً تكون برحماها إلى الله راقيا
كفى حزني أن لست ترضى، ولا أرى فتىً راضياً عني، ولا الله راضيا
أخوض الأفاعي طول دهري دائباً وكم يتوفّى من يخوض الأفاعيا

فأعفاه. ولابن عنين أخبار نذكرها، إن شاء الله تعالى - عند وفاته.
ولما مات الملك المعظم، ملك بعده دمشق ولده: الملك الناصر صلاح الدين داود. فأساء

السيرة، واشتغل عن مصالح دولته بالشرب واللهو والطرب. فاقتضى ذلك ما نذكره، من
إخراجه من دمشق.
واستهلت سنة خمس وعشرين وستمائة:
وفي هذه السنة، وصل إلى دمشق الأمير عماد الدين بن الشيخ، من جهة السلطان الملك
الكامل، إلى ابن أخيه الملك الناصر، ومعه جلدك بالخلع والتغيير للملك الناصر. وأقام
عماد الدين بدمشق.
وفيها عزم الملك الكامل على المسير إلى الشام، وبرز بخيامه ظاهر القاهرة. ولما عزم على
ذلك سلطن ولده نجم الدين أيوب، ونعته بالملك الصالح، وركب بشعار السلطنة في سلخ
شعبان، ووالده الملك الكامل مبرز بظاهر القاهرة.
ورتب السلطان مع الملك الصالح - في النيابة - الأمير فخر الدين: يوسف بن الشيخ.
فأساء الملك الصالح السيرة بعد توجه والده، واشترى بستان الخشاب، وعمر فيه مناظر.
ففارقه الأمير فخر الدين بن الشيخ، في العشرين من شوال، ولحق بالسلطان الملك الكامل.
وفيها في سادس عشر شعبان، أفرج السلطان الملك الكامل عن تاج الدين: يوسف، بن
الصاحب صفي الدين بن شكر - وكان قد استوزره بعد وفاة والده، ثم اعتقله بعد شهرين
- كما تقدم. فأفرج عنه الآن، وأنعم عليه بمائة وخمسين ديناراً، واستخدمه موقعاً.
وفيها كان الوقعة على صور. وذلك أن الملك العزيز عثمان، وصارم الدين التبنيني، كمنا
للفرنج قريباً من صور. فلما تعالى النهار. خرج أهل صور: فارسهم وراجلهم بمواشيهم،
فخرجا عليهم فيمن معهما من الكمين، فقتلوا وأسروا سبعين فارساً، واستاقوا الأغنام
والجواميس. ولم يسلم ممن خرج من الفرنج، غير ثلاثة.
وفيها توفي شرف الدين أبو المعالي: شكر بن القاضي كمال الدين أبي السعادات، أحمد بن
شكر. وهو أخو الوزير الأعز فخر الدين مقدام. وكان قد ولي نظر ثغر الإسكندرية
وغيرها - رحمه الله تعالى.
وفيها توفي أبو الفتح: نصر بن صغير بن داغر، أبو خالد القيسراني الحلبي كان شيخاً أديباً،
له نظم حسن. رحمه الله تعالى.
واستهلت سنة ست وعشرين وستمائة:

تسليم بيت المقدس للفرنج

كان تسليم البيت المقدس وما جاوره للفرنج في العشر الآخر، من شهر ربيع الأول، من هذه السنة.

وسبب ذلك أن السلطان الملك الكامل، لما اتصلت به أفعال ابن أخيه الملك الناصر داود، خرج من القاهرة في الثالث والعشرين من شعبان سنة خمس وعشرين، واستناب ولده الملك الصالح كما تقدم، وبقي إلى العشر الأوسط من شهر رمضان، وسار إلى البيت المقدس. ثم عاد ونزل بتل العجول. فأرسل الملك الناصر داود الفخر بن بصاقة إلى عمه الملك الأشرف ليستنجده، ويعرفه قصد الملك الكامل بلاده. فجاء الأشرف إلى دمشق، ونزل ببستانه بالنبرب. ولما شاهد حركات ابن أخيه المذمومة، أطمعته نفسه في أخذ دمشق لنفسه.

ووصل الملك الكامل إلى نابلس، ورتب الولاة والنواب في البلاد الساحلية. فبلغه أن الأنبرور فرديك قد وصل إلى يافا في ميعاده. فعاد إلى تل العجول، وترددت الرسائل بينه وبين الأنبرور. وكان السفير بينهما الأمير فخر الدين يوسف بن الشيخ، والصلاح الإربلي.

فتقرر الصلح على: أن السلطان يعطى الأنبرور البيت المقدس، والقرايا التي على طريقه من يافا إلى القدس، ومدينة لد وتبنين وأعمالها. ووقعت الهدنة مدة عشر سنين. وتسلم الأنبرور البيت المقدس، وهذه الأماكن. فحضر الأئمة والمؤذنون، الذين كانوا بالصخرة والمسجد الأقصى، إلى باب الدهليز الكاملي، وأذنوا في غير وقت الأذان. فأمر الملك الكامل أن يؤخذ منهم ما معهم من الستور والقناديل والآلات، وأن يتوجهوا إلى حال سبيلهم.

قال: ولما وصلت الأخبار بتسليم بيت المقدس للفرنج، عملت الأعزية في جميع بلاد الإسلام، بسبب ذلك. وأشار الملك الناصر داود - صاحب دمشق - إلى الشيخ شمس الدين أبي المظفر: يوسف سبط ابن الجوزي، أن يذكر ما جرى على القدس في مجلس وعظه بجامع دمشق، ليكون ذلك زيادةً في الشناعة على عمه الملك الكامل.

فجلس ووعظ، وقال: انقطعت عن بيت المقدس وفود الزائرين ! يا وحشة للمجاورين !
كم كانت لهم في تلك الأماكن ركعة ! كم جرت لهم في تلك المساكن من دمعة. بالله لو
صارت عيونهم عيوناً لما وفت، ولو انقطعت قلوبهم أسفاً لما اشتفت. أحسن الله عزاء
المسلمين. يا محلة ملوك المسلمين. لهذه الحادثة تسكب العبرات، ولمثلها تنقطع القلوب من
الزفرات، لمثلها تعظم الحسرات.
ثم أنشد قوله:
أعيني لا ترقى من العبرات صلى بالبكا الآصال بالبكرات
وهي أبيات ذكر فيها البيت المقدس وفضله، وزواره، وما حل به من هذه الحادثة - تركنا
ذكرها اختصاراً.
وكان الملك الأشرف قد قال للملك الناصر داود: أنا أتوجه إلى عمك الملك الكامل،
وأصلح حالك معه. وتوجه إلى السلطان فوجده قد سلم البيت المقدس للفرنج، فشق ذلك
عليه ولامه. فقال الملك الكامل: ما أحوجني إلى هذا إلا المعظم - يشير إلى أن المعظم
أعطى الأنبرور من الأردن إلى البحر، وأعطاه الضياع التي من باب القدس إلى يافا،
وغيرها.
ولما اجتمع الملك الأشرف بالملك الكامل اتفقا على حصار دمشق. وقبض الملك الناصر
على فخر الدين بن بصاقة، وابن عمه المكرم، واعتقلهما في الجب، واستأصل أموالهما.
وكان قد اتهم الفخر أنه حسن للأشرف الاستيلاء على دمشق.
وفي هذه السنة في آخر صفر، فوض الملك الناصر داود القضاء بدمشق للقاضي: محيي
الدين أبي الفضائل، يحيى بن محمد بن علي بن محمد بن يحيى، القرشي: المعروف بابن
الزكي - شريكاً لقاضي القضاة: شمس الدين أحمد الخويى.
وعزل القاضي نجم الدين:
أحمد بن محمد بن خلف المقدسي - وكان ينوب عن القاضي شمس الدين الخويي في
القضاء. وصار الخويي وابن الزكي في القضاء جميعاً.
ذكر توجه السلطان إلى دمشق وحصارها، وأخذها من ابن أخيه: الملك الناصر
داود، واستقرارا الملك الناصر بالكرك وما معها
قال: لما سلم السلطان الملك الكامل البيت المقدس وما جاوره إلى الأنبرور، سار إلى

دمشق، وصحبه الملك الأشرف. ووصل إليه الملك العزيز عثمان، صاحب بانياس، ومعه
ولده الملك الظاهر، فأعطاه خمسين ألف دينار، وأعطى ولده عشرة آلاف، وأنعم عليهما
بقماش وخلع، وذلك بمنزلة سكاء.
ثم قدم عليه الأمير عز الدين أيدمر المعظمى - وكان الملك الناصر بن سيده قد أساء إليه
- فأنعم عليه السلطان بعشرين ألف دينار من الخزانة، وكتب له توقيعاً بعشرين أردب غلة،
على الأعمال القوصية، وأعطاه أملاك الصاحب صفي الدين بن شكر. وكان قد عزم على
العود إلى الديار المصرية، فلما جاءه الأمير عز الدين قال: قد جاءني مفتاح الشام، وسار إلى
أن وصل إلى دمشق وحاصرها. وكان نزوله عليها في شهر ربيع الآخر.
وشدد الحصار، وضيق على من بالبلد. فخرج إليه الملك الناصر داود سراً، ووقف على
باب الدهليز وأرسل مملوكه خلف أحد الحجاب، فلما جاء إليه الحاجب، قال له: قل لمولانا
السلطان: مملوكك داود ابن أخيك بالباب، فأعلم الحاجب السلطان فخرج إليه وتلقاه
واعتنقه، فقبل الناصر رجله وقال: يا عم قد جئتك بذنوبي وهؤلاء حرم أخيك. فبكي
الملك الكامل، وقال: والله يا ولدي، لو كان وصولك إلى قبل إستنجادك بعمك الأشرف،
وحضوره من بلاده - أبقيت دمشق عليك. ولكن إذ جاء الملك الأشرف إلى عندي، أنا
أعطيك الكرك والشوبك والساحل والغور. وإذا سيرت إليك فلا توافق حتى يكمل لك
ألف وخمسمائة فارس. عد إلى مكانك. فعاد الناصر، وهو طيب النفس.
وبلغ الملك الأشرف خروج الملك الناصر إلى السلطان، فركب وأسرع ليدركه ويقبض
عليه، فلم يدركه. فوبخ الأشرف الكامل على إطلاقه وتمكينه من دمشق. فقال له الملك
الكامل: إنه جاءني وبكى، وقال هؤلاء حرم أخيك. ثم قال الملك الكامل: هؤلاء أولادنا،
لا بد لهم من مكان يأوون إليه. فقال الأشرف: يكون لهم الشوبك. فقال الكامل: ما
يكفيهم إلا أن تكون الكرك معها. فسير إلى الناصر في إعطائه الكرك والشوبك، فلم يرض

بذلك. ولم يزل إلى أن يقرر له الكرك والشوبك والغورين والبلقاء، فأجاب إلى ذلك.
وخرج الناصر عن دمشق، وتسلمها الملك الكامل في غرة شعبان. فكان مدة المقام عليها
أربعة أشهر. ومضى إلىالكرك، وتسلم ما أقطع باسمه. وقيل إن السلطان لم يعطه
الشوبك، وسأله إياها، فقال له: يا ابن أخي أنا ليس لي حصنٌ يحمي رأسي، وافرض أن
هذا الحصن لك وقد وهبتني إياه. وإنه أعطاه الكرك وعجلون ونابلس وبلاد القدس. والله
أعلم.
ذكر تسليم دمشق للملك الأشرف
قال: لما تسلم الملك الكامل دمشق، سأله أخوه: الملك الأشرف موسى، أن يهبه دمشق،
ويعوضه عنها حران وأعمالها، والرها وسروج، ورأس عين والرقة، وجملين. فرضي كلٌ
منهما بذلك. وتسلم الملك الأشرف دمشق. ووجه الملك الكامل الأمير فخر الدين بن
الشيخ، فتسلم ذلك. وتسلم الملك الأشرف دمشق. وتوجه الملك الكامل إلى هذه
الجهات، فرتب أحوالها.
قال: ولما أقام الملك الأشرف بدمشق، دخل عليه شرف الدين بن عنين الشاعر، فلم ير
منه ما كان يعهده من الملك المعظم، من الإنبساط، وما كان يقع في مجلسه من سماع أهاجي
ابن عنين، فيما كان يفعله. فنهاه الملك الأشرف، وقال: ليس مجلسي كما عهدت. يكفيني
ما أنا فيه، حتى أضيف إليه ثلب المسلمين. فخرج من عنده، وقال:

وكنا نرجّى بعد عيسى محمداً لينقذنا من شدّة الضّر والبلوى
فأوقعنا في تيه موسى كما ترى حيارى، بلا منٍّ لديه ولا سلوى !

فبلغ الأشرف ذلك، فأمر بقطع لسانه. فدخل عل جماعة من الأكابر، وحلف أن الشعر
ليس له. ثم هرب إلى بلاده بزرع وحوران. فكف الملك الأشرف عن طلبه.
ذكر أخذ مدنية حماه وتسليمها للملك المظفر
قال: لما توجه السلطان الملك الكامل إلى بلاد الشرق، اجتاز بمدينة حماه، فأخذها من
صاحبها: قليج أرسلان بن الملك المنصور - وكان قد استولى عليها لما قدم الملك المظفر

إلى الملك الكامل بالمنصورة. فلما استقر الملك الكامل بمصر، أرسل إلى قليج أرسلان يقبح
عليه فعله، ويلتمس منه الخروج عن حماه، وإعادتها إلى أخيه. فلم يجب إلى ذلك. فأقطع
الملك الكامل المظفر إقطاعاً بمصر.
فلما اجتاز الملك الكامل الآن بحماه، خرج إليه قليج أرسلان فقبض عليه، وسلم حماه
للملك المظفر، وهو أخو قليج أرسلان، فتسلمها.
وفي هذه السنة في شهر رجب، وصل القاضي بهاء الدين بن شداد، قاضي حلب، في
خطبة ابنة السلطان الملك الكامل للملك العزيز بن الملك الظاهر، صاحب حلب. فزوجه
السلطان بابنته.
وفيها قبض السلطان الملك الكامل على ورثة ولد القاضي الفاضل، وسائر أملاكه.
وأخذت الكتب من داره وحملت إلى القلعة، فكانت عدتها أحد عشر ألف مجلداً.
ذكر وفاة الملك المسعود، صاحب اليمن
كانت وفاة الملك المسعود صلاح الدين أقسيس بن السلطان الملك الكامل، صاحب
الحجاز واليمن - في ثالث جمادى الأولى سنة ست وعشرين وستمائة. ومولده في شهر
ربيع الآخر سنة سبع وتسعين وخمسمائة.
وكان بلغه وفاة عمه الملك المعظم بدمشق، فطمع في الشام. وتجهز جهازاً لم يسبقه أحد
من الملوك إليه. وذلك أنه نادى في التجار ببلاد اليمن: من أراد السفر صحبة السلطان إلى
الديار المصرية والشام فليتجهز.
فتجهز معه سائر التجار الذين وصلوا من الهند، بالأموال والأقمشة والجواهر. فلما
تكاملت المراكب، قال اكتبوا لي ما معكم من البضائع، لأحميها من الزكاة. فكتبوها له.
فصار يكتب لكل تاجر برأس ماله على بعض بلاد اليمن، واستولى على البضائع.
فاجتمعوا واستغاثوا، فلم يسمع شكواهم. فيقال إن نقله كان في خمسمائة مركب، ومعه
ألف خادم، ومائة قنطار من العنبر والعود والمسك، ومائة ألف ثوب، ومائة صندوق فيها
الأموال والجواهر.
وركب إلى مكة، فمرض في طريقه. فما دخل مكة إلا وقد فلج ويبست يداه ورجلاه،

ورأى في نفسه العبر. فلما احتضر بعث إلى رجل مغربي بمكة وقال: والله ما أرضى
لنفسي، من جميع ما معي، كفناً أكفن فيه، فتصدق علي بكفن ! فبعث إليه نصف ثوب
بغدادي، ومائتي درهم، فكفنوه بهما. ودفن بالمعلى. ويقال إن الهواء ضرب المراكب
فرجعت إلى زبيد، فأخذها أصحابها.
وحكى أن الملك الكامل - والده - سر بوفاته. ولما جاء خزنداره إليه، لم يسأله كيف
مات، بل قال: كم معك من المال والتحف !
وكان الملك المسعود قد استناب باليمن أستاذ داره: عمر بن علي ابن رسول. فتزوج
زوجته: ابنة صاحب جوزا وملك البلاد. وكتب إلى السلطان الملك الكامل، وجهز إليه
الأموال والتحف. واستقر على حكم النيابة.
ثم استقل بعد ذلك بملك اليمن، وتلقب بالملك المنصور.
وأرسل رسولاً إلى الديوان العزيز
في سنة اثنتين وثلاثين وستمائة، فوصل في سابع عشر صفر منها، فتلقاه بعض الأمراء
ودخل، وقبل العتبة بالباب النوبي. وحضر في اليوم الثالث من وصوله إلى دار الوزير وأدى
رسالته، وأنهى إلى الديوان العزيز استيلاء مرسله على جميع بلاد اليمن، وأنه مخلصٌ في
طاعة الديوان. وهو يسأل قبول ما سيره من التحف والهدايا.
حكاه ابن الساعي في
تاريخه.
واستمر الملك بالديار اليمانية فيه وفي أولاده من بعده، إلى وقتنا هذا.
وفيها في جمادى الأولى، توفي ناصر الدين منكورس بن بدر الدين خمارتكين عتيق مجاهد
الدين بزان صاحب صرخد. وكان ناصر الدين المذكور صاحب صهيون. وتولى مملكة
صهيون بعده ولده مظفر الدين عثمان.
واستهلت سنة سبع وعشرين وستمائة:
في هذه السنة، في ثاني عشر شهر رجب منها، قدم السلطان الملك الكامل إلى الديار
المصرية.
وكان سبب عوده أنه بلغه أن ابنه الملك الصالح - نجم الدين أيوب - قد ترتب على الملك
بالديار المصرية، وأنه اشترى ألف مملوك، فعاد. وأخرج ابنه الملك الصالح إلى بلاد الشرق،
ولم يعطه شيئاً.

ولما وصل الملك الكامل إلى قلعة الجبل، عمل له صلاح الدين الإربلي دعوةً في داره،
فحضرها السلطان. فأنشده الصلاح:

لو تعلم دارنا بمن قد جمعت مالت طرباً وصفّقت واستمعت
والخمرة لو تعلم من يشربها كانت شكرت لعاصريها، ودعت

وفيها قصر النيل فلم يوف، وانتهى إلى ثلاثة عشر ذراعاً وثلاثة وعشرين أصبعاً وقيل أنه
انتهى إلى أربعة عشر ذراعاً، وأصابع، وقيل بل بلغ ستة عشر ذراعاً وعشرة أصابع.
فارتفع سعر الغلة. فسعر الملك الكامل القمح بعشرين درهماً ورقا الإردب. وأمر
مستخدمي الأهراء السلطانية ببيع القمح بخمسة وعشرين درهما ورقا. ومنع الناس من
شراء الكثير منه، إلا المؤونة. واستمر السعر كذلك بقية السنة.
ثم أطلق السلطان سعر الغلة، في ثالث المحرم سنة ثمان وعشرين، وأمر أن يباع بالسعر
الواقع. فأبيع القمح في هذا الوقت بخمسين درهما ورقا الإردب، والخبز أربعة أرطال بدرهم
ورق. فنال الناس من ذلك شدةٌ عظيمة.
هكذا نقل مؤرخو ذلك العصر. فكيف لو شاهدوا ما شاهدناه في سنة خمس وتسعين
وستمائة، على ما نذكره - إن شاء الله تعالى.

ذكر استيلاء الملك الأشرف على بعلبك

وفي هذه السنة، بعث الملك الأشرف - صاحب دمشق - أخاه الملك الصالح إسماعيل
إلى بعلبك. فحصرها ونصب عليها المجانيق، ورماها بأحجارها.
ثم توجه إليها الملك الأشرف. ودخل الصاحب صفي الدين - إبراهيم ابن مرزوق - بين
الملك الأشرف والملك الأمجد صاحب بعلبك، وحصل الاتفاق. فتسلمها الملك الأشرف،
وانتقل الأمجد منها إلى دمشق. وأقام بداره بها، وهي الدار المعروفة بدار السعادة، التي
ينزلها نواب السلطنة في وقتنا هذا. ولم تطل مدة حياته، فإنه قتل في سنة ثمانٍ وعشرين
وستمائة.
وفيها استولى السلطان: جلال الدين خوارزم شاه على مدينة خلاط، بعد أن حاصرها
مدة عشرة أشهر. وقد تقدم ذكر ذلك في أخبار جلال الدين.
ولما ملكها، أخذ منها مجير الدين يعقوب وتقي الدين عباس: ابني الملك العادل، وأخذ الكرجية: زوجة الملك الأشرف،
ودخل بها من ليلته، وقتل عز الدين أيبك الأشرفي.

وبلغ الملك الأشرف ذلك، وهو بدمشق، والملك الكامل بالرقة فتوجه من دمشق إلى
الرقة. وأتته رسل السلطان علاء الدين كيقباذ - صاحب الروم - في الإجتماع على حرب
جلال الدين. فاستشار الملك الأشرف أخاه الملك الكامل في ذلك، فأشار به. وقطع الملك
الكامل الفرات في سبعة آلاف فارس، وتوجه إلى الديار المصرية - للسبب الذي ذكرناه.
وسار الملك الأشرف إلى حران في سبعمائة فارس، فأقام بها. وكتب إلى حلب والموصل
والجزيرة فجاءته العساكر، وتوجه إلى صاحب الروم واجتمعوا. والتقوا بالسلطان جلال
الدين خوارزم شاه، فكسروه.
وقد ذكرنا خبر استيلاء جلال الدين على خلاط، في أخباره. وذكرنا خبر هذه الكسرة
في أخبار السلطان علاء الدين كيقباذ صاحب الروم، في أخبار الدولة السلجقية. فلنذكر
الآن ما يتعلق بالملك الأشرف.
ولما انهزم جلال الدين، قال الملك الأشرف للسلطان علاء الدين كيقباذ: لا بد لي من
خلاط. فأعطاه علاء الدين. وأنعم على أصحابه: من الأموال والخلع والثياب والتحف
والخيول، ما قيمته ألف ألف دينار.
وتوجه كيقباذ إلى بلاده، وجرد في خدمة الملك الأشرف جماعة، فتوجه بهم إلى خلاط.
فوجد جلال الدين قد أخذ مجير الدين وتقي الدين والكرجية معه. فساق الأشرف خلفه.
ثم تراسلا، واصطلحا. فأطلق جلال الدين مجير الدين وتقي الدين، وبعث بهما إلى الخليفة
ببغداد. فأنعم الخليفة على كل منهما بخمسة آلاف دينار. وعاد الملك الأشرف إلى
دمشق، في سنة ثمان وعشرين وستمائة. فأقام بها شهراً، وتوجه إلى أخيه الملك الكامل
بالديار المصرية.
وفي هذه السنة، استخدم الملك المظفر: شهاب الدين غازي - صاحب ميافارقين - العز
بن الجاموس على ديوانه. وأمره وأعطاه الكوسات والأعلام، وقدمه على جماعة ومكنه.
ودعى بالصاحب الأمير عز الدين. فظلم الناس وعسفهم، وأخذ أموالهم. فلم تمهله
المقادير، ومات في بقية سنة سبع وعشرين بميافارقين.
واستولى الملك المظفر على تركته،

وظهر له سوء فعله، فصار يصرح بلعنه. وجاء عمه من دمشق يطلب ميراثه، فسبه
المظفر، ثم أعطاه ألف درهم وعاد إلى دمشق.
وفيها، في ثامن جمادى الآخرة، توفي بمصر الفقيه الإمام:
شرف الدين أبو عبد الله محمد،
بن الشيخ أبي حفص عمر، بن الشيخ أبي عبد الله محمد بن عمرو بن جعفر، الأزدي
الغساني، المالكي - المعروف بابن اللهيب. ومولده في سنة إحدى وسبعين وخمسمائة.
وتولى التدريس بالمدرسة الصاحبية بالقاهرة، إلى حين وفاته. وهو من بيت الخير والصلاح
والفقه.
واستهلت سنة ثمان وعشرين وستمائة:
في يوم الاثنين، عاشر جمادى الآخرة، قدم الملك الأشرف إلى القاهرة، لخدمة السلطان
الملك الكامل - ومعه صاحب الجزيرة.
وفيها، في منتصف شعبان، إبتدأ السلطان الملك الكامل بحفر البحر، من دار الوكالة إلى
صناعة التمر الفاضلية. واستعمل فيه الملوك والأمراء، وعمل بنفسه.
وكان هذا البحر في أوان احتراق النيل يكون طريقاً سالكاً إلى المقياس. وتمر المراكب ما
بين الروضة والجيزة. ثم صار على العكس من ذلك في سنة ثلاث عشرة وسبعمائة، فصار
في احتراق النيل ليس بين الروضة وبين بر الجيزة غير ماء قليل يخاض، فلا يغطى أكثر من
خلخال. ثم أخذ في الزيادة بعد ذلك. إلى أن صار، في سنة عشرين وسبعمائة وما بعدها
تسافر فيه المراكب صيفاً وشتاءً. والبحران الآن على ذلك. ولكن البحر فيما بين الروضة
ومصر أكثر، وهو البحر الذي تسافر فيه السفن في الاحتراق.
نعود إلى سياقة أخبار سنة ثمان وعشرين وستمائة. وفيها بني أسد الدين شيركوه -
صاحب حمص والرحبة - قلعة بالقرب من سلمية وسماها شميمس، وهي على تلٍ عال.
وفيها كان مقتل الملك الأمجد: بهرام شاه، بن فرخشاه، بن شاهنشاه ابن أيوب - صاحب
بعلبك. كان وكانت بعلبك بيده، منذ أعطاه إياها السلطان الملك الناصر صلاح الدين
عند وفاة أبيه، في سنة ثمان وسبعين وخمسمائة. فلم تزل بيده، إلى أن انتزعها الملك

الأشرف منه - كما تقدم - في السنة التي قبلها. وأعانه على ذلك صاحب حمص: أسد
الدين شيركوه.
وكان سبب مقتله أن بعض مماليكه سرق له حياصة وداواة - قيمة ذلك مائتا دينار -
وخبأهما عند ملوك آخر، فلما ظهر له ذلك حبس السارق في خزانة داره - والخزانة خلف
المكان الذي يجلس فيه الملك الأمجد - وتوعد ذلك المملوك - بقطع اليد. فلما كانت ليلة
الأربعاء، ثاني عشر شوال، جلس على عادته أمام الخزانة - وعنده عباس بن أخي
الشريف البهاء وهما يلعبان بالنرد، وعنده فهيد المنجم وبيده الاسطرلاب ليأخذ له طالع
الوقت.
فقال له فهيد: يا مولانا انظر إلي، فهذه ساعةٌ سعيدة، لو أردت أخذ دمشق لأخذتها.
فقال له: لا تكلمني، فقد تعين لي الغلب ! وكان مع المملوك الذي في الخزانة سكين، فعالج
رزة الخزانة برفقٍ فقلعها، وفتح الباب. فهجم على الملك الأمجد وأخذ سيفه فجذبه وضربه
به. فصاح، فحلت الضربة كتفه، ونزل السيف إلى ثديه. ثم ضربه أخرى، فقطع يده
وقطعته في خاصرته. وهرب يصعد إلى السطح، فتبعوه. فألقى نفسه إلى الدار. فماتا
جميعاً. وجهز الملك الأمجد ودفن في تربة أبيه، التي على الميدان على الشرف الشمالي.
وكان فاضلاً شاعراً، وله ديوان شعر بأيدي الناس - رحمه الله تعالى. قال أبو المظفر:
ورآه بعض أصحابه في المنام بعد موته، فقال له: ما فعل الله بك ؟ قال:

كنت من ذنبي على وجلٍ زال عني ذلك الوجل
أمنت نفسي بوائقها عشت لما متّ يا رجل

قال أبو المظفر: وكان الأمجد قد قتل ابناً له جميلاً، كان واطأ عليه الملك العزيز عثمان،
وكتب إليه يقول: قد يسرت باب السر فسر إلينا وقت السحر. وكان الملك العزيز بالصبيبة،
فسار منها في أول الليل - والمسافة بعيدة - فوصل إلى بعلبك وقد طلعت الشمس ففاته
الغرض. واطلع الأمجد على ما فعله ابنه فقتله. وقيل بني عليه بيتاً، فمات.
وفيها توفي المهذب الدخوار، الطبيب: رئيس الأطباء بدمشق. وكان طبيباً حاذقاً، وما

كان يرى أن في الدنيا مثله. وكان يقرأ عليه الطب. وكانت له دار بدمشق وبستان، فوقف
الدار مدرسةً يقرأ فيها الطب، ووقف بستانه عليها. والمدرسة باقيةٌ بدمشق، تعرف
بالدخوارية، رأيتها في سنة ثلاث وسبعمائة.
وفيها، في ثامن عشر شعبان، توفي الأمير شجاع الدين أبو المنصور: جلدك بن عبد الله
المظفري التقوى، بالقاهرة. سمع من الحافظ السلفي. وكان مكرماً لأهل العلم والفضلاء،
مساعداً لهم بماله وجاهه. وحضر مواقف كثيرة في قتال العدو بالساحل. وتولى ثغر
دمياط والإسكندرية، وقوص، وشد الدواوين، وغير ذلك. وكان يكتب في كل بلد يتولاه
ختمة. فحكى عنه أنه قال: كتبت بخطى أربعاً وعشرين ختمة. وكان قد قارب ثمانين
سنة - وقيل مات في عشر التسعين. والله أعلم.
واستهلت سنة تسع وعشرين وستمائة:
في هذه السنة توجه السلطان الملك الكامل إلى بلاد الشرق، بسبب فتح آمد. وسنذكر
ذلك.
وفيها - في جمادى - عزل قاضي القضاة: شمس الدين بن سنى الدولة الخويى، وقاضي
القضاة شمس الدين بن سنى الدولة - جميعاً - عن قضاء القضاة بدمشق، وفوض ذلك
إلى قاضي القضاة: عماد الدين عبد الكريم، بن قاضي القضاة جمال الدين الحرستاني.
وفيها توفي الأمير فخر الدين عثمان بن قزل الكاملي بحران، في الثامن والعشرين من ذي
الحجة، ودفن بظاهرها. ومولده بحلب في سنة إحدى وستين وخمسمائة.
وكان أحد الأمراء الأكابر في الدولة الكاملية. وكان راغباً في فعل الخير، مبسوط اليد
بالصدقة والإسعاف، يتفقد أرباب البيوت وغيرهم. وأنشأ المدرسة المعروفة بالقاهرة
المعزية، والمسجد المقابل لها، وكتاب السبيل والرباط بالقرافة بسفح المقطم. وأوصى
بوصيةٍ ذكر فيها كثيراً من أنواع البر - رحمه الله تعالى.
واستهلت سنة ثلاثين وستمائة:
ذكر استيلاء السلطان الملك الكامل على آمد وحصن كيفا
كان الاستيلاء على ذلك في سنة ثلاثين وستمائة. وكان السلطان قد توجه في سنة تسع

وعشرين وستمائة، واستقل ركابه من مقر ملكه، بقلعة الجبل المحروسة بظاهر القاهرة
المعزية، في ثامن جمادى الآخرة، واستصحب عساكر الديار المصرية. ووصل إلى دمشق
واستصحب أخاه الملك الأشرف، وولده الملك الصالح نجم الدين أيوب.
وكان سبب قصده هذه الجهة أن أخاه الملك الأشرف، بما حضر إلى الديار المصرية،
عرف السلطان أن الملك المسعود مودود بن الملك الصالح بن أرتق، صاحب آمد وبلادها
وحصن كيفا - قد اشتغل عن مملكته باللهو والشرب والطرب، وأنها خاليةٌ من العساكر.
فتجهز إليها.
ولما بلغ الملك المسعود أن السلطان قصد بلاده، بادر بإرسال وزيره شرف العلا إلى
السلطان يستعطفه، ويسأل مراحمه في إبقاء ما بيده والكف عن طلبه. فوصل إلى
السلطان، وكان إلباً على صاحبه، وعرف السلطان إقباله على اللهو والطرب، وأن مملكته
خالية من العساكر، فأطمعه في أخذ البلاد.
فسار إليها، ونازلها في يوم الأربعاء الخامس والعشرين من ذي الحجة ونصب عليها
المجانيق. وأنذر صاحبها الملك المسعود ووعده بالإقطاعات الكبيرة، فلم يصغ إلى ذلك.
ثم شاهد الغلبة، فخرج إلى السلطان وفي عنقه منديل. فوكل به، وتسلم آمد في مستهل
المحرم، سنة ثلاثين وستمائة. واستولى على أمواله وذخائره، وطلب منه تسليم القلاع
فسلمها بجملتها.
ودخل الملك الكامل إلى آمد. فترجل في خدمته جميع الملوك الأيوبية، وسائر ملوك الشرق
- إلا صاحب الروم السلطان: علاء الدين كيقباذ السلجقي، وصاحب الجزيرة الملك
المعظم: محمد بن سنجر شاه، فإنهما أرادا أن يترجلا فلم يمكنهما الملك الكامل من ذلك،
ودخلا راكبين لركوب السلطان، ونزلوا جميعاً في القلعة.
وبقي حصن كيفا بيد نائبه، لم يسلمه. فكتب الملك المسعود إلى نائبه أن يسلمه، فامتنع
من ذلك. فبعث السلطان الملك الكامل أخاه الملك الأشرف إلى الحصن، ومعه الملك
المسعود، فتوجه به وعاقبه تحت الحصن، وكان يبغضه، فأصر النائب على الامتناع من

تسليمه. وكان بينهما إشارة، فلما آلمته العقوبة جاء إلى تحت الحصن، وقبض على شعر
نفسه وقطعه بمقص، فعند ذلك سلم النائب الحصن - وكانت هذه إشارةً بينهما. وكان
تسليم الحصن في صفر من السنة.
وكان الملك المسعود، لما حاصر السلطان آمد، قد كتب إلى نائبه بحصن كيفا يقول له: من
مر عليك من أهل الجزيرة فاعتقله، لأن صاحب الجزيرة كان قد توجه إلى خدمة السلطان
الملك الكامل. وكان المتولي يرصد القفول إذا مرت بالحصن، فمن كان منهم من أهل الجزيرة
قبض عليه واعتقله. واجتمع في حبسه خلقٌ كثير منهم. فلما فتح الحصن أفرج السلطان
عنهم.
وأنعم الملك الكامل على ولده، الملك الصالح نجم الدين أيوب، بحصن كيفا وأعماله -
وكان، منذ أخرجه من الديار المصرية، بغير ولاية. وجعل شهاب الدين غازي - بن شمس
الملوك - نائب السلطنة بآمد. ومعين الدين بن الشيخ الوزير، والطواشي شمس الدين
صواب العادلي متولي تدبير تلك الممالك. قال أبو المظفر: قال لي الملك الأشرف: وجدنا في
قصر الملك المسعود خمسمائة حرة من بنات الناس للفراش.
وعاد السلطان إلى الديار المصرية في سنة ثلاثين وستمائة، واستصحب أكابر أهل آمد
وأعيانها، صحبته، إلى الديار المصرية - وكان منهم بدر الدين، وموفق الدين، وابن أخيهما
شمس الدين، وجماعة كبيرة. فأما هؤلاء الثلاثة فإنهم باشروا وترقوا في المناصب بالديار
المصرية، والشام. ومن عداهم من أهل آمد نالتهم فاقةٌ شديدة وضرورة، حتى استعطوا
بالأوراق. وأما الملك المسعود فإن السلطان أنعم عليه بالإقطاعات بالديار المصرية.
ذكر توجه رسول السلطان الملك الكامل إلى بغداد، وعوده هو ورسول الخليفة بالتقليد
في هذه السنة توجه القاضي الأشرف: بهاء الدين أبو العباس، أحمد ابن القاضي محيي
الدين عبد الرحيم البيساني - رسولاً من جهة السلطان الملك الكامل إلى الديوان العزيز.
فعاد في صحبة رسول الخليفة، وهو الشيخ جمال الدين أبو محمد يوسف بن الجوزي،

ومعهما جماعةٌ من الأجناد. وأعطي ابن الجوزي محفة تمييزاً له.
ونفذ معهما تقليدٌ، من إنشاء الوزير أبي الأزهر: أحمد بن الناقد، بخط العدل ناصر بن
رشيد الحربوي. وفي أعلاه بخط الوزير ما مثاله: للآراء المقدسة - زادها الله تعالى جلالاً
وتعظيماً - مزيد في شرفها في تتويجه. والعلامة المستنصرية عليه، تحت البسملة: الله
القاهر فوق عباده.
ونسخة التقليد
بسم الله الرحمن الرحيم. الحمد لله الذي أطمأنت القلوب بذكره، ووجب على الخلائق
جزيل حمده وشكره، ووسعت كل شيء رحمته، وظهرت في كل أمر حكمته. ودل على
وحدانيته بعجائب ما أحكمه صنعاً وتدبيراً، وخلق كل شيءٍ فقدره تقديراً - ممد
الشاكرين بنعمائه التي لا تحصى عدداً. وعالم الغيب الذي لا يظهر على غيبه أحدا. لا
معقب لحكمه في الإبرام والنقض، ولا يئوده حفظ السموات والأرض. تعالى أن يحيط به
الضمير، وجل أن يبلغ وصفه البيان والتفسير، ليس كمثله شيءٌ وهو السميع البصير.
وأحمد الله الذي أرسل محمداً - صلى الله عليه وسلم - بالحق، بشيراً ونذيرا. وداعياً
إلى الله بإذنه، وسراجاً منيراً. وابتعثه هادياً للخلق، وأوضح به مناهج الرشد وسبل
الحق. واصطفاه من أشرف الأنساب وأعز القبائل. واجتباه لإيضاح البراهين والدلائل،
وجعله لديه أعظم الشفعاء وأقرب الوسائل. فقذف - صلى الله عليه - بالحق على
الباطل. وحمل الناس بشريعته الهادية على المحجة البيضاء والسنن العادل، حتى استقام
إعوجاج كل زائغ، ورجع إلى الحق كل حائدٍ عنه ومائل. وسجد لله كل شيءٍ يتفيأ ظلاله
عن اليمين والشمائل. صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الكرام الأفاضل، صلاةً مستمرةً
بالغدوات والأصائل - خصوصاً على عمه وصنو أبيه: العباس بن عبد المطلب، الذي
اشتهرت مناقبه في المجامع والمحافل. ودرت ببركة الاستسقاء به أخلاف السحب الهواطل،
وفاز من تنصيص الرسول - صلى الله عليه وسلم - على عقبه، في الخلافة المعظمة، بما لم

يفز به أحداٌ من الأوائل.
والحمد لله الذي حاز شريف مواريث النبوة والإمامة، ووفر جزيل الأقسام من الفضل
والكرامة، لعبده وخليفته، ووارث نبيه ومحيي شريعته: الذي أحله الله عز وجل من معارج
الشرف والجلال في أرفع ذروة، وأعلقه من حسن التوفيق الإلهي بأمتن عصمة وأوثق عروة،
واستخرجه من أشرف نجار وعنصر، واختصه بأزكى منحة وأعظم مفخر. ونصبه
للمؤمنين علما، واختاره للمسلمين إماماً وحكماً، وناط به أمر دينه الحنيف، وجعله قائماً
بالعدل والإنصاف بين القوى والضعيف: إمام المسلمين، وخليفة رب العالمين: أبي جعفر
المنصور، المستنصر بالله، أمير المؤمنين، ابن الإمام السعيد التقي أبي نصر محمد: الظاهر
بأمر الله، ابن الإمام السعيد الوفي أبي العباس أحمد: الناصر لدين الله، ابن الإمام السعيد
الزكي: أبي محمد الحسن المستضيء بأمر الله، أمير المؤمنين - صلوات الله عليهم أجمعين،
وعلى آبائه الطاهرين، الأئمة المهديين، الذين قضوا بالحق وبه كانوا يعدلون. ولقوا الله تعالى
وهو عنهم راضٍ، وهم عنه راضون.
وبعد: فبحسب ما أفاضه الله تعالى على أمير المؤمنين - صلوات الله عليه وسلامه -
من خلافته في الأرض، وفوضه إلى نظره المقدس في الأمور من الإبرام والنقض، واستخلصه
له من حياطة بلاده وعباده، ووكله إلى شريف نظره ومقدس اجتهاده - لا يزال صلوات الله
عليه - يكلأ العباد بعين الرعاية، ويسلك بهم في المصالح العامة والخاصة مذاهب الرشد
وسبل الهداية، وينشر عليهم جناحى عدله وإحسانه، وينعم لهم النظر في ارتياد الأمناء
الصلحاء، من خلصاء أكفائه وأعوانه - متخيراً للاسترعاء من استحمد إليه بمشكور
المساعي وتعرف إليه في سياسة الرعايا بجميل الأسباب والدواعى، وسلك في مفروض
الطاعة الواجبة على الخلائق قصد السبيل. وعلم منه حسن الاضطلاع في مصالح
المسلمين بالعبء الثقيل. والله عز وجل يؤيد آراء أمير المؤمنين - صلوات الله عليه -
بالتأييد والتسديد. ويمده أبداً من أقسام التوفيق الإلهي بالموفور والمزيد، ويقرن عزائمه

الشريفة باليمن والنجاح ويسنى له فيما يأتى ويذر أسباب الخير والصلاح. وما توفيق أمير
المؤمنين إلا بالله - عليه يتوكل وإليه ينيب.
ولما وفق الله تعالى نصير الدين: محمد، بن سيف الدين أبي بكر، بن أيوب - من الطاعة
المشهورة، والخدم المشكورة، والخطوة في جهاد أعداء الدين بالمساعي الصالحة، والفوز من
المراضي الشريفة الإمامية - أجلها الله تعالى - بالمغانم الجزيلة والصفقة الرابحة - لما وصل
فيه سالف شريف الاختصاص بآنفه. وشفع تالده في تحصيل مأثور الاستخلاص بطارفه.
واستوجب بسلوكه في الطاعة المفروضة مزيد الإكرام والتفضيل، وضرع في الإنعام عليه
بمنشور شريفٍ إمامي يسلك في اتباعه هداه. والعمل بمراشده سواء الصراط وقصد
السبيل - اقتضت الآراء الشريفة المقدسة - زادها الله تعالى جلالاً متألق الأنوار، وقدساً
يتساوى في عظيمه من هو مستخفٍ بالليل وساربٌ بالنهار - الإيعاز بإجابته إلى ما وجه
أمله إلى الإنافة فيه به إليه. والجذب بضبعه إلى ذروة الاجتباء الذي تظهر أشعة أنواره
الباهرة عليه.
فقلده - على خيرة الله تعالى - الزعامة والصلاة، وأعمال الحرب، والمعاون والأحداث،
والخراج والضياع، والصدقات والجوالي، وسائر وجوه الجبايات، والفرض والعطاء والنفقة في
الأولياء، والمظالم والحسبة في بلاده، وما يفتتحه ويستولي عليه من بلاد الفرنج الملاعين، وبلاد
من تبرز إليه الأوامر الشريفة بقصده، من المارقين عن الإجماع المنعقد بين المسلمين، ومن
يتعدى حدود الله تعالى، بمخالفة من جعلت الأعمال الصالحات بولائه المفروض على الخلائق
مقبولة، وطاعته - ضاعف الله جلاله - بطاعته وطاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم
موصولة، حيث قال - عز من قائل: يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي
الأمر منكم.
واعتمد - صلوات الله عليه وسلامه - في ذلك على حسن نظره، ومدد رعايته. وألقى
مقاليد التفويض فيه إلى وفور اجتهاده، وكمال سياسته. وخصه من هذا الإنعام الجزيل بما

يبقى له على تعاقب الدهر واستمراره، ويخلد له على ممر الزمان حسن ذكره وجزيل
فخاره. وحباه بتقليدٍ يوطد له قواعد الممالك، ويفتح بإقليده رتاج الأبواب والمسالك، ويفيد
قاعدته في بلاده زيادة قريرٍ وتمهيد، ويطير به صيته في كل قريب وبعيد.
ووسمه بالملك الأجل: السيد الكامل، المجاهد المرابط، نصير الدين، ركن الإسلام، جمال
الأنام، جلال الدولة فخر الملة. عز الأمة. سند الخلافة. تاج الملوك والسلاطين، قامع
الكفرة والمشركين، قاهر الخوارج والمتمردين، إلب غازي بك، محمد، بن أبي بكر بن أيوب،
معين أمير المؤمنين - رعايةً لسوابق خدمه، وخدم آبائه وأسلافه، وإبانةً عن وفور احتبائه،
وكمال ازدلافه. وإنافةً به من ذروة القرب إلى محل كريم، وإختصاصاً له بالإحسان الذي لا
تلقاه إلا من هو - كما قال الله تعالى - ذو حظ عظيم - وثوقاً بصحة ديانته التي يسلك
فيها سواء سبيله، وإستنامةً إلى أمانته في الخدمة التي ينصح فيها لله تعالى ولرسوله. وركوناً
إلى كون الإنعام عليه موضوعاً بحمد الله تعالى في أحسن موضع، واقعاً به لديه في خير
مستقر ومستودع.
وأمير المؤمنين - صلوات الله عليه - لا زالت الخيرة موصولةً بآرائه، والتأييد الإلهي مقروناً
بإنفاذه وإمضائه - يستمد من الله عز وجل حسن الإعانة في اصطفائه، الذي اقتضاه نظره
الشريف واعتماده، وأدى إليه إرتياده المقدس الإمامي واجتهاده. وحسب أمير المؤمنين الله
ونعم الوكيل -.
أمره بتقوى الله تعالى، التي هي الجنة الواقية، والنعمة الباقية، والملجأ المنيع والعماد الرفيع،
والذخيرة النافعة في السر والنجوى، والجذوة المقتبسة من قوله سبحانه: وتزودوا فإن خير
الزاد التقوى. وأن يدرع شعارها في جميع الأقوال والأفعال، ويهتدى بأنوارها في مشكلات
الأمور والأحوال. وأن يعمل بها سراً وجهرا، ويشرح للقيام بحدودها الواجهة صدرا. قال
الله تعالى: ومن يتق الله يكفر عنه سيئاته ويعظم له أجرا.
وأمره بتلاوة كتاب الله متدبراً غوامض عجائبه، سالكا سبيل الرشاد والهداية في العمل به.

وأن يجعله مثالاً يتبعه ويقتفيه، ودليلاً يهتدى بمراشده الواضحة في أوامره ونواهيه. فإنه
الثقل الأعظم، وسبب الله المحكم، والدليل الذي يهدي للتي هي أقوم. ضرب الله تعالى فيه
لعباده جوامع الأمثال، وبين لهم بهداه الرشد والضلال. وفرق بدلائله الواضحة وبراهينه
الصادعة بين الحرام والحلال. فقال - عز من قائل -: هذا بيان للناس وهدىً وموعظةٌ
للمتقين. وقال تعالى: كتابٌ أنزلناه إليك مباركٌ ليدبروا آياته وليتذكر أولو الألباب.
وأمره بالمحافظة على مفروض الصلوات، والدخول فيها على أكمل هيئة من قوانين الخشوع
والإخبات. وأن يكون نظره في موضع نجواه من الأرض، وأن يمثل لنفسه في ذلك موقفه بين
يدي الله تعالى يوم العرض. قال الله تعالى: قد أفلح المؤمنون الذين هم في صلاتهم
خاشعون. وقال سبحانه: إن الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً. وأن لا يشتغل
بشاغل عن أداء فروضها الواجبة، ولا يلهو بسببٍ عن إقامة سننها الراتبة، فإنها عماد
الدين الذي سمت أعاليه، ومهاد الشرع الذي رست قواعده ومبانيه. قال الله تعالى:
حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى، وقوموا لله قانتين. وقال سبحانه: إن الصلاة تنهي
عن الفحشاء والمنكر.
وأمره أن يسعى إلى صلوات الجمع والأعياد. ويقوم في ذلك بما فرض الله تعالى عليه وعلى
العباد. وأن يتوجه إلى المساجد والجوامع متواضعاً، ويبرز إلى المصليات الضاحية في
الأعياد خاشعاً. وأن يحافظ في تشييد قواعد الإسلام على الواجب والمندوب. ويعظم
باعتماد ذلك شعائر الله التي هي من تقوى القلوب. وأن يشمل بوافر اهتمامه واعتنائه،
وكمال نظره وإرعائه، بيوت الله التي هي محال البركات ومواطن العبادات، والمساجد التي
تأكد في تعظيمها وإجلالها حكمه والبيوت التي أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه. وأن
يرتب لها من الخدم من يتبتل لإزالة أدناسها. ويتصدى لإذكاء مصابيحها في الظلام
وإيناسها. ويقوم لها بما تحتاج إليه من أسباب الصلاح والعمارات. ويحضر إليها ما يليق من
الفرش والكسوات.

وأمره باتباع سنة النبي - صلى الله عليه وسلم - التي أوضح جددها وثقف - عليه
السلام - أودها. وأن يعتمد فيها على الأسانيد التي نقلها الثقات. والأحاديث التي صحت
بالطرق السليمة والروايات. وأن يقتدى بما جاءت به من مكارم الأخلاق، التي ندب -
صلى الله عليه وسلم - إلى التمسك بسببها، ورغب أمته في الأخذ بها والعمل بأدبها.
قال الله تعالى: "وما آتاكم الرسولُ فخُذوه وما نهاكم عنه فانْتَهُوا". وقال سبحانه وتعالى:
"من يُطِعِ الرسولَ فقد أطاع الله".
وأمره بمجالسة أهل العلم والدين، وأولي الإخلاص في طاعة الله تعالى واليقين.
والاستشارة بهم في عوارض الشك والالتباس. والعمل بآرائهم في التمثيل والقياس. فإن في
الاستشارة بهم عين الهداية، وأمناً من الضلال والغواية. وبها يلقح عقم الأفهام والألباب،
ويقتدح زناد الرشد والصواب. قال الله تعالى في الإرشاد إلى فضلها، والأمر في التمسك
بحبلها: "وشَاوِرْهُمْ في الأمْر".
وأمره بمراعاة أحوال الجند والعسكر في ثغوره، وأن يشملهم بحسن نظره وجميل تدبيره.
مستصلحا نياتهم بإدامة التلطف والتعهد، مستوضحاً أحوالهم بمواصلة التفحص عنها
والتفقد. وأن يسوسهم سياسةً تبعثهم على سلوك المنهج السليم. وتهديهم في انتظامها
واتساقها إلى الصراط المستقيم. وتحملهم على القيام بشرائط الخدم، والتلزم بها بأقوى
الأسباب وأمتن العصم. ويدعوهم إلى مصلحة التواصل والائتلاف. ويصدهم عن موجبات
التخاذل والاختلاف. وأن يعتمد فيهم شرائط الحزم في الإعطاء والمنع. وما تقتضيه
مصلحة أحوالهم من أسباب الخفض والرفع. وأن يثيب المحسن منهم على إحسانه، ويسبل
على المسيء - ما وسعه العفو واحتمل الأمر - صفحه وامتنانه. وأن يأخذ برأي ذوي
التجارب منهم والحنكة، ويجتنى بمشاورتهم في الأمر ثمر الشركة. إذ في ذلك أمنٌ من خطأ
الإفراد، وتزحزحٌ عن مقام الزيغ والاستبداد.
وأمره بالتبتل لما يليه من البلاد ويتصل بنواحيه من ثغور أولي الشرك والعناد. وأن يصرف

مجامع الالتفات إليها. ويخصها بوفور الإهتمام بها والتطلع عليها. وأن يشمل ما ببلاده من
الحصون والمعاقل بالإحكام والإتقان، وينتهي في أسباب مصالحها إلى غاية الوسع ونهاية
الإمكان، وأن يشحنها بالميرة الكثيرة والذخائر، ويمدها من الأسلحة والآلات بالعدد
المستصلح الوافر، وأن يتخير لحراستها من يختاره من الأمناء التقاة، ويسدها بمن ينتخبه من
الشجعان الكماة. وأن يتأكد عليهم في أسباب الحيطة والاستظهار، ويوقظهم للاحتراس من
غوائل الغفلة والاغترار. وأن يكون المشار إليهم ممن تربوا في ممارسة الحروب على مكافحة
الشدائد وتدربوا في نصب الحبائل للمشركين والأخذ عليهم بالمراصد وأن يعتمد هذا القبيل
بواصلة المدد وكثرة العدد، والتوسعة في النفقة والعطاء، والعمل معهم بما يقتضيه حالهم
وتفاوتهم في التقصير والغناء. إذ في ذلك حسمٌ لمادة الأطماع في بلاد الإسلام، ورد لكيد
المعاندين من عبدة الأصنام.
فمعلومٌ أن هذا الغرض أولى ما وجهت إليه العنايات وصرفت، وأحق ما قصرت عليه
الهمم ووقفت. فإن الله تعالى جعله من أهم الفروض التي ألزم فيها القيام بحقه، وأكبر
الواجبات التي كتب العمل بها على خلقه. فقال سبحانه وتعالى - هادياً في ذلك إلى سبيل
الرشاد، ومحرضاً لعباده على قيامهم له بفروض الجهاد: ذلك بأنهم لا يصيبهم ظمأ ولا
نصبٌ ولا مخمصةٌ في سبيل الله ولا يطأون موطئاً يغيظ الكفار، ولا ينالون من عدوٍ نيلاً إلا
كتب لهم به عملٌ صالح، إن الله لا يضيع أجر المحسنين. ولا ينفقون نفقةً صغيرةً ولا كبيرةً،
ولا يقطعون وادياً - إلا كتب لهم، ليجزيهم الله أحسن ما كانوا يعملون. وقال تعالى:
"فاقْتُلُوهم حيث ثَقِفْتُمُوهم". وقال النبي صلى الله عليه وسلم: من نزل منزلاً يخيف فيه
المشركين ويخيفونه، كان له كأجر ساجد لا يرفع رأسه إلى يوم القيامة، وأجر قائم لا يقعد إلى
يوم القيامة، وأجر صائم لا يفطر. وقال عليه السلام: غدوةٌ في سبيل الله أو روحةٌ خيرٌ مما
طلعت عليه الشمس. هذا قوله - صلى الله عليه وسلم - في حق من سمع هذه المقالة

فوقف لديها. فكيف بمن كان كما قال عليه السلام: ألا أخبركم بخير الناس: ممسكٌ بعنان
فرسه في سبيل الله، كلما سمع هيعةً طار إليها.
وأمره باقتفاء أوامر الله تعالى في رعاياه، والاهتداء إلى رعاية العدل والإنصاف والإحسان
بمراشده الواضحة ووصاياه، وأن يسلك في السياسة بهم سبل الصلاح، ويشملهم بلين
الكنف وخفض الجناح. ويمد ظل رعايته على مسلمهم ومعاهدهم، ويزحزح الأقذاء
والشوائب عن مناهلهم في العدل ومواردهم. وينظر في مصالحهم نظراً يساوي بين الضعيف
والقوي، ويقوم بأودهم قياماً يهتدى به ويهديهم فيه إلى الصراط السوي. قال الله تعالى: "إن
الله يأمُر بالعدلِ والإحسان وإيتاءِ ذي القُرْبَى ويَنْهَي عن الفَحْشاءِ والمُنْكَرِ والبَغْي، يعِظُكُم
لعلكم تَذَكَّرُون".
وأمره باعتماد أسباب الاستظهار والأمنة، واستقصاء الطاقة المستطاعة والقدرة الممكنة،
في المساعدة على قضاء تفث حجاج بيت الله الحرام وزوار نبيه - عليه أفضل الصلاة
والسلام. وأن يمدهم بالإعانة في ذلك على تحقيق الرجاء وبلوغ المرام، ويحرسهم من
التخطف والأذى في حالتي الظعن والمقام. فإن الحج أحد أركان الدين المشيدة وفروضه
الواجبة المؤكدة. قال الله تعالى: ولله على الناس حج البيت.
وأمره بتقوية أيدي العاملين بحكم الشرع في الرعايا، وتنفيذ ما يصدر عنهم من الأحكام
والقضايا، والعمل بأقوالهم فيما يثبت لذوي الاستحقاق، والشد على أيديهم فيما يرونه من
المنع والإطلاق. وأنه متى تأخر أحد الخصمين عن إجابة داعي الحكم، أو تقاعس في ذلك
لما يلزم من الأداء والغرم - جذبه بعنان القسر إلى مجلس الشرع، واضطره بقوة الإنصاف
إلى الأداء بعد المنع. وأن يتوخى عمال الوقوف التي تقرب المتقربون بها، واستمسكوا في
ظل ثواب الله بمتين سببها. وأن يمدهم بجميل المعاونة والمساعدة وحسن الموازرة
والمعاضدة، في الأسباب التي تؤذن بالعمار والاستنماء، وتعود عليها بالمصلحة
والاستخلاص والاستيفاء. قال الله تعالى: وتعاونوا على البر والتقوى.

وأمره أن يتخير من أولي الكفاية والنزاهة من يستخلصه للخدم والأعمال، والقيام بالواجب
من أداء الأمانة والحراسة والتثمير، لبيت المال وأن يكونوا من ذوي الاضطلاع بشرايط
الخدم المعينة وأمورها، والمهتدين إلى مسالك صلاحها وتدبيرها. وأن يتقدم إليهم بأخذ
الحقوق من وجوهها المتيقنة، وجبايتها في أوقاتها المعينة. إذ ذاك من لوازم مصالح الجند
ووفور الاستظهار، وموجبات قوة الشوكة بكثير الأعوان والأنصار، وأسباب الحيطة التي
يحمى بها البلاد والأمصار. ويأمرهم بالجري في الطقوس والشروط على النمط المعتاد،
والقيام في مصالح الأعمال أقدام الجد والاجتهاد. وإلى العاملين على الصدقات بأخذ
الزكوات على مشروع السنن المهيع، وقصد الصراط المتبع، من غير عدول في ذلك عن
المنهاج الشرعي، أو تساهل في تبديل حكمها المفروض وقانونها المرعى فإذا أخذت من
أربابها الذين يطهرون ويزكون بها سعي في العمل في صرفها إلى مستحقيها بحكم الشريعة
النبوية وموجبها. وإلى جباة الجزية من أهل الذمة بالمطالبة بأدائها في أول السنة، واستيفائها
منهم على حسب أحوالهم بحكم العادة في الثروة والمسكنة. إجراءً في ذلك على حكم
الاستمرار والانتظام، ومحافظةً على عظيم شعائر الإسلام.
وأمره أن يتطلع على أحوال كل من يستعمله في أمرٍ من الأمور، ويصرفه في مصلحةٍ من
مصالح الجمهور، تطلعاً يقتضى الوقوف على حقائق أماناتهم، ويوجب تهديتهم في حركاتهم
وسكناتهم، ذهاباً مع النصح لله تعالى في بريته، وعملاً بقول النبي صلى الله عليه وسلم:
كلكم راعٍ وكلكم مسؤولٌ عن رعيته.
وأمره أن يستصلح من ذوي الاضطلاع والغناء، من يرتب للفرض والعطاء، والنفقة في
الأولياء وأن يكونوا من المشهورين بالحزم والبصيرة، والموسومين في المناصحة بإخلاص الطوية
وإصفاء السريرة، حالين من الأمانة والصون بما يزين. ناكبين عن مظان الشبه والطمع الذي
بصم ويشين. وأن يأمرهم باتباع عادات أمثالهم في ضبط أسماء الرجال، وتحلية
الأشخاص والأشكال واعتبار شيات الخيول وإثبات أعدادها، وتحريض الجند على تخيرها

واقتناء جيادها. وبذل الجهد في قيامهم من الكراع والبرك والسلاح بما يلزمهم، والعمل بقول
الله تعالى: "وأَعِدُّوا لهم ما اسْتَطَعْتُم من قُوَةٍ ومن رِباط الخَيْل، تُرْهِبُون به عَدُوَّ اللهِ
وَعَدُوَّكُمْ، وآخَرِين من دُونِهم لا تعلمونَهم اللهُ يَعْلَمُهُمْ". فإذا نطقت جرائد الجند المذكورين
بما أثبت لديهم، وحقق الاعتبار والعيان قيامهم بما وجب عليهم، أطلقت لهم المعايش
والأرزاق بحسب إقراراتهم، وأوصلت إليهم بمقتضى واجباتهم واستحقاقاتهم. فإن هذه
الحال أصل حراسة البلاد والعباد، وقوام الأمر فيما أوجبه الله تعالى من أمر الاستعداد
بفرض الجهاد. قال الله تعالى: "والذين جاهدوا فينا لنَهْدِيَنَّهَم سُبُلَنا، وإن الله لمع
المُحْسِنِين".
وأمره بتفويض أمر الحسبة إلى من يكون بأمرها مضطلعا، وللسنة النبوية في إقامة حدودها
متبعا. فيعتمد في الكشف عن أحوال العامة في تصرفاتها الواجب. ويسلك في التطلع على
معاملاتهم السبيل الواضح والسنن اللاحب. ويأتيهم في الأسواق لاعتبار المكاييل
والموازين، ويعتمد في مؤاخذة المطففين وتأديبهم بما تقتضيه شريعة الدين. ويحذرهم في
تعدي حدود الإنصاف شدة نكاله، ويقابل المستحق للمؤاخذة بما يرتدع به الجمع الكثير من
أمثاله. قال الله تعالى: "أَوْفُوا الكَيْلَ ولا تكونوا من المُخْسِرِين. وزِنُوا بالقِسْطاسِ المُسْتقيم.
ولَا تَبْخَسُوا الناسَ أشياءَهم ولا تعثوا في الأرض مُفْسِدِين".
وقال سبحانه: "وَيْلٌ للمُطَفِّفِين
الذين إذا اكْتَالُوا على الناس يَسْتَوْفُون، وإذا كَالُوُهمْ أو وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُون. ألاَ يَظُنُّ أولئك
أنهم مَبْعُوثون ليوم عظيم. يوم يَقُومُ الناسُ لربِّ العالَمين".
فليتول الملك الأجل، السيد الكامل المجاهد المرابط، نصير الدين ركن الإسلام أثير الإمام،
جمال الأنام، جلال الدولة، فخر الملة عز الأمة، سند الخلافة، تاج الملوك والسلاطين، قامع
الكفرة والمشركين، قاهر الخوارج والمتمردين، أمير المجاهدين: ألب غازي بك، معين أمير
المؤمنين - ما قلده عبد الله وخليفته في أرضه، القائم له بحقه الواجب وفرضه: أبو جعفر
المنصور المستنصر بالله أمير المؤمنين - بقلب مطمئن بالإيمان، ونصحٍ لله تعالى ولخليفته -

صلوات الله عليه - في السر والإعلان وليشرح بما فوض إليه من هذه الأمور صدراً، وليقم
بالواجب عليه من شكر هذا الإنعام الجزيل سراً وجهرا. وليعمل بهذه الوصايا الشريفة
الإمامية، وليقتف آثار مراشدها المقدسة النبوية. وليظهر من أثر الجد في هذا الأمر
والإجتهاد، وتحقيق الظن الجميل فيه والإرشاد - ما يكون دليلاً على تأيد الرأي الأشرف
المقدس - أجله الله تعالى - في اصطناعه واستكفائه، وإصابة مواقع النجح والرشد في
التفويض إلى حسن قيامه وكمال غنائه وليقدر النعمة عليه في هذه الحال حق قدرها،
وليمتر - بأداء الواجب عليه من جزيل الشكر - غزير درها، وليطالع مع الأوقات بما
يشكل عليه من الأمور الغوامض. ولينه إلى العلوم الشريفة المقدسة - أجلها الله تعالى -
ما يلتبس عليه من الشكوك والعوارض. ليرد عليه من الأمثلة ما يوضح له وجه الصواب في
الأمور، ويمدمن المراشد الشريفة التي هي شفاء لما في الصدور، بما يكون وروده عليه،
وتتابعه إليه، نوراً على نور - إن شاء الله تعالى.
وكتب في شهر رجب من سنة ثلاثين وستمائة. والحمد رب العالمين. وصلواته على سيدنا
محمدٍ النبي الأمي، وآله الطاهرين.
وفي هذه السنة، فتحت دار الحديث الأشرفية المجاورة لقلعة دمشق المحروسة، ليلة النصف
من شعبان. وأملى بها الشيخ الإمام العلامة: تقي الدين بن الصلاح الشافعي. ووقف
عليها الملك الأشرف أوقافاً جليلة.
ذكر ركوب الملك العادل بشعار السلطنة
وفي الساعة التاسعة من يوم الثلاثاء، ثامن عشر شهر رمضان، من هذه السنة - سلطن
السلطان الملك الكامل ولده الملك العادل سيف الدين أبا بكر، وركبه في هذه الساعة
بشعار السلطنة. وشق القاهرة، وفي خدمته جميع الأمراء والقضاة وأصحاب الدواوين
والأماثل وغيرهم.
وفيها - في صفر - تسلم راجح بن قتادة مكة - شرفها الله تعالى - وكان قد قصدها في
سنة تسع وعشرين، وصحبته عسكر صاحب اليمن: الملك المنصور عمر بن علي بن
رسول. وكان الأمير فخر الدين بن الشيخ بمكة. ففارقها.

وفيها كانت وفاة الملك العزيز: فخر الدين عثمان بن السلطان الملك العادل سيف الدين أبي
بكر بن أيوب. وهو شقيق الملك المعظم. وكان صاحب بانياس وتبنين وهونين والحصون.
وهو الذي بني قلعة الصبيبة.
وكان عاقلاً قليل الكلام، مطيعاً لأخيه الملك المعظم، وإنما أخرجه عن موالاة ولده -
الملك الناصر داود - أنه كان قصد بعلبك في سنة خمس وعشرين وستمائة، بمواطئةٍ من
ابن الملك الأمجد صاحبها - كما تقدم - فلما فاته وقت الميعاد، الذي اتفقا عليه، نزل على
بعلبك، وأخذ في حصارها. فأرسل الملك الأمجد إلى الملك الناصر يقول له: أنت تعلم ما
كان بيني وبين والدك الملك المعظم من المودة، وأنني كنت صديق من صادقه وعدو من
عاداه، فرحل عني الملك العزيز.
فأنفذ الملك الناصر داود الغرس خليلاً إلى الملك العزيز، وأمره بالرحيل. وقال له: متى لم
يرحل، ارم خيمته على رأسه ! فرحل العزيز إلى بانياس وأوجبت هذه الحادثة غضبه، إلى
أن التحق بالملك الكامل، وجاء معه إلى دمشق - كما تقدم.
وكانت وفاة الملك العزيز في يوم الاثنين، عاشر شهر رمضان، سنة ثلاثين وستمائة، ببستانه
في الناعمة، ببيت لهيا من غوطة دمشق. ودفن بقاسيون في تربة الملك المعظم، عند والته
- رحمه الله تعالى.
وفيها، في يوم الاثنين، سابع عشرين شهر ربيع الأول، توفي بالقاهرة الشيخ جلال الدين أبو
العزائم: همام بن راجي الله سرايا، بن أبي الفتوح ناصر، بن داود الشافعي: إمام جامع
الصالح، بظاهر باب زويلة
رحل إلى بغداد واشتغل بها مدة، وسمع الحديث، واشتغل بالأدب بمصر على ابن برى
ولقي جماعةً من الأدباء، وصنف كتباً كثيرة في الأصول والفروع والخلاف، مختصرة
ومطولة. وله شعر. ومولده بونا من صعيد مصر، في ذي القعدة أو ذي الحجة سنة تسع
وخمسين وخمسمائة. رحمه الله. ولما مات، ولى الإمامة بالجامع الصالحي بعده ولده: نور
الدين علي.
وفيها كانت وفاة الشيخ شهاب الدين أبي حفص: عمر بن محمد بن عبد الله السهروردي.

وهو ينتسب إلى أبي بكر الصديق - رضي الله عنه - فيما قيل.
وذكر ابن خلكان أن
وفاته كانت في مستهل ذي الحجة، سنة اثنتين وثلاثين
وستمائة. ومولده بسهرورد، في سنة
تسع وثلاثين وخمسمائة. وقد تقدم ذكر تردده في الرسالة، من جهة الخليفة إلى الملك العادل،
وغيره. وكان رجلاً صالحاً عابداً، زاهداً ورعاً. وصنف كتاباً للصوفية، سماه عوارف
المعارف.
حكى أنه جلس يوماً ببغداد على منبر وعظه، فذكر أحوال القوم، وأنشد:
ما في الصّحاب أخو وجدٍ نطارحه حديث نجدٍ، ولا صبٌّ نجاريه
وجعل يردد البيت ويطرب ! فصاح به شابٌ من طرف المجلس - عليه قباءٌ وكلوتة -
وقال: يا شيخ، كم تشطح وتنتقص القوم ! والله إن فيهم من لا يرضى أن يجاريك، ولا يصل
فهمك إلى ما تقول ! هلا أنشدت:
ما في الصحاب، وقد سارت حمولهم إلا محبٌ له في الركب محبوب
كأنما يوسفٌ في كل راحلةٍ والحيّ في كل بيتٍ منه يعقوب
فصاح الشيخ، ونزل عن المنبر وقصد الشاب، ليعتذر إليه. فلم يجده. ووجد في موضعه
حفرةً فيها دم، مما فحص برجله عند إنشاد الشيخ البيت !.
وفيها توفي الشيخ الفاضل: عز الدين أبو الحسن علي، بن أبي الكرم محمد بن محمد بن
عبد الكريم، بن عبد الواحد الشيباني - المعروف بابن الأثير الجزري. وكانت وفاته في
هذه السنة من شعبان. ومولده في رابع جمادى الأولى سنة خمس وخمسين وخمسمائة،
بجزيرة ابن عمر.
وكان رجلاً فاضلاً، صنف في التاريخ كتاب الكامل من أول الزمان إلى آخر سنة ثمان
وعشرين وستمائة. وهو من أجود التواريخ التي رأيناها. واختصر كتاب الأنساب لأبي
سعيد عبد الكريم بن السمعاني، واستدرك عليه في مواضع.
ونبه على أغاليط، وزاد
أشياء. وهو كتاب مفيدٌ في ثلاث مجلدات وأصله في ثمانية، وهو عزيز الوجود. وفضائله
وآدابه مشهورة - رحمه الله تعالى.
وفيها كانت وفاة شرف الدين أبي المحاسن: محمد بن نصر بن مكارم، ابن الحسن بن علي

بن محمد، بن غالب الأنصاري، المعروف بابن عنين - الكوفي الأصل، الدمشقي المولد.
وقيل بل هو من زرع من إقليم حوران.
نشأ في دمشق، وسافر عنها، وطوف البلاد شرقاً وغرباً. ودخل بلاد الجزيرة والروم
والعراق وبغداد وخراسان وما وراء النهر، وبلاد الهند واليمن والحجاز ومصر. ومدح
ملوك هذه الأماكن وأعيانها.
وكان ظريفاً حسن الأخلاق جميل العشرة. غزير المادة في الشعر، مولعاً في الهجاء وثلب
أعراض الناس - خصوصاً الأكابر. وله قصيدة طويلة جمع فيها خلقاً كثيراً من رؤساء
الشام وأهل دمشق، سماها: مقراض الأعراض، يقال إنها خمسمائة بيت.
وكان السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف قد نفاه من دمشق، بسبب وقوعه في
الناس. ولما نفى كتب من الهند إلى دمشق:

فعلام أبعدتم أخاثقةٍ لم يجترم ذنبا ولا سرقا
انفوا المؤذّن من بلادكم إن كان ينفى كلّ من صدقا

ولما مات الملك الناصر صلاح الدين، وملك الملك العادل دمشق، سار متوجهاً إلى الشام.
وكتب إلى الملك العادل قصيدته الرائية، واستأذنه في الدخول إلى دمشق. ووصفها وصف
ما قاسى في الغربة، ولما فرغ من وصف دمشق وأنهارها وبساتينها ومستنزهاتها، قال في
قصيدته:

فارقتها لاعن رضىً، وهجرتها لا عن قلىً، ورحلت لا متخيراً
أسعى لرزقٍ في البلاد مشتّتٍ ومن العجائب أن يكون مقتّرا
وأصون وجه مدائحي متقنّعاً وأكفّ ذيل مطامعي متستّرا

جاء منها في شكوى الغربة، وما قاساه منها:

أشكو إليك نوىً، تمادى عمرها حتى حسبت اليوم منها أشهرا
لا عيشتي تصفو ولا رسم الهوى يعفو، ولا جفني يصافحه الكرى
أضحى عن الأخوى المريع محلأً وأبيت عن ورد النّمير منفّرا
ومن العجائب أن تفيّأ ظلّكم كلّ الورى، ونبذت وحدى بالعرا

فلما وقف العادل على هذه القصيدة، أذن له في الدخول إلى دمشق، فدخلها.
وقال:

هجوت الأكابر في جلّقٍ ورعت الوضيع بسبّ الرّفيع
وأخرجت منها، ولكنني رجعت على رغم أنف الجميع

وكانت وفاته في عشية يوم الأثنين، العشرين من شهر ربيع الأول، سنة ثلاثين وستمائة.
ومولده في يوم الاثنين، تاسع شعبان، سنة تسع وأربعين وخمسمائة - حكاه ابن خلكان
وابن الساعي.
وقال أبو المظفر في مرآة الزمان: إن وفاته كانت في سنة ثلاث وثلاثين.
قال: وكان خبيث اللسان هجاءً، فاسقاً متهتكاً. قال: ولما عاد إلى دمشق، استوزره
الملك المعظم. وكانت مجالسه معمورةً بقبائحه.
قال: وحضر مجلس الإمام فخر الدين الرازي بن خطيب الري، وهو يعظ، فجاءت حمامةٌ
وخلفها جارح، فألقت نفسها على الإمام فخر الدين، فغطاها بكمه. فقال ابن عنين، بديهاً:

يا ابن الكرام، المطعمين إذا شتوا في كل مسغبةٍ وثلجٍ خاسف
العاصمين إذا النفوس تطايرت بين المخارم والوتين الرّاعف
من أنبا الورقاء أنّ بجلّكم حرماً، وأنّك ملجأٌ للخائف
وفدت عليك، وقد تدانى حتفها فحبوتها ببقائها المتانف
ولو أنّها تحيي بمالٍ، لانثنت من راحتيك بنائل متضاعف
جاءت سليمان الزّمان بشكرها والموت يلمع من جناحي خاطف
قرمٌ لواه الفوت حتى ظلّه بإزائه يجري بقلبٍ خائف

قال: فرمى عليه الإمام فخر الدين جميع ما كان عليه، وفعل الحاضرون كذلك. فبلغ قيمة
ذلك أربعة آلاف دينار ! وكتب معه كتاباً إلى الملك الناصر، وكتاباً إلى الملك العادل، يشفع
فيه. فقبل الملك شفاعته.
ولما عاد هجا العادل، فقال:

إن سلطاننا الذي نرتجيه واسع المال ضيّق الإنفاق
هو سيفٌ كما يقال، ولكن قاطعٌ للرسوم والأرزاق

وهجا أيضاً أولاد شيخ الشيوخ الأربعة، فقال:

أولاد شيخ الشيوخ قالوا ألقابنا كلّها محال
لا فخر فينا ولا عمادٌ ولا معينٌ، ولا كمال

وأهاجيه في الأكابر والأعيان كثيرة - سامحه الله تعالى وإيانا:
واستهلت سنة إحدى وثلاثين وستمائة:
مسير الملك الكامل إلى بلاد الروم
وفي هذه السنة، وصل الملك الأشرف، صاحب دمشق، إلى السلطان بالديار المصرية،
وحرضه على قصد بلاد الروم. فخرج بالعساكر من القاهرة في ليلة السبت، لخمس خلون

من شعبان، واستناب بالديار المصرية ولده الملك العادل: سيف الدين أبا بكر.
وسار حتى وصل إلى دمشق، وجمع سائر الملوك. وسار من دمشق، فنزل بظاهر البيرة.
واجتمعت الملوك، فكانوا ثلاثة عشر ملكا: كلهم من بني أيوب. وعرض العساكر أطلاباً،
فكبرت نفسه وتعاظم. ثم دخل بهم الدربندات، وأشرف على أرض الروم، وما شك في
أخذها.
فاجتمع الملوك إلى الملك الأشرف، قالوا: متى فتح الملك الكامل بلاد الروم، استولى على
ممالكنا، وعوضنا عنها من بلاد الروم. فاتفقوا على خذلانه، ومكاتبة صاحب الروم: علاء
الدين كيقباد، بن كيخسرو السلجقي، فكاتبوه. فوقعت الكتب إلى الملك الكامل، فرحل
عن الدربندات لوقته، وعاد إلى السويدات وخيم بها.
وكان عند نزوله على الدربندات، أرسل الملك المظفر صاحب حماه، والطواشي شمس
الدين صواب، وجماعة من الأمراء، إلى خرت برت. وكان بها عسكرٌ كثيف من عساكر
الروم، فكسروهم، وأسروا بعض الأمراء الكاملية، وطلع الملك المظفر، والطواشي صواب،
والبانياسي وجماعةٌ من الأمراء، إلى القلعة، فأقاموا بها سبعة عشر يوماً، وطلبوا الأمان من
صاحب الروم. فأمنهم على تسليم القلعة، ولا يأخذوا منها شيئا. ففعلوا ذلك، ونزلوا إليه. فخلع عليهم وأعادهم إلى الملك الكامل. ولم يسلم من خيلهم في
هذه الوقعة إلا سبعةٌ أو ثمانية: كل أمير على فرس. فسير السلطان الملك الكامل إليهم
الخيول، فركبوها ووصلوا إلى السلطان إلى السويدا، فأحسن إليهم. ثم عاد إلى الديار
المصرية، وقد حصلت الوحشة بينه وبين سائر الملوك. وكان وصوله في جمادى الأولى،
سنة اثنتين وثلاثين.
ولما رجع، جهز صاحب الروم جيشا كثيفا إلى حران والرها وآمد، والسويدا وقطينا،
فاستولى على ذلك، ورتب فيهم من يحفظهم. وكانت هذه الجهات تحت يد شهاب الدين
غازي - أخي السلطان - والملك الصالح نجم الدين أيوب: ولده.
فلما اتصل ذلك بالملك الكامل، تجهز بعساكره وخرج من القاهرة، في ثالث عشرين ذي

القعدة من السنة: وكان قد أوصى ولده الملك الصالح نجم الدين وأخاه شهاب الدين غازي
- أن صاحب الروم إذا قصد البلاد يتركونها، ويحضرون، وقال له: إذا أخذ البلاد
استعدتها منه، وإذا أخذكم لا أقدر على استعادتكم منه. فلما وصل عسكر صاحب
الروم إلى البلاد، تركاها، وسارا بعسكرهما إلى سلميه.
ولما قدم السلطان إلى دمشق، كان بها ولدا ولده الملك الصالح، وهما: جلال الدين،
وتورانشاه، فخرجا يسلمان على جدهما، فانتهرهما، فخرجا من عنده. واتصل ذلك
بأبيهما، فعلم أن الغضب إنما هو عليه، لا على ولديه. فأرسل إليهما وأخذهما من دمشق،
ولم يشعر بذلك جدهما.
وسار عن سلميه، ومعه شهاب الدين غازي، فوصل إلى حصن كيفا، ووصل شهاب الدين
إلى ميافارقين. فعظم ذلك على السلطان، وذكر ما فعله الصالح لبعض الأمراء. فتلطف في
الاعتذار عنه، وقال: الملك الصالح معذور، لأن السلطان سلم له البلاد وجعله تحت
الحجر. ثم فعل السلطان بأولاده ما فعل. فأرسل إليه وطيب قلبه، وأمره أن يمضي هو
وشهاب الدين غازي لمحاصرة السويداء، فتوجها إليهما.
ووصل السلطان إليها أيضا. ثم مضى إلى آمد، فهرب العسكر الرومي منها. ووصل
السلطان إلى حران، وفتحها عنوةً في ثالث جمادى الأولى سنة ثلاث وثلاثين. وفتح قلعة
الرها عنوةً. وتسلم السويداء عنوة، في جمادى الآخرة. وهدم قلعة الرها. وأسر من كان
في هذه القلاع من الروم. وأخذ قطينا في شهر رجب عنوة، ونزل على دنيسر فأخربها، إلا
الجامع.
وسير جميع الأمراء إلى الديار المصرية في الجوالق، وكانوا أكثر من ثلاثة آلاف. ورتب ولده
الملك الصالح بآمد. ورتب ولده الملك الصالح بآمد. وأضاف إليه حران والرها ونصيبين،
والخابور ورأس عين والرقة، وجعله سلطانا مستقلا. وعاد إلى الديار المصرية. فوصل إلى
القاهرة في شعبان، سنة ثلاث وثلاثين وستمائة.
نعود إلى تتمة حوادث سنة إحدى وثلاثين وستمائة.
فيها ولي الأمير جمال الدين يغمور شد الدواوين بالديار المصرية

وفيها عمر الملك الأشرف مسجد جراح خارج باب الصغير بدمشق، ورتب فيه خطبة
للجمعة، يصلي فيه سكان الشاغور وغيرهم.
وفيها قدم رسول الأنبرور ملك الفرنج بالهدايا والتحف، وفي جملة ذلك دبٌ أبيض، شعره
مثل شعر السبع، ينزل إلى البحر فيصيد السمك ويأكله، وطاووس أبيض، وغير ذلك.
وفيها عزل قاضي القضاة عماد الدين بن الحرستاني عن قضاء الشام، ووليه قاضي القضاة
شمس الدين بن سني الدولة.
وفيها، توفي الأتابك: شهاب الدين طغرل الخادم، عتيق السلطان الملك الظاهر، صاحب
حلب - وكان أرمني الجنس، حسن السيرة محمود الطريقة، صالحا عفيفا، زاهداً كثير
الصدقة والإحسان، يقسم الليل أثلاثا: فالثلث الأول يجري حكايات الصالحين وأحوال
الناس ومحاسنهم، وينام الثلث الأوسط، ويحيي الثلث الآخر قراءةً وصلاةً وبكاءً. وكان
حسن الوساطة عند الملك الظاهر.
ولما توفي الظاهر، قام بأمر ولده العزيز أحسن قيام. واستمال الملك الأشرف، حتى حفظ
على الملك العزيز البلاد - ولما استعاد الملك الأشرف تل باشر، دفعها لهذا الخادم، وقال
هذه تكون لصدقاتك وما يلزمك، فإنك تكره أن تتصرف في أموال الصغير، فنقل إليها من
الأموال والذخائر كل نفيس. وكان قد طهر حلب من الفسق والفجور والمكوس. وكان
الملك الأشرف يقول: إن كان لله تعالى في الأرض وليٌ، فهو هذا الخادم، الذي فعل ما عجز
عنه الفحول.
فلما ترعرع الملك العزيز بن الملك الظاهر، في سنة تسع وعشرين وستمائة - قال له بعض
خواصه: قد رضيت لنفسك أن تكون تحت حجر هذا الخادم ! فأخذ منه تل باشر، ونزع
يده منه. وبقي الأتابك لا ينفذ له أمرٌ ثم مرض وتوفي بحلب، في ليلة الحادي عشر من المحرم،
من هذه السنة. ودفن بمدرسة الحنفية خارج باب الأربعين - رحمه الله تعالى.
وفيها توفي الشيخ أبو عبد الله: الحسين بن محمد بن يحيى، بن مسلم الزبيدي. سمع أبا
الوقت عبد الأول بن عيسى، وغيره.

وهو من ساكني باب البصرة، وحضر إلى الشام وحدث بدمشق بصحيح البخاري عن
أبي الوقت غير مرة. وهو شيخ شيوخنا. ولما وصل إلى دمشق، أكرمه الملك الأشرف،
وحصل له دنيا صالحة بعد فقر وضرورة. ثم عاد إلى بغداد، فمرض قبل وصوله إليها،
وتوفي بعد أن دخلها بأيام.
كانت وفاته يوم الاثنين، الثالث أو الرابع والعشرين من صفر، سنة إحدى وثلاثين وستمائة.
وسئل عن مولده، فقال: سنة ست، أو سبع، وأربعين وخمسمائة - الشك منه - ودفن
بمقبرة جامع المنصور.
وفيها توفي ركن الدين منكرس الفلكي: مملوك فلك الدين - أخي الملك العادل لأمه - كان
من أكابر الأمراء. ولاه العادل مصر والشام نيابةً عنه. وكان صالحا ديناً، عفيفا عادلا،
كثير الصدقات. وله بقاسيون مدرسة وتربة أوقف عليها أشياء كثيرة. وكانت وفاته.
بجرود: قريةٌ من قرى دمشق، وحمل منها فدفن بتربته بقاسيون - رحمه الله تعالى.
وفيها توفي الأمير كريم الدين الخلاطي. وكان كثير المروءة حسن الملتقى، يتعصب في
الخير. خدم الملك الكامل والمعظم والأشرف. وتقدم في زمن الملك العادل. وكانت وفاته
بدمشق، ودفن بقاسيون - رحمه الله تعالى.
وفيها توفي صلاح الدين أبو العباس: أحمد بن عبد السيد بن شعبان ابن محمد بن جابر،
بن قحطان الإربلي - وهو من بيت كبير بإربل. وكان حاجبا عند الملك المعظم: مظفر
الدين بن زيد الدين صاحب إربل. فتغير عليه واعتقله مدة. فلما أفرج عنه، خرج منها إلى
الشام، واتصل بخدمة الملك المغيث: محمود بن العادل - وكان قد عرفه من إربل -
فحسنت حاله عنده.
فلما توفي الملك المغيث، انتقل الصلاح إلى الديار المصرية، وخدم الملك الكامل فعظمت
منزلته عنده، ووصل منه إلى ما لم يصل إليه غيره، واختص به في خلواته. وجعله أميرا.
وكان الصلاح ذا فضيلةٍ تامة، ومشاركة حسنة. وله نظمٌ حسن، ودوبيت. ثم تغير عليه
الملك الكامل، واعتقله، في المحرم سنة ثمانية عشر وستمائة، والسلطان بالمنصورة. فاستمر

في الاعتقال بقلعة الجبل، مضيقاً عليه، إلى شهر ربيع الآخر سنة ثلاث وعشرين.
فعمل الصلاح دوبيت، وأملاه على بعض المطربين، فغنى به عند الملك الكامل. وهو:
ما أمر تجنّيك على الصّبّ خفى أفنيت زماني بالبكا والأسف
ماذا غضب بقدر ذنبي، ولقد بالغت وما قصدك إلا تلفى
فاستحسنه الملك الكامل، وسأل لمن هو ؟ فقيل: للصلاح الإربلي. فأمر بالإفراج عنه.
وقيل إن الشعر غير هذا، وهو:
اصنع ما شئت، أنت أنت المحبوب ما لي ذنبٌ، بلى - كما قلت - ذنوب
هل يسمح بالوصال في ليلتنا يجلو صدا القلب ويعفو، وأتوب
ولما أفرج عنه، عادت مكانته عنده إلى أحسن ما كانت عليه
ولما توجه الملك الكامل إلى بلاد الروم كان في خدمته، فمرض بالعسكر بالقرب من
السويدا، فحمل إلى الرها فمات قبل وصوله إليها، في خامس عشرين ذي الحجة، سنة
إحدى وثلاثين وستمائة. وكان مولده في شهر ربيع الآخر سنة اثنتين وخمسين وخمسمائة.
ولما مات وجد بداره بدمشق خمسة عشر ألف دينار، وبداره بالقاهرة خمسة آلاف
دينار. ولما عاد السلطان الملك الكامل إلى الديار المصرية، أقطع ولده صنافير بالقليوبية
خاصاً له، وجعل معه أقارب والده ومماليكه - وعدتهم سبعة عشر نفرا - وذلك في سنة
اثنتين وثلاثين.
وتوفي الأديب الفاضل: نجم الدين أبو القاسم عبد الرحمن بن أبي محمد عبد الوهاب بن
الحسن بن علي، المعروف بابن وهيب القوصي، بحماه.
وكان قد توجه في خدمة الملك المظفر - صاحب حماه - ووزر له. وكانت بينهما مودة
ورعاية. ثم نقم عليه أمرا، فقتله - رحمه الله تعالى. وكان فاضلا، له اليد الطولى في الأدب
والترسل، والشعر الرائق. وقد تقدم من كلامه ما كتب به عن متولي الأعمال القوصية، في
معنى حريق خان المكرم، ظاهر مدينة قوص.
واستهلت سنة اثنتين وثلاثين وستمائة:
في هذه السنة، توجه الأمير أسد الدين جغريل أحد مماليك السلطان الملك الكامل - إلى
مكة، شرفها الله تعالى، وصحبته سبعمائة فارس فتسلمها في شهر رمضان. وهرب منها

الأمير: راجح بن قتادة، ومن كان بها من عسكر اليمن.
إنشاء جامع التوبة بالعقيبة بدمشق
في هذه السنة، شرع السلطان الملك الأشرف في هدم خان الزنجبيلي، الذي كان بالعقيبة
بظاهر دمشق، وكان قد جمع أنواع الفساد من الخمور والفسق فقيل للسلطان إن مثل هذا
لا يصلح أن يكون في بلاد الإسلام، فهدمه وعمره جامعا، غرم عليه جملةً كثيرة، وسماه
الناس جامع التوبة.
قال القاضي شمس الدين بن خلكان في وفيات الأعيان: وجرت فيه نكتةٌ لطيفة أحببت
ذكرها، وهي أنه كان بمدرسة ست الشام التي خارج البلد إمام، فعرف بالجمال الستي -
أعرفه شيخا حسنا، ويقال إنه كان في صباه يلعب بشيء من الملاهي، وهي التي تسمى
الجعانه. ولما أسن حسنت طريقته، وعاشر العلماء وأهل الصلاح، حتى عد في الأخيار.
فولاه الملك الأشرف خطابة الجامع، لثناء الناس عليه. فلما توفي، ولي بعده العماد
الواسطي الواعظ، وكان يتهم بالشراب.
وكان صاحب دمشق يومئذ الملك الصالح عماد الدين إسماعيل، فكتب إليه الجماع عبد
الرحيم: المعروف بابن زوينة الرحبى:

يا مليكاً أوضح الحقّ لدينا وأبانه
جامع التّوبة قد قلّدني منه أمانه
قال: قل للملك الصالح أعلى الله شانه
يا عماد الدين، يا من حمد الناس زمانه
كم إلى كم أنا في ضرّ وبؤس وإهانه
لي خطيبٌ واسطيٌ يعشق الشّرب ديانه
والذي قد كان من قبل يغنّى بالجعانه
فكما نحن، وما زلنا ولا أبرح حانه
ردّني للنّمط الأوّل، واستبق ضمانه

وفي هذه السنة، في تاسع صفر، كانت وفاة الملك الزاهد: مجير الدين أبو سليمان، داود بن
السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف ابن أيوب - صاحب قلعة البيرة.
وكان يحب العلماء وأهل الأدب، ويقصدونه من البلاد. وكان فاضلاً أديباً شاعراً، جواداً
سمحا. ومولده بالقاهرة لسبع بقين من ذي القعدة - وقيل ذي الحجة - سنة ثلاث وسبعين
وخمسمائة.

ولما مات، توجه الملك العزيز، ابن أخيه الملك الظاهر، إلى قلعة البيرة، فملكها.
وفيها توفي الأمير الأجل الطواشي: شمس الدين صواب، مقدم عسكر الملك العادل.
وكانت وفاته بحران، في العشر الآخر من شهر رمضان. وكان السلطان الملك الكامل قد
جعله بها، وبغيرها، من تلك البلاد - كما تقدم. وكان أميراً كبيراً في الدولتين: العادلية
والكاملية. وكان خادما عاقلا، ديناً شجاعاً جواداً. وكان العدل والكامل يعتمدان عليه.
وكان له مائة خادم، تعين جماعة منهم وتأمروا بعد وفاته: منهم بدر الدين الصوابي، وشبل
الدولة: كافور الخزندار بدمشق، وشمس الدين صواب السهيلي بالكرك، وغيرهم. وكان
شمس الدين صواب العادلي - هذا - إذا حمل في الأعداء يقول: أين أصحاب الحصى.
وكان له برٌ وصدقة، وفيه إنصاف - رحمه الله تعالى.
وفيها توفى الصاحب تاج الدين: أبو اسحاق يوسف بن الصاحب الوزير: صفي الدين أبي
محمد عبد الله، بن القاضي المخلص أبي الحسن علي، الشيبي المالكي بمدينة حران، في
الحادي عشر من شهر رجب، ودفن بها ومولده بمصر في شوال سنة إحدى وثمانين
وخمسمائة
وكان فقيها مالكيا، درس بمدرسة أبيه بالقاهرة. وناب عن والده في الوزارة بالديار
المصرية. وولى الوزارة بعد والده نحو شهرين. ثم صرف واستخدم في التوقيع. ثم ولي نظر
الدواوين بالديار المصرية.
ثم عزل واعتقل، ثم أفرج عنه في سادس عشر شعبان، سنة خمس وعشرين وستمائة. ثم
ولي الجزيرة وديار بكر وحران في الدولة الكاملية ومات هناك - رحمه الله تعالى.
وفيها توفي شرف الدين، أبو حفص وأبو القاسم: عمر بن علي بن المرشد بن علي،
الحموي الأصل، المصري الدار والمولد والوفاة: المعروف بابن الفارض، الشاعر.
له ديوان شعر مشهور. وكانت وفاته بالجامع الأزهر بالقاهرة المعزية، في يوم الثلاثاء الثاني
من جمادى الأولى، ودفن من الغد بسفح المقطم. ومولده بالقاهرة في الرابع والعشرين من ذي
القعدة، سنة ست وسبعين وخمسمائة.

واستهلت سنة ثلاث وثلاثين وستمائة:
في هذه السنة، حصل بمصر وباءٌ عظيم، مات فيه خلقٌ كثير. واستمر ثلاثة أشهر.
وفيها، في المحرم، وصل الملك الناصر داود، صاحب الكرك، إلى بغداد. واجتاز في طريقه
بالحلة، وبها الأمير شرف الدين، بن الأمير جمال الدين قشتمر، زعيم الحلة ومقدم الجيوش،
فتلقاه وأكرمه، وأقام له الإقامات الوافرة. وعمل له دعوةً عظيمة اشتملت على أنواع من
المآكل. قال ابن الساعي في تاريخه: بلغت النفقة على تلك الدعوة اثني عشر ألف دينار.
ثم قصد بغداد، فوصل إليها في يوم الاثنين سادس عشر المحرم، فبرز لتلقيه الموكب، وفيه
جميع الحجاب والدعاة، وفي صدره قطب الدين: أبو عبد الله بن الأقساسي، - نقيب
الطالبيين - وعن يمينه وشماله خادمان من خدم الديوان العزيز. وحين وافى باب النوبي نزل
وقبل العتبة. وحضر دار الوزارة، فأكرم وخلع عليه قباء أطلس، وشربوش، وأعطى فرساً
بمركب ذهب. وأسكن محلة المقتدى، بالدار المنسوبة إلى أبي تميم الموسوي، وأقيمت له
الإقامات الوافرة من المخزن المعمور في كل يوم.
وأنهى للديوان العزيز ما اعتمده معه عماه من إخراجه من دمشق - وهي مملكه أبيه -
ونقله إلى الكرك.
وأقام ببغداد إلى خامس عشرين شعبان. ثم أحضر إلى دار الوزارة، وخلع عليه قباء
أطلس أسود، وفرجيه مموج، وعمامة قصب كحلية مذهبة. وأنعم عليه بفرس عربي
بمركب ذهب، وكنبوش ومشدة إبريسم. وأعطى العلم والجفتاوات والكراع والخيام
والمفارش والآلات، وخمسة وعشرين ألف دينار، وعدة من الخيل وجوز من الثياب
الفاخرة. وشرف من معه من أصحابه وأتباعه ومماليكه.
وأذن له في التوجه إلى بلده - وذلك بعد الصلح بينه وبين عميه: الكامل والأشرف.
وخرج من بغداد في ثالث شهر رمضان - وصحبته الأمير: سعد الدين حسن بن علي -
إلى الملك الكامل، يأمره عن الديوان العزيز بإجابة سؤاله. ذكر ذلك ابن الساعي في تاريخه.
وفيها، توفي الحافظ: أبو الخطاب عمر بن الحسن بن محمد بن دحية الأندلسي البلنسي،

المعروف بذي النسبين.
طلب الحديث في أكثر بلاد الأندلس الإسلامية، ولقي علماءها ومشايخها. ثم رحل إلى بر
العدوة ودخل مراكش واجتمع بفضلائها. ثم ارتحل إلى إفريقية، ومنها إلى الديار المصرية، ثم
إلى الشام والشرق والعراق. ودخل إلى عراق العجم وخراسان، وما والاها، ومازندران، في
طلب الحديث والاهتمام بأئمته، والأخذ عنهم. وهو في ذلك يؤخذ عنه، ويستفاد منه.
وقدم مدينة إربل، في سنة أربع وستمائة، عند توجهه إلى خراسان. واجتمع بصاحبها:
الملك المعظم بن زين الدين. وكان المعظم عظيم الاحتفال بمولد النبي صلى الله عليه
وسلم، فألف له كتابا سماه: التنوير في مولد السراج المنير، وقرأه عليه فأعطاه ألف دينار.
وله عدة تصانيف.
ولما عاد إلى الديار المصرية، ولاه الملك الكامل دار الحديث الكاملية بالقاهرة. ثم عزله
منها قبل وفاته، وولى أخاه محي الدين أبا عمرو.
وتوفي أبو عمرو بالقاهرة، في يوم الثلاثاء ثالث عشر جمادى الأولى، سنة أربع وثلاثين
وستمائة. وكان حافظا للغة العرب. وكانت وفاة أبي الخطاب بالقاهرة في الرابع عشر من
شهر ربيع الأول سنة ثلاث وثلاثين وستمائة، ودفن بسفح المقطم. ومولده في مستهل ذي
القعدة سنة ست وأربعين وخمسمائة.
وفيها، في سلخ شهر ربيع الآخر - توفي الأمير أبو التقي صالح بن الأمير المكرم أبي الطاهر
إسماعيل بن أحمد بن الحسن بن اللمطي، بمنية بني خصيب من صعيد مصر. وصلى
عليه على ساحل البحر، وحمل في مركب وأحدر إلى مصر، فوصل بعد صلاة العصر
مستهل جمادى الأولى، ودفن بسفح المقطم، بتربة كان أنشأها لنفسه قبل وفاته بيسير -
وقد قارب الستين. سمع ببغداد جماعة كبيرة وبنيسابور وبمرو وهراه وهمدان ودنيسر
ودمشق. وجال في البلاد كثيرا، ودخل ما وراء النهر. ولم يحصل من مسموعاته إلا اليسير
- رحمه الله تعالى.
وفيها في شهر ربيع الأول، توفي الأمير فخر الدين أياز البانياسي بخرتبرت من ديار الجزيرة.

وحمل إلى القاهرة، ودفن بتربته التي أنشأها بالقرافة الصغرة، وأنشأ بجانبها حوض سبيل.
وكان قد ولى مصر مدة، وله غزوات وتقدمٌ في الدولتين العادلية والكاملية. وكان مشهورا في
شبيبته بالقوة. وكان محبا لأهل الخير متفقدا لهم - رحمه الله تعالى.
وفيها، توفي خطيب مصر الشيخ الفقيه: أبو الطاهر محمد بن الحسين ابن عبد الرحمن
الجابري - من ولد جابر بن عبد الله الأنصاري - رضي الله عنه. وهو المشهور بالمحلى،
وهو من أصحاب الشيخين: الشاطبي والقرشي.
واستهلت سنة أربع وثلاثين وستمائة:
ذكر وقوع الوحشة بين السلطان الملك الكامل وأخيه الملك الأشرف
كان وقوع الوحشة بين الملكين الأخوين في هذه السنة.
وسبب ذلك أن الملك الأشرف طلب من أخيه الملك الكامل الرقة، وقال إن الشرق قد
صار للسلطان، وأنا في كل يوم في خدمته، فتكون هذه برسم عليق دوابي. وجعل الفلك
المسيري واسطةً بينه وبين السلطان. فكتب الفلك إلى الملك الكامل بذلك، فأجابه الملك
الكامل بكتاب أغلظ له فيه.
وكان الملك الكامل، لما عاد من بلاد الشرق في سنة ثلاث وثلاثين، بلغه اتفاق الملوك عليه،
فعجل السير إلى الديار المصرية.
فكتب إليه الملك الأشرف يقول: إنك أخذت مني الشرق. وقد افتقرت لهذه البواكير،
ودمشق بستانٌ ليس لي فيها شيء. فبعث إليه عشرة آلاف دينار، فردها عليه، وقال: أنا
أدفع هذه لأميرين.
فغضب الملك الكامل، وقال: الملك الأشرف يكفيه عن الملك عشرته للمغاني وتعلمه
لصناعتهم! فاتصل ذلك بالملك الأشرف، فتنمر له وقال: والله لأعرفنه قدره. وراسل
الملوك: بحلب وحماه وبلاد الشرق، وصاحب الروم، وقال: قد عرفتم بخل الكامل وطمعه في
البلاد.
فحلفوا كلهم واتفقوا، وسيروا رسلهم إلى الملك الكامل يقولون: انهم معه صلحاً، ما أقام
بالديار المصرية ولم يخرج إلى الشام لفتح شيء من البلاد.
وفاة الملك العزيز
صاحب حلب وقيام ولده الملك الناصر

وفي سنة أربع وثلاثين وستمائة، كانت وفاة الملك العزيز غياث الدين محمد، بن الملك الظاهر
غازي، بن الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب - صاحب حلب، بها. ومولده في
ذي الحجة سنة تسع أو عشر وستمائة. وملك بعده ولده الملك الناصر صلاح الدين
يوسف. وكان عمره يوم ذاك ست سنين. فقام بتدبير المملكة والدة أبيه، وهي ابنة الملك
العادل. وجعلت الأمير شمس الدين لؤلؤ أتابكه. ثم زوجه السلطان الملك الكامل ابنته
عاشورا شقيقة الملك العادل، في تاسع عشر ذي الحجة من السنة.
واستهلت سنة خمس وثلاثين وستمائة:
وفاة الملك الأشرف
وشيء من أخباره وقيام أخيه الملك الصالح إسماعيل وإخراجه من الملك
في يوم الخميس رابع المحرم، سنة خمس وثلاثين وستمائة، توفي الملك الأشرف: مظفر الدين
موسى، بن الملك العادل: سيف الدين أبي بكر محمد ابن أيوب - صاحب دمشق - بها.
ودفن بقلعتها، ثم نقل إلى تربته بالكلاسه، بجوار الجامع الأموي.
ومولده بالقاهرة - وقيل بقلعة الكرك - في سنة ست وسبعين وخمسمائة. وقيل إنه قبل
أخيه الملك المعظم بليلة واحدة. وكان - رحمه الله تعالى - عفيفاً عن المحارم، ما خلا
بامرأة قط إلا أن تكون زوجته أو جاريته.
وحكى أبو المظفر يوسف بن قزوغلي سبط ابن الجوزي عنه، في كتابه: مرآة الزمان، من
الأوصاف الجميلة، والمروءة الغريرة، والكف عن المحارم، والعفة عنها مع التمكن منها، ما
يرجى له به الخير عند الله تعالى.
وكان مما حكاه عنه قال: جلست يوماً عنده في منظرة بقلعة خلاط، يعتب على أخيه
الملك المعظم في قضية بلغته عنه، ثم قال: والله ما مددت عيني إلى حريم أحد: لا ذكر ولا
أنثى.
ولقد كنت يوماً قاعداً في هذه الطيارة، فدخل الخادم فقال: على الباب امرأةٌ عجوز، تذكر
أنها من عند بنت شاه أرمن - صاحب خلاط. فأذنت لها، فدخلت، ومعها ورقة من

عند بنت صاحب خلاط، تذكر أن الحاجب علي قد أخذ ضيعتها وقصد هلاكها، وما
تتجاسر أن تظهر، خوفاً منه. فكتبت على الورقة بإطلاق القرية، ونهيت الحاجب عنها.
فقالت العجوز: هي تسأل الحضور بين يديك، فعندها سرٌ ما يمكن ذكره إلا للسلطان !
فأذنت لها. فتوجهت وعادت بعد ساعة، ومعها امرأة ما رأيت في الدنيا أحسن من قدها،
ولا أظرف من شكلها، كأن الشمس تحت نقابها ! فخدمت ووقفت. فقمت لها وقلت:
وأنت في هذا البلد، وما علمت بك ؟! فسفرت عن وجهها فأضاءت منه المنظرة !
فقلت: غط وجهك، وأخبريني بحالك.
فقالت: أنا بنت شاه أرمن، صاحب هذه البلاد. مات أبي، واستولى بكتمر على الممالك،
وتغيرت الدول، وكانت لي ضيعة أعيش منها، أخذها الحاجب علي وما أعيش إلا من
عمل النقش، وأنا ساكنةٌ في دار بالأجرة ! قال: فبكيت، وأمرت الخادم أن يكتب لها
توقيعاً بالضيعة وبالوصية، وأمرت لها بقماش من الخزانة، وأمرت لها بدار تصلح لسكنها،
وقلت باسم الله، امضي في حفظ الله ودعته.
فقالت العجوز: يا خوند، ما جاءت إلى خدمتك إلا حتى تحظى بك الليلة ! قال: فلما
سمعت كلامها، وقع الله في قلبي تغير الزمان، وأن يملك خلاط غيري، وتحتاج بنتي إلى أن
تقعد مثل هذه القعدة بين يديه: فقلت: يا عجوز، معاذ الله ! والله ما هو من شيمتي، ولا
خلوت بغير محارمي، فخذيها وانصرفي، وهي العزيزة الكريمة ! ومهما كان لها من الحوائج
تنفذ إلى هذا الخادم. فقامت، وهي تبكي، وتقول - بالأرمنية: صان الله عاقبتك، كما
صنتني. قال: فلما خرجت، أفتتني نفسي، وقالت: ففي الحلال مندوحةٌ عن الحرام،
تزوجها. فقلت: يا نفساً خبيثة، فأين الحيا والكرم والمرؤة ! والله لا فعلته أبداً.
ومما حكاه أبو المظفر - أيضاً - قال: كنت عنده بخلاط، فقدم النظام بن أبي الحديد،
ومعه نعل النبي صلى الله عليه وسلم. فأخبرته بقدومه، فأذن بحضوره. فلما جاء، ومعه
النعل، قام ونزل من الإيوان، وأخذ النعل فقبله، ووضعه على عينيه، وبكى ! وخلع على

النظام وأعطاه نفقة، وأجرى عليه جراية، وقال يكون في الصحبة نتبرك به.
ثم عزم على أخذ قطعة من النعل تكون عنده. قال بعد ذلك: فلما عزمت على ذلك بت
مفكراً، وقلت: إن فعلت هذا فعل غيري مثله، فيتسلسل الحال ويؤدي إلى استئصاله.
فرجعت عن هذا الخاطر. وتركته لله، وقلت: من ترك شيئاً لله عوضه الله خيراً منه. ثم
أقام النظام عندي شهوراً ومرض، وأوصى لي بالنعل، ومات وأخذته بأسره.
ولما اشترى دار قايماز النجمي، وجعلها دار حديث، ترك النعل فيها، ونقل إليها الكتب
الثمينة، وأوقف عليها الأوقاف. وعمر غيرها من الأماكن الشريفة: منها مسجد أبي
الدرداء بقلعة دمشق - بناه وزخرفه - وكان غالب إقامته به. والمسجد الذي عند باب
النصر، وجامع العقيبة ومسجداً خارج باب الصغير ومسجد القصب خارج باب السلامة،
وجامع بيت الآبار. ووقف على ذلك الأوقاف الكثيرة. وزاد وقف دار الحديث النورية.
هذا وتربته بالكلاسة بدمشق، وتربة والدته بالقرافة بمصر. وبني أيضاً ببلاد الشرق
وخلاط خانات السبيل.
وكان - رحمه الله تعالى - حسن الظن بالفقراء، يحسن إليهم ويزورهم ويتفقدهم بالمال
والأطعمة. وكان في ليالي شهر رمضان لا يغلق باب قلعة دمشق، ويرسل في الليل جفان
الحلو إلى الجامع والزوايا والربط، ما قرب منه وما بعد.
وكان ابتداء مرضه في شهر رجب، سنة أربع وثلاثين وستمائة، مرضين مختلفين في الأعالي
والأسافل. وكان الحرائحي يخرج العظام من رأسه، وهو يسبح الله ويحمده ثم اشتد به
الذرب، فلما يئس من نفسه قال لوزيره - جمال الدين بن جرير -: في أي شيء تكفنني ؟
فقال: حاشاك ! فقال دعني من هذا، فما بقي في قوةٌ يحملني أكثر من نهار غد، وتواروني.
فقال في الخزانة تصافي. فقال: حاش لله أن أكفن من هذه الخزانة.
وقال: لعماد الدين بن موسك أحضر لي الوديعة. فقام، وعاد وعلى رأسه مئزر صوف
أبيض تلوح منه الأنوار، ففتحه وإذا فيه خرق الفقراء وطواقي الأولياء، وفيه إزار عتيق ما

يساوي خمسة قراطيس. فقال يكون هذا على جسدي أتقى به حر الوطيس، فان
صاحبه كان من الأبدال وكان حبشياً، أقام بحبل الرها يزرع قطعة زعفران يتقوت بها،
وكنت أصعد إليه وأزوره، وأعرض عليه المال فلا يقبله، فسألته شيئاً من أثره أجعله في
كفني، فأعطاني هذا الإزار، وقال قد أحرمت فيه عشرين حجة. وكان آخر كلامه: لا إله
إلا الله. ثم مات في التاريخ المذكور.
قال أبو المظفر: ولما أحس بوفاته في آخر سنة أربع وثلاثين، قلت له: استعد للقاء الله فما
يضيرك، قال: لا والله بل ينفعني. ففرق البلاد، وأعتق مائتي مملوك وجارية. ووقف دار
فرخشاه، التي يقال لها دار السعادة، وبستان النيرب على ابنته. وأوصى لها بجميع
الجواهر.
قال أبو المظفر: وحكى لي الفقيه محمد اليوناني، قال: حكى لي فقير صالح من جبل لبنان،
قال: لما مات الأشرف رايته في المنام وعليه ثياب خضر، وهو يطير بين السماء والأرض، مع
جماعة من الأولياء. فقلت له يا موسى، إيش تعمل مع هؤلاء، وانت كنت تفعل في الدنيا
وتصنع ؟ فالتفت إلي وتبسم، وقال: الجسد الذي كان يفعل تلك الأفاعيل تركناه عندكم،
والروح التي كانت تحب هؤلاء قد صارت معهم - رحمه الله تعالى.
ذكر ملك الملك الصالح عماد الدين إسماعيل - ابن الملك العادل - دمشق، ووصول
الملك الكامل إليها وحصار دمشق وأخذها وتعويض الصالح عنها
لما مات الملك الأشرف: مظفر الدين موسى - رحمه الله تعالى - ملك دمشق بعده -
بوصية منه - أخوه الملك الصالح: عماد الدين إسماعيل، الملقب بأبي الخيش ! وإنما لقب
بذلك، لأنه - فيما حكى عنه - كان يملأ خيشة تبناً ويبيتها في الماء، ثم يطعنها برمحه
فيرفعها عليه. فلقب بذلك.
ولما انفصلت أيام عزاء الملك الأشرف، ركب الملك الصالح إسماعيل بشعار السلطنة،
وترجل الناس في ركابه، وأسد الدين شيركوه صاحب حمص إلى جانبه، وحمل الأمير عز
الدين أيبك - صاحب صرخد - الغاشية بين يديه. ثم عاد كل منهما إلى مملكته، واستقر

هو بدمشق.
وصادر جماعةً من أهلها، اتهمهم بمكاتبة الملك الكامل: منهم العلم تعاسيف وأولاد مزهر
وابن عريف البدري، واستصفى أموالهم. وأفرج عن الشيخ على الحريري من الاعتقال
بقلعة عزتا - وكان الملك الأشرف قد اعتقله بها في سنة ثمان وعشرين وستمائة - فأفرج
عنه الآن، ومنعه من الدخول إلى دمشق.
وأما الملك الكامل فإنه لما بلغه وفاة أخيه الملك الأشرف، سر بذلك سروراً عظيماً، لما
كان قد وقع بينهما من الوحشة التي تأكدت أسبابها - وقد تقدم ذكرها. فتجهز بعساكر
الديار المصرية وتوجه من قلعة الجبل، لقصد دمشق، في ثالث عشرين صفر. ولما اتصل
خبره بالملك الصالح حصن دمشق، وقسم الأبراج على الأمراء، وغلق أبواب المدينة.
وجاء الأمير عز الدين أيبك من صرخد، وأمر بفتح الأبواب ففتحت.
ووصل الملك الكامل بعساكره، ونزل عند مسجد القدم. ونزل الملك الناصر داود بالمزة،
ونزل مجير الدين وتقي الدين ابنا الملك العادل بالقابون، وهم في طاعة الملك الكامل.
وأحدقت العساكر بدمشق، وقطع الملك الكامل عنها المياه. ورد ماء بردى إلى ثورا.
وشدد الحصار، فغلت الأسعار. وسد الصالح أبواب دمشق، إلا بابي الفرج والنصر.
وتقدم الملك الناصر داود إلى باب توما، وعمل النقوب فيه. ولم يبق إلا فتح البلد.
فأرسل الملك الكامل إليه فخر الدين بن الشيخ، فرده عنها، ورحله إلى أرض برزه.
وأحرق الصالح إسماعيل قصر حجاج والشاغور، وأخرب ظاهر دمشق خرابا لم يعهد
مثله. واحترق جماعة من سكان هذه الجهات في دورهم، ومن سلم منهم لم يبق له ما
يرجع إليه إلا الكدية وسؤال الناس. وحكى أن الصالح - أو ابنه - وقف على العقيبة،
وقال للزراقين أحرقوها، فضربوها بالناس. وكان لرجل من سكانها عشر بنات، فقال لهن:
اخرجن، فقلن لا والله، النار ولا العار، ما نفتضح بين الناس ! فاحترقت الدار وهم فيها،
فاحترقوا. وجرى من الخراب بظاهر دمشق ما لم يجر مثله قبل ذلك.

ثم راسل الملك الصالح أخاه الملك الكامل يقول: بلغني أنك تعطي دمشق للملك الناصر
داود وأنت أحق بها، وان أنت لم تعطني ما أريد، وإلا ضربت قوارير النفط في أربع جوانب
دمشق وأحرقتها، وأحرقت قلعتها، وأخربها خرابا لا تعمر بعده أبدا. فعلم الملك الكامل
من جرأته أنه يفعل، فأعطاه ما طلب.
ودخل بينهما الشيخ محيي الدين بن الجوزي - رسول الخليفة - وكان بدمشق - فوقع
الاتفاق والصلح على أن الملك الكامل أقر بيد أخيه الملك الصالح بصري والسواد، وأعطاه
بعلبك وأعمالها. ولو طلب أكبر من ذلك أعطاه، خوفاً من أن يحرق دمشق.
وتسلم الملك الكامل دمشق، ودخلها في عاشر جمادى الأولى - وقيل في أواخر الشهر
المذكور. وأفرج عن الفلك المسيري، وكان الملك الأشرف قد اعتقله في حبس الحيات.
ولما دخل الملك الكامل إلى دار رضوان بقلعة دمشق، رأى قبر أخيه الأشرف فرفسه
برجله وسبه، وقال انقلوه الساعة. فنقلوه إلى الكلاسة.
ولما ملك الملك الكامل دمشق، عزم على قصد حمص، لاتفاق صاحبها الملك المجاهد
شيركوه، فيما مضى، مع الأشرف. فصالحه الملك المجاهد على أن يحمل إلى خزانته ألف
درهم، ودخل عليه بالنساء، فأجاب الملك إلى ذلك. ومات الكامل قبل حمل المال.
وفاة السلطان الملك الكامل
كانت وفاته في يوم الأربعاء، وقيل ليلة الأربعاء - الحادي والعشرين من شهر رجب، سنة
خمس وثلاثين وستمائة، بقلعة دمشق بقاعة الفضة. ومولده بالقاهرة في ذي الحجة، سنة
خمس وسبعين وخمسمائة.
وكان أسن أولاد الملك العادل. وكانت مدة عمره تسعا وخمسين سنة وسبعة أشهر -
تقريباً. ومدة ملكه - بعد وفاة والده الملك العادل عشرين سنة، وشهرين وستة عشر
يوماً. وملك دمشق واحداً وسبعين يوماً. ومنذ خطب له بولاية العهد، ثمانياً وثلاثين سنة
وتسعة أشهر، وستة عشر يوماً.
ودفن بالقلعة. ثم نقل إلى تربته بجوار الجامع الأموي بدمشق.
وكان مدة مرضه نيفاً

وعشرين يوماً، بالإسهال والسعال ونزلةٍ في حلقه، ونقرس في رجله. وأظهروا موته يوم
الجمعة. ولم يظهروا الحزن عليه بدمشق. حكى عن خادمه الذي كان يعلله في مرضه،
قال: طلب مني الملك الكامل الطشت لسقيا، فأحضرته له. وكان الناصر داود على الباب
يطلب الإذن. فقلت له: داود على الباب. فقال: ينتظر موتي ! وانزعج. فخرجت إليه،
وقلت له: ليس هذا وقت عبورك، فإن السلطان منزعج. فتوجه إلى دار أسامة - وكان
قد نزل بها. ودخلت إلى السلطان، فوجدته قد قضى، والطشت بين يديه، وهو مكبوب
على المخدة.
وكان ملكاً حازماً، ضابطاً لأموره. متطلعاً لجمع المال، يباشر الحمول التي تصل إليه بنفسه
ويكتبها بخطه في دفترٍ له، ويحاقق المستخدمين فيما يطلع عليه. وجمع مالاً عظيماً، حتى
يقال إنه خلف ألف إردب ذهب. وهذا ما لم يسمع بمثله. وأراه - والله أعلم - من
التغالي.
وكان يجلس في مجلس خاص في كل ليلة جمعة، يجتمع فيه الفقهاء والأدباء والشعراء
وغيرهم. وله في بقية الجمعة ليال، يختلى فيها مع ندمائه على الشراب وسماع القيان. وكان
حسن الاعتقاد في السنة. وكان جهوري الصوت، وله هيبة عظيمة في قلوب الرعايا
والخواص. وعمر قاعة بقلعة الجبل، يجلس فيها مع الفقهاء والصالحين في شهر رمضان،
سماها قاعة رمضان. وهي الآن من جملة الخزائن السلطانية.
ذكر ما اتفق بدمشق بعد وفاة السلطان الملك الكامل في هذه السنة
لما توفي الملك الكامل اجتمع الأمراء، وهم: سيف الدين علي بن قليج، وعز الدين أيبك،
وركن الدين الهيجاوي، وعماد الدين، وفخر الدين: ابنا شيخ الشيوخ، وتشاوروا في أمر
دمشق، وانفصلوا عن غير شيء. وكان الملك الناصر داود بدار أسامة، فأتاه الركن
الهيجاوي ليلا، وبين له وجه الصواب. وأرسل إليه أيبك المعظمي يقول له: أخرج المال،
وفرقه في مماليك أبيك والعوام، فهم معك، وتملك البلد، ويبقى هؤلاء بالقلعة محصورين. فلم
يتفق ذلك.

ثم اجتمع هؤلاء الأمراء بالقلعة في يوم الجمعة، وذكروا الملك الناصر داود، والملك الجواد
مظفر الدين: يونس بن مودود بن الملك العادل. وكان فخر الدين بن الشيخ يميل إلى الملك
الناصر، وعماد الدين يكرهه فأشار عماد الدين بالملك الجواد، ووافقه الأمراء، وقالوا لفخر
الدين بن الشيخ: ما تقول فيه ؟ فقد اتفق الأمراء عليه. فقال: المصلحة أن نولي بعض
الخدام نائباً عن الملك العادل: ابن أستاذنا الملك الكامل، فمتى شاء عزله وإن رضي أبقاه،
ولا تولوا من بيت الملك فيتعذر عزله ويستقل بالملك.
وبلغ ذلك الملك الجواد فجاء إليه، وتحدث معه، وذكر له سالف صحبة ومودة، وترفق له
ووعده أن يعطيه إقطاع مائة وخمسين فارساً، وعشرة آلاف دينار. فقال: والله لا وافقت
إلا على ما فيه مصلحة لابن أستاذي. فلما يئس منه، فرق ضياع الشام على الأمراء وخلع
عليهم، وأعطاهم ما في الخزائن - وكان بها تسعمائة ألف دينار. وتوجه فخر الدين بن
الشيخ إلى الديار المصرية، ومعه جماعة من الأمراء، بعد أن تردد إلى الملك الناصر مراراً،
وهو بالقابون.
واستقر أمر الملك الجواد في يوم الجمعة. وأرسل الأمراء الأمير ركن الدين الهيجاوي إلى
الملك الناصر داود - وهو في دار أسامة - فأمره بالخروج إلى مملكته بالكرك. فقام وركب،
وقد اجتمع الناس من باب داره إلى القلعة، وهم لا يشكون أنه يطلع إلى القلعة. فتوجه،
وخرج من باب الفرج، وصاحت العامة واستغاثوا، محبة له ورغبة فيه. وتوجه إلى
القابون.
وأما الملك الجواد فانه فرق الأموال وخلع الخلع، فيقال إنه خلع خمسة آلاف خلعة، غير
الأموال. وأبطل الخمور والمكوس، ونفى الخواطي. وأقام الملك الناصر بالقابون أياما،
وعزموا على القبض عليه، فرحل، وبات بقصر عفرا. وركب خلفه أيبك الأشرفي ليمسكه،
فبعث إليه عماد الدين بن موسك في السر فعرفه، فسار في الليل إلى عجلون وعاد أيبك إلى
دمشق.
ذكر ما وقع بين الملكين: الناصر والجواد وهرب الناصر إلى الكرك

قال: ولما توجه الملك الناصر إلى عجلون، سار منها إلى غزة. واستولى على الساحل
بموافقة عسكره، ومقدمهم. الأمير مجد الدين عمر - أخو الفقيه عيسى الهكاري -
ووصلت غاراته إلى الورادة وخرب برج الحمام بها. فخرج إليه الملك الجواد في عسكر
مصر والشام، وأمر الأمراء الأشرفية بمكاتبة الناصر وإطماعه في الملك، ففعلوا ذلك.
فاغتر بكتبهم واطمأن إليهم، وركب من غزة في سبعمائة فارس، وقصد نابلس باثقاله
وخزائنه وأمواله - وكانت على سبعمائة جمل - وضرب دهليزه على سبسطيه، وترك
عساكره مقطعةً خلفه.
والملك الجواد على جينين فركب بعسكره وأحاط به. فركب الناصر في نفر يسير، وساق
نحو نابلس، واستمرت به الهزيمة إلى قلعة الكرك لا يلوى على شيء. واستولى الملك الجواد
على خزائنه وذخائره، وخيوله وخيامه وأثقاله - وكان فيها ما لا يحصى قيمته. وكانت
هذه الواقعة في رابع عشرين ذي الحجة من السنة.
قال أبو المظفر: وبلغني أن عماد الدين بن الشيخ وقع بسفطٍ صغير، فيه اثنا عشر قطعة
من الجوهر، وفصوص ليس لها قيمة، فدخل على الجواد وطلبه منه، فأعطاه إياه. قال:
وهذه الأموال - التي كانت على جمال الملك الناصر - هي التي جهز بها الملك المعظم ابنته
دار مرشد، لما زوجها بالسلطان: جلال الدين خوارزم شاه - أخذها الناصر منها ظنا
منه أنه يعوضها إذا فتح البلاد، فكان الأمر بخلاف ما ظن.
وكان نصحاؤه أشاروا عليه - وهو بغزة أنه يبعث بالأموال والأثقال إلى الكرك، على عقبة
الزويره، ويجمع عسكره ويتوجه إليهم جريدةً. فاغتر بمكاتبة الأشرفية. وجهز الملك الجواد
الطلعات والصناجق إلى الديار المصرية، فوصلت في سادس وعشرين الشهر. وعاد إلى
دمشق بالظفر والغنيمة.
هذا ما كان بدمشق، فلنذكر أخبار الملك الصالح نجم الدين أيوب، ببلاد الشرق.
ذكر أخبار الملك الصالح نجم الدين أيوب ببلاد الشرق في هذه السنة
كان الملك الصالح نجم الدين قد استخدم الخوارزمية، الذين سلموا من أصحاب السلطان

جلال الدين خوارزم شاه، في سنة أربع وثلاثين وستمائة. وكانوا - قبل ذلك - خدموا
صاحب الروم السلطان: علاء الدين. كيقباذ، ففارقوه. واستخدمهم الملك الصالح،
واستعان بهم، فخالفوا عليه في سنة خمس وثلاثين. وأرادوا القبض عليه - وكان على
الفرات - فهرب إلى سنجار، وكان قد ملكها واستولى عليها بعد وفاة عمه الملك
الأشرف. وترك خزانته وأثقاله، فنهبوا ذلك بجملته. ولما صار بسنجار، وعلم الملك
الرحيم: بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل - مخالفة الخوارزمية، قصده وحصره بسنجار، في
ذي القعدة. فأرسل الملك الصالح إليه يسأله الصلح. فقال: لا بد من حمله إلى بغداد في
قفص ! وكان بدر الدين لؤلؤ وملوك الشرق يكرهون مجاورة الملك الصالح، وينسبونه إلى
الكبر والظلم.
فبعث الملك الصالح القاضي بدر الدين - أبا المحاسن يوسف - قاضي سنجار إلى
الخوارزمية، فتحيل في الخروج من سنجار، بأن حلق لحيته وتدلى من السور بحبل، وتوجه
إليهم. وشرط لهم كل ما أراداوا. فساقوا جرايد من حران، وكبسوا بدر الدين لؤلؤ
وعسكر الموصل بسنجار. فهرب منهم على فرس، وترك خزائنه وأثقاله وخيوله. فنهبت
الخوارزمية جميع ذلك، واقتسموه. فصلحت به أحوالهم واستغنوا.
هذا ما كان من أخبار دمشق والشام، وأخبار الملك الصالح بالشرك بعد وفاة والده:
الملك الكامل، في سنة خمس وثلاثين. فلنذكر أخبار الملك العادل.
ذكر أخبار السلطان الملك العادل
هو سيف الدين: أبو بكر، بن السلطان الملك الكامل: ناصر الدين أبي المعالي محمد، بن
السلطان الملك العادل: سيف الدين أبي بكر محمد، ابن أيوب. وهو السابع من ملوك الدولة
الأيوبية، بالديار المصرية.
استقر في الملك بعد وفاة والده: السلطان الملك الكامل. وذلك أنه لما مات والده بدمشق،
كان هو ينوب عنه بالديار المصرية. فاجتمع الأمراء الذين كانوا بدمشق، في خدمة السلطان

الملك الكامل، الأمير سيف الدين علي بن قليج، والأمير عماد الدين، وفخر الدين: ابنا
الشيخ، وغيرهم من أكابر الأمراء، في قاعة المسرة بقلعة دمشق، وحلفوا للملك العادل
هذا، واستحلفوا له جميع العساكر المصرية والشامية. وذلك في يوم الخميس الثاني
والعشرين من شهر رجب، سنة خمس وثلاثين وستمائة.
ورتبوا الملك الجواد: مظفر الدين يونس بن مودود - ابن عمه - في نيابة السلطنة بدمشق،
كما تقدم. وطالعوا السلطان الملك العادل بالخبر. فخطب للملك العادل بالديار المصرية، في
سابع شعبان من السنة، وأعلن بوفاة الملك الكامل. فقال القاضي برهان الدين بن الفقيه
نصر:

قل للذي خاف من مصر، وقد أمنت ماذا تألمه منها وخيفته
إن كان قد مات عن مصر محمّدها فقد أقيم أبو بكر خليفته

قال: ولما استقر في الملك، وضع المكوس، وزاد الأجناد، ووسع على الناس في أرزاقهم.
ورضي ما قرره الأمراء من استنابة الملك الجواد بدمشق، وأرسل إليه الخلع والصنجق.
فركب بذلك في يوم الأحد تاسع عشرين شهر رمضان من السنة.
ووصلت العساكر المصرية التي كانت مع الملك الكامل بالشام - وكان ابتداء وصولهم في
ثاني عشر شعبان، وكملوا في مستهل شهر رمضان من السنة - وتأخر منهم من جرد مع
الملك الجواد. فأكرمهم الملك العادل وخلع عليهم، وزاد في أرزاقهم. ثم عاد من تأخر منهم
إلى الديار المصرية، بعد هرب الملك الناصر داود من سبسطية - كما تقدم. وكان
وصولهم في ثامن المحرم سنة ست وثلاثين وستمائة.
وفي سابع عشرين شوال، من سنة خمس وثلاثين، وصل الشيخ محيي الدين يوسف بن أبي
الفرج الجوزي، برسالة الخليفة بالتعزية للملك العادل بأبيه، والتهنئة له بالملك. واستحلفه
للخليفة، في ثاني ذي القعدة منها.
ذكر ما وقع في هذه السنة من الحوادث - خلاف ما تقدم -
في هذه السنة، في ليلة الإثنين سادس جمادى الآخرة، أمر السلطان الملك الكامل أن لا
يصلى بالمسجد الجامع بدمشق صلاة المغرب إلا خلف إمام واحد: وهو خطيب الجامع

الشافعي. وأبطل من عداه من الأئمة المالكية والحنفية والحنابلة، في صلاة المغرب خاصة، لانحصارها في وقت واحد، واشتباه الحال على المأمومين وفيها قصد الملك المنصور: عمر بن علي بن رسول - متملك اليمن - مكة. فلما بلغ الأمير أسد الدين جغريل الخبر، خرج من مكة بمن معه من العسكر إلى الديار المصرية، في سابع شهر رجب، ووصلوا إلى القاهرة متفرقين، في العشر الأوسط من شعبان. ودخل صاحب اليمن مكة في تاسع شهر رجب.
وفيها ولي الشريف: شمس الدين الأرموي الشافعي - قاضي العسكر - نقابة الأشراف بالديار المصرية - وذلك في يوم الأربعاء سلخ ذي القعدة. وقريء تقليده بجامع مصر، وحضر قراءته الأمير جمال الدين بن يغمور، وفلك الدين المسيري، وابن النجيلي.
وفيها في شعبان، ولي الشيخ كمال الدين: عمر بن أحمد بن عبد الله ابن طلحة النصيبي - الخطابة، بعد وفاة عمه الدولعي - وكانت وفاته في رابع عشر جمادى الأولى، ودفن بالمدرسة التي أنشأها بجيرون. وكان له أخ جاهل فولى الخطابة، ثم عزل. فوليها الشيخ كمال الدين.
وفيها كانت وفاة قاضي القضاة: شمس الدين أبو البركات - يحيى بن هبة الله - بن الحسن، المعروف بابن سني الدولة، في يوم الأحد سادس ذي القعدة، ودفن بقاسيون. وكان فقيهاً إماماً فاضلا عفيفاً - رحمه الله تعالى. وولى القضاء بعده قاضي القضاه: شمس الدين أحمد بن الخليل الخويي في ذي القعدة، استقلالاً وعدل جماعةً كبيرة من أهل دمشق وهو أول قاضٍ رتب مراكز الشهود بدمشق وكان قبل ذلك مورقون يورقون المكتوب، ويتوجه أربابه إلى بيوت العدول فيشهدونهم.
وفيها توفي الأمير صارم الدين خطلبا التبنيني، في يوم الاثنين ثالث شعبان، ودفن بتربته التي أنشأها بقاسيون. وكان دينا صالحا عاقلا. أقام في الثغور مدة سنين، يجاهد العدو. وكان كثير الصدقة دائم المعروف، طاهر اللسان، رحمه الله تعالى.
واستهلت سنة ست وثلاثين وستمائة:
ذكر القبض على الصاحب صفي الدين مرزوق ومصادرته واعتقاله

في هذه السن - في أولها - قبض الملك الجواد على الصاحب صفي الدين بن مرزوق،
وصادره، وأخذ منه أربعمائة ألف دينار.
وكان سبب ذلك أنه كان بينه وبين الملك المجاهد - أسد الدين صاحب حمص - عداوة
مستحكمة، لما استوزره الملك الأشرف. وكان الملك الجواد لا يخرج عن رأي الملك
المجاهد، فحسن الملك المجاهد للملك الجواد القبض عليه.
وكان ابن مرزوق قد استشعر
ذلك، فعمد إلى تابوت وضع فيه جواهر ولآليء، وأظهر أن إحدى سراريه قد ماتت وهي
عزيزةٌ عنده، وأنه يريد دفنها في داره المجاورة للمدرسة النورية، بالقرب من الخواصين - وهي
التي تعرف الآن بالنجيبية الشافعية - وعمل في القبة أزجاً، ثم أخرج التابوت على أعناق
غلمانه وخدامه إلى الجامع، وحضر الناس للصلاة على الميتة، بزعمهم، وعمل العزاء وتردد
القراء إلى التربة أياماً.
ثم قبض على مرزوق بعد أيام قلائل، وأخذ جميع موجوده، وحبس بقلعة دمشق. فاتفق
أن خادمه الكبير ضرب خادماً صغيراً، فجاء الخادم، وسأل الاجتماع بالملك الجواد.
واجتمع به وأخبره بالواقعة. فأرسل القاضي والشهود وأمير جاندار وأستاذ الدار، فتوجهوا
وفتحوا التربة، وأحضروا التابوت بحاله. وكشف بين يدي الجواد وصاحب حمص، فوجد
فيه من الجواهر ما قوم بمائتي ألف دينار وستين ألف دينار.
وكانوا - قبل ذلك بأيام - قد
طولب ابن مرزوق بمال يحمله، فحلف برأس الملك الجواد أنه لا يملك شيئاً. فلما وجد هذا
التابوت، سلمه الجواد للملك المجاهد، فاعتقله بقلعة حمص.
فأقام سنين لا يرى الضوء،
وقيل أنه حبس اثنتي عشرة سنة. وأظهر أسد الدين موته، وكتب بينه وبينه مبارأة.
ذكر خروج دمشق عن الملك العادل وتسليمها لأخيه الملك الصالح نجم الدين أيوب
كان سبب ذلك أن السلطان الملك العادل - لما حضر الأمير عماد الدين عمر بن شيخ
الشيوخ من الشام إلى الديار المصرية - أنكر عليه، ولامه وتهدده لكونه سلم دمشق للملك
الجواد. فقال: أنا أتوجه إلى دمشق وأنزل بالقلعة، وأبعث الملك الجواد إلى السلطان. وان

امتنع، أقمت نائباً عن السلطان عوضه.
وتوجه من القاهرة في شهر ربيع الأول، وقرر أن يقطع الملك الجواد ثغر الإسكندرية. ولما
عزم على المسي، أشار عليه أخوه فخر الدين أن لا يتوجه إلى دمشق، وقال أخاف عليك
من ابن ممدود - يعني الجواد. فقال أنا ملكته دمشق، ولا يخالفني فقال: أنت فارقته وهو
أمير، وتعود إليه وقد صار سلطاناً، فتطلب منه تسليم دمشق، وتعوضه الإسكندرية،
ويقيم عندكم، فكيف يطيب له هذا ؟ أو تسمح نفسه بمفارقة الملك ؟ فأما إذا أبيت إلا
التوجه، فانزل على طبرية وكاتبه. فإن أجاب، وإلا تقيم مكانك وتكتب إلى الملك العادل.
فلم يرجع إلى رأيه، وتوجه إلى دمشق. وخرج الجواد إليه، وتلقاه بالمصلى، وأنزله بالقلعة في
قاعة المسرة. وأرسل إليه الملك الجواد الخلع والأموال والأقمشة والخيل، ففرق عماد الدين
الخلع على أصحاب. وجاء الملك المجاهد أسد الدين - صاحب حمص - إلى دمشق.
قال: ولما قال الأمير عماد الدين للملك الجواد أن يتوجه إلى الديار المصرية، ويأخذ ثغر
الإسكندرية - غضب، ورسم عليه في الدار، ومنعه من الركوب.
ثم جاء إليه وقال: إذا أخذتم دمشق مني، وأعطيتموني الإسكندرية، لا بد لك من نائب
بدمشق، فاجعلوني ذلك النائب. ومتى لم تفعلوا هذا، فقد كاتبت الملك الصالح نجم الدين
أيوب، فأسلم إليه دمشق، وأتعوض عنها سنجار. فقال له ابن الشيخ: إذا فعلت هذا،
اصطلح السلطان الملك العادل والملك الصالح، ولا تحصل أنت على شيء ألبتة.
ففارقه الجود وخرج مغضباً، وحكى ما جرى بينه وبين ابن الشيخ للملك المجاهد. فقال:
والله إن اتفق الصالح والعادل لا تركا بيد أحدٍ منا شيئاً، وسلبانا ملكنا وما بأيدينا، حتى
نحتاج إلى الكدية في المخالي. ثم جاء صاحب حمص إلى ابن الشيخ، وقال له: المصلحة أن
تكتب إلى الملك العادل، وتشير عليه بالرجوع عن هذا الرأي: يعني إخراج الملك بالرجوع
عن هذا الرأي. يعني إخراج الملك الجواد من دمشق. فقال: حتى أتوجه إلى برزه، وأصلي
صلاة الاستخارة. فقال له أسد الدين: كأنك تريد أن تتوجه إلى برزة، وتهرب منها إلى

بعلبك. فغضب عماد الدين وانفصلا على هذه الحال.
واتفق الجواد وصاحب حمص على قتل عماد الدين. وتوجه أسد الدين إلى حمص. وكان
عماد الدين قد مرض، وأبل.
فلما كان في يوم الثلاثاء، السادس والعشرين من جمادى الأولى، بعث الجواد إلى الأمير
عماد الدين يقول له: إن شئت أن تركب وتتنزه فاركب إلى ظاهر البلد. فظن أن ذلك بوادر
الرضا. ولبس فرجيةً كان الجواد قد بعث بها إليه، وقدموا له حصاناً كان سيره إليه أيضاً،
فلما خرج من باب الدار إذا هو بنصراني من نصارى قارا قد وقف وبيده قصبةٌ وهو
يستغيث، فأراد الحاجب أن يأخذ القصبة منه، فقال: لي مع الصاحب شغلٌ. فقال عماد
الدين: دعوه.
فتقدم إليه، وناوله القصبة. فلما تناولها، ضربه النصراني بسكين في خاصرته ! وجاء
آخر وضربه بسكين على ظهره، فمات وأعيد إلى الدار ميتاً واحتاط الجواد على جميع
موجوده، وكتب محضراً أنه ما مالأ على قتله. وقصد استخدام مماليكه، فامتنعوا وقالوا له:
أنت تدعي أنك ما قتلته، وهذا له إخوة وورثة، فبأي طريق تأخذ ماله ؟ فاعتقلهم. وجهز
عماد الدين، ودفن بقاسيون في زاوية الشيخ سعد الدين. وكان مولده في يوم الاثنين سادس
عشر شعبان، سنة إحدى وثمانين وخمسمائة - رحمه الله تعالى.
ولما قتل عماد الدين، علم الجواد أنه إن دخل الديار المصرية وسلم من القتل، صار
ضميمة. واتفق وصول رسول الملك الصالح نجم الدين أيوب إلى الملك الجواد، وهو يبذل له
أن يكون له سنجار والخابور ونصيبين والرقه، ويسلم دمشق للملك الصالح. فأذعن إلى
ذلك، لعلمه أن دمشق لا تبقى له. وقيل إن الملك الجواد هو الذي كتب إلى الملك الصالح،
والتمس منه ذلك، فأجاب الملك الصالح إليه.
ورتب ولده: الملك المعظم غياث الدين تورانشاه في بلاد الشرق، وجعل مقامه بحصن
كيفا. ورتب النواب آمد، وأقطع الخوارزمية حران والرها والرقة وبلاد الجزيرة وسار إلى
دمشق، فوصل إليها يوم الأحد مستهل جمادى الآخرة، سنة ست وثلاثين وستمائة.

وحلم الجواد الغاشية بين يديه من تحت القلعة، وحملها الملك المظفر صاحب حماه - من
باب الحديد. وتسلم الملك الصالح القلعة، وخرج الجواد منها في تاسع الشهر، وترك دار
فروخشاه. واستوزر الملك الصالح جمال الدين بن جرير. ثم توجه الملك الصالح في شهر
رمضان إلى نابلس، وكان ما نذكره.
ذكر أخبار الملك الجواد، وما كان من أمره بعد تسليم دمشق
قال المؤرخ: لما قدم الملك الصالح نجم الدين أيوب إلى دمشق، رتب له الملك الجواد
الضيافات كل يوم، في قاعة من قاعات دمشق، ورتب في كل قاعة ما تحتاج إليه من الفرش
والآلات وأواني الفضة، وغير ذلك. وكان إذا حضر إلى قاعة سلمها إليه بجميع ما فيا، ثم
ينتقل إلى قاعة أخرى، وكان آخر الضيافة في قاعة المسرة. ثم خرج الملك الجواد، وركب
والعسكر في خدمته، فقال لهم: سلطانكم الملك الصالح.
فحلف الصالح العساكر في تلك
الساعة، إلا الأمير سيف الدين على ابن قليج، فإن الصالح قبض عليه.
فعظم ذلك على النواب، ولامه أصحابه على ما فعل من تسليم السلطنة للملك الصالح.
فأراد نقض ما أبرمه، والقبض على الملك الصالح. فاستدعى المقدمين والجند واستحلفهم،
وجمع الصالح أصحابه عنده في القلعة، وأراد أن يحرق دار فرخشاه. فدخل جمال الدين بن
جرير بينهما، وأصلح الأمر.
وخرج الجواد إلى النيرب، واجتمع الناس على باب القصر يدعون عليه ويسبونه في وجهه
- وكان قد أساء السيرة فيهم، وسلط عليهم خادماً لبنت كرجي يقال له الناصح، فأخذ
أموالهم وصادرهم، وعلقهم وضربهم، فيقال إنه أخذ منهم ستمائة ألف درهم. وأرسل
الملك الصالح إلى الجواد يأمره أن يعطى الناس أموالهم، فلم يصغ إلى قوله، ولا أجابه عن
ذلك بجواب. وتوجه إلى بلاد الشرق.
فلما وصل إلى ضمير رأى بدوياً فاستراب منه، فقبض عليه، فوجد معه كتباً من الملك
الصالح إلى الخوارزمية - وكانوا على حمص - يحسن لهم القبض على الملك الجواد، وأخذ
ما معه، وأن يسيروه إليه. فعند ذلك أخذ على طريق السماوة وعرج عن حمص، وسار

إلى عانة، فدخلها وأقام بها.
فبلغه أن صاحب الموصل يحاصر سنجار - وبها أيدمر مملوك الجواد - فسار إليه في
مائتي فارس. ولما قرب منها رسم أن يضرب في كل ناحية طبل باز وفرق من معه فرقاً،
وجعل كل فرقة طبلخاناه ومشاعل، وأمرهم أن يضربوا طبلخاناتهم جملةً واحدة وسار إلى
سنجار ليلاً على هذه الصفة، فظن صاحب الموصل أن معه عسكراً، فارتحل عن سنجار
في ليلته، ودخلها الملك الجواد بكرة النهار، وأقام بها سنة.
وحاصره الخوارزمية، وعادوا عنه وترددت الرسائل بينه وبين صاحب الموصل في
المصاهرة بينهما. وقصد الجواد أن يتصل بابنة صاحب الموصل، ليكون عضداً له. فعقد
عقد النكاح بالموصل، وكان وكيل الجواد زريق مملوكة.
ثم سأله صاحب الموصل الاجتماع، وسري ولده رهينة. فوافق الجواد على ذلك وتوجه
إلى عانة. هذا، وصاحب الموصل قد أفسد أهل سنجار. ولما سار الجواد من سنجار،
جاء صاحب الموصل إليها فدخلها من غير ممانع - وذلك في سنة سبع وثلاثين وستمائة.
فسار الجواد إلى بغداد، واستنصر بالخليفة. وأقام ببغداد ستة أشهر. فوصله الخليفة
بأربعة آلاف دينار، وأمره بالخروج عن بغداد. فسار إلى عانه وأقام ها، ثم اشتراها الخليفة
منه بمائة وعشرين ألف درهم. فقبض الجواد المال وسلمها - وهي جزيرة في وسط
الفرات. وسار الجواد بعد تسليمها إلى حران، وهي بيد الخوارزمية، فأقام عندهم سنة.
وسار إلى حلب معهم وقاتل أهلها، ثم عاد معهم إلى حران.
فاستدعاه الملك الصالح نجم الدين - بعد أن ملك الديار المصرية - فسار ومر على
قرقيسيا، واجتاز بالرحبة بالبرية، وأقام عند ابن صدقه أياماً.
وسار في البرة إلى الشوبك،
وسير مملوكه زريق إلى الصالح في البرية. فعظم ذلك على الصالح، وأنكر كونه حضر من
البرية. ووصل الجواد إلى العباسة، فأرسل إليه الملك الصالح الطواشي دينارا وأمره برده،
وأن يعود إلى الشوبك، ولا يدخل مصر. فسار على طريق الرمل يريد الساحل، ووصل إلى
رفح.

فندب الملك الصالح كمال الدين بن الشيخ للقبض عليه. فعلم بذلك فتوجه إلى الملك
الناصر داود - وكان إذ ذاك بالقدس - وتحالفا على قتال الصالح، وذلك في سنة تسع
وثلاثين وستمائة. فاستبشر الناصر بقدومه، وجرد العساكر معه. وجاء كمال الدين بن
الشيخ، والتقوا على مكان يقال له بيت قوريك - وهي قرية من قرى نابلس - بالقرب منها،
فيما بينها وبين الغور من جهة أريحا، فكسره الجواد وأسره. وأحضره إلى عند الملك
الناصر داود، فوبخ الناصر كمال الدين.
وأقام الجواد عند الناصر فتخيل منه وقبض عليه بعد أيام، وأراد قتله، لما كان بينهما من
الذحول القديمة. ثم سيره إلى بغداد في البرية تحت الاحتياط، فنزل قريباً من الأزرق، فعرفه
جماعة من العرب فأطلقوه.
فتوجه إلى عمه الملك الصالح إسماعيل - صاحب دمشق - فلم يمكنه من الدخول إليها،
وبعث إليه بالنفقات. وجرد معه خمسمائة فارس، وكتب إليه بالمسير إلى الساحل
والاجتماع بملوك الفرنج ومقدم الديوية. فتوجه إليهم واجتمع بهم بقيسارية - وكانت أمه
فرنجية - فمالوا إليه.
فبلغ ذلك الملك الصالح نجم الدين، فكتب إليه يعده بمواعيد جميلة، وطلب منه أن يستميل
الفرنج إلى طاعته، ويعدهم عنه بجميع ما يختارونه. ففعل الجواد ذلك، واستمالهم، وكتب
إليه أن يسير رسوله إليهم. ففعل الملك الصالح ذلك، وأرسل رسوله إلى الفرنج، واستحلف
الملك الجواد ومقدم الديوية وأكابر الفرنج. فلما وثق الصالح بذلك، سير الأمير ركن الدين
الهيجاوي. إلى غزة بعسكر، وكتب إلى الجواد أن يرحل وينزل عند الهيجاوي، ويتفق معه
على الصلح. ففعل الجواد ذلك.
ثم كتب الملك الصالح إلى الهيجاوي يأمره بالقبض على الملك الجواد، وإرساله إليه.
فأخبره الهيجاوي بذلك. فاتفقا على مفارقة الملك الصالح أيوب. فتوجه الجواد إلى عكا،
والتجأ إلى الفرنج. وتوجه الركن الهيجاوي إلى دمشق، والتحق بصاحبها الملك الصالح
إسماعيل وأقام عنده. ولم يخدمه، بل كان يتردد إليه فيكرمه ويستشيره في أموره.

ثم كتب الملك الصالح إسماعيل إلى الملك الجواد يعنفه. على لحاقه بالفرنج وطلبه إليه ثم
أرسل إلى الفرنج وطلب منهم المعاضدة على صاحب مصر، ووعدهم أنه إذا ملك مصر
أعطاهم البلاد الساحلية، وجميع فتوح الملك الناصر صلاح الدين يوسف. فاستشاروا
الجواد في ذلك، فكتب إليهم يحذرهم من الملك الصالح إسماعيل، وينهاهم عن موافقته.
فوقع بخطه للملك الصالح إسماعيل، فقبض عليه بمنزلة العوجاء، وسيره إلى دمشق، واعتقله
بعزبا. فمات في شوال سنة إحدى وأربعين وستمائة. وطلبه الفرنج وشددوا في طلبه،
فأظهر أنه مات. وأهله يقولون إنه خنقه. والله أعلم. ولما مات دفن بقاسيون في تربة الملك
المعظم - رحمهما الله تعالى.
هذا ما كان من أمر الملك الجواد. فلنرجع إلى بقية أخبار الملك العادل صاحب مصر.
ذكر مخالفة الأتراك على السلطان الملك العادل، وتوجههم إلى أخيه الملك الصالح نجم
الدين أيوب بدمشق
وفي سنة ست وثلاثين وستمائة، ندب السلطان الملك العادل العساكر إلى الساحل، وقدم
عليهم الأمير ركن الدين الهيجاوي، وأنفق فيه الأموال - وذلك في جمادى الآخرة. فأقاموا
ببلبيس إلى العشرين من شهر رمضان.
وأظهر جماعةٌ من الأتراك والمضافين إليهم الخروج عن طاعة الملك العادل، وشيعوا أه
يقصد القبض عليهم، وعزموا على قصد الملك الصالح أيوب.
فأرسل الملك العادل إليهم
الأمير فخر الدين بن الشيخ، وبهاء الدين ابن ملكشو، وطيب قلوبهم واستمالهم، فلم
يجيبوا.
ولما كان في الحادي والعشرين من شهر رمضان، خرج جماعة من الحلقة من القاهرة، من
باب النصر وغيره، تقدير ألف فارس من الأتراك - وأظهروا أن السلطان عزم على القبض
عليهم، وقصدوا اللحاق بمن كان على بلبيس من الأمراء فبطق الملك العادل إلى الأمراء
الأكراد ببلبيس، بمناجزة الأتراك وقتالهم، فقاتلهم الأكراد قبل وصول الحلقة إليهم. فانهزم
الأتراك إلى جهة الشام وانضم أكثرهم إلى الأكراد. ولما انهزموا تبعهم الأكراد، ثم رجعوا

خوفاً على أثقالهم من الحلقة فوجدوا الحلقة قد وصلوا إلى بلبيس، فلم تتعرض إحدى
الطائفتين إلى الأخرى بقتال، لدخول الليل. وتوجه الأتراك للحاق بأصحابهم الذين انهزموا،
وساروا إلى دمشق واتصلوا بخدمة الملك الصالح أيوب.
ذكر وصول الملك الناصر داود - صاحب الكرك - إلى السلطان الملك العادل
وفي خامس شوال، سنة ست وثلاثين وستمائة، وصل نجابٌ من الملك الناصر داود -
صاحب الكرك - إلى السلطان، يخبره بوصوله. فخرج السلطان للقائه في سابع الشهر،
وزينت القاهرة ومصر زينة لم يشاهد مثلها، وعاد السلطان والملك الناصر معه في ثامن
الشهر، واستبشر بقدومه وحلف كلٌ منهما لصاحبه.
وفي العشرين من شوال، وردت الأخبار بوصول عسكر الملك الصالح نجم الدين أيوب -
صحبة ولده الملك المغيث جلال الدين عمر - إلى جينين فجمع الملك العادل والناصر
الأمراء، وتحالفوا على قتاله. وخرج الملك الناصر داود في يوم الأحد تاسع ذي القعدة،
لقصد الشام. وندب الملك العادل جماعة من الأمراء في خدمته، لقتال الملك الصالح نجم
الدين أيوب. وجهز صحبته خزانة مال وسلاح خاناه، وخرج لوداعه إلى بركة الجب، وعاد
إلى القلعة. ثم خرج الملك العادل في يوم الثلاثاء - سلخ ذي الحجة - لقصد الشام، لقتال
أخيه الملك الصالح، فنزل على بلبيس
وفي هذه السنة، في يوم الأحد ثامن صفر، كانت وفاة الشيخ الإمام جمال الدين أبي المحامد،
محمود بن أحمد الحصيري الحنفي، بدمشق. وأصله من بخارى، من قرية يقال لها حصيره.
تفقه في بلده، وسمع الحديث الكثير. وقدم الشام، ودرس بالنورية. وانتهت إليه رياسة
أصحاب أبي حنيفة. وقرأ عليه الملك المعظم الجامع الكبير، وغيره. وصنف الكتب
الحسان، وشرح الجامع الكبير. وكان كثير الصدقة غزير الدمعة نزهاً عفيفاً. وكان إذا أتى
قلعة دمشق لا ينزل عن حماره إلا على الإيوان السلطاني، والملوك تعظمه وتجله. ودفن
بمقابر الصوفية عند المنيبع، على الجادة رحمه الله تعالى.
وفيها توفي الوزير جمال الدين بن جرير، وزير الملك الأشرف. ثم وزر للملك الصالح نجم

الدين أيوب بدمشق دون الشهر، ومات. وأصله من الرقة.
وكانت وفاته في يوم الجمعة -
السابع والعشرين من جمادى الآخرة - بعلة الخوانيق. ودفن
بمقابر الصوفية عند المنيبع -
رحمه الله تعالى.
وفيها في شعبان، توفي الأمير علاء الدين أبو الحسن علي، بن
الأمير شجاع الدين أبو
المنصور جلدك، بن عبد الله المظفري التقوي، بثغر دمياط -
وكان والياً به - رحمه الله
تعالى.
ذكر عود السلطان الملك العادل من بلبيس إلى قلعة الجبل
قد ذكرنا أن السلطان كان قد خرج من قلعة الجبل في سلخ ذي
الحجة سنة ست وثلاثين،
لقصد الشام. ونزل على بلبيس وأقام بها، إلى سادس عشر
المحرم من هذه السنة، ثم
رجع.
وكان سبب رجوعه أن الأمراء قصدوا القبض عليه، وتحيلوا على
ذلك، فسألوه أن يعمل
كل منهم دعوةً ويحضرها للسلطان، ففسح لهم في ذلك. وحضر
عند بعضهم فأكل، ثم قدم
الشراب فشرب، ورأى ما أنكره فقام، ودخل إلى خربشت
لقضاء الحاجة، فخرج من ظهر
خربشت، وركب فرساً وساق إلى القلعة. فلما طال على الأمراء
انتظاره، دخلوا فلم
يجدوه فتفرقوا، وعلموا أنه شعر بما أرادوه من اغتياله.
فسيروا إليه يطلبونه، فأظهر أنه ما دخل إلى القاهرة إلا ليخلق
المقياس ويكسر الخليج،
ويعود إليهم. ثم ألجأته الضرورة إلى الخروج، فخرج إلى
العباسة في يوم الخميس الرابع
والعشرين من الشهر، وقبض على الأمير فخر الدين بن الشيخ،
وزين الدين غازي، وفتح
الدين بن الركن، ووصل بهم إلى قلعة الجبل بكرة نهار الأحد
السابع والعشرين من الشهر.
وفي خامس عشرين صفر، توجه الملك الناصر داود من العباسة
إلى الكرك، وصحبته ابن
قليج وجماعةٌ من أمراء مصر.
وفي يوم الخميس، الحادي والعشرين من جمادى الآخرة، عملت
والدة الملك العادل وليمةً
عظيمة في الميدان تحت قلعة الجبل، لجميع الناس: الخواص
والعوام، ذبحت فيها ألف رأس
من الغنم، وجملةً من الخيل والبقر والجاموس والإبل، وحلت ما
يزيد على مائة قنطار من

السكر، في ثلاث فساقي كانت على جانب الميدان مما يلي القلعة، وتفرق الناس ذلك
بالأواني. وكان ذلك فرحاً باعتقال الملك الصالح أيوب، فإنه كان قد اعتقل بالكرك - على
ما نذكره، إن شاء الله تعالى في أخباره.
قتال الفرنج وفتح القدس
وفي يوم الخميس - ثامن عشر شهر ربيع الأول، من السنة - وردت الأخبار، إلى السلطان
الملك العادل، أن الفرنج قصدوا الأمير ركن الدين الهيجاوي ومن معه من العسكر، والتقوا
واقتتلوا، في يوم الأحد رابع عشر الشهر، عند سطر الجميز بالقرب من غزة.
وكانت الهزيمة على الفرنج. وأسر ملكهم، وثلاثةٌ من جنودهم، وما يزيد على ثمانين
فارساً، ومائتين وخمسين راجلا. وقتل منهم ألف وثمانمائة إنسان. ولم يقتل من المسلمين في
هذه الوقعة إلا دون العشرة، منهم: الأمير سيف الدين محمد بن الأمير أبي عمر، وعثمان
بن الأمير علكان ابن أبي علي الكردي الهيجاوي - وكان شاباً صالحاً - وعمره ثلاثون
سنة - رحمه الله تعالى. فخذلت هذه الكسرة الفرنج.
ثم فتح الملك الناصر داود صاحب الكرك - ومن معه من العسكر المصري - البيت
المقدس، في يوم الاثنين تاسع جمادى الأولى. فقال جمال الدين بن مطروح:

المسجد الأقصى له عادةٌ سارت، فصارت مثلاً سائراً
إذا غدا للشّرك مستوطناً أن يبعث الله له ناصراً
فناصرٌ طهّره أوّلاً وناصرٌ طهّره آخراً

قال: ولما فتح البيت المقدس، تحصن جماعةٌ من الخيالة والرجالة، ببرج داود والأبراج
والبدنات، فنصب عليها المجانيق وهدمها. فسألوا الأمان على أنفسهم خاصة، فأمنهم.
وفاة الملك المجاهد
صاحب حمص
وفي ثامن عشر شهر رجب، من السنة - وقيل في يوم الثلاثاء العشرين منه - توفي الملك
المجاهد أسد الدين شيركوه، بن ناصر الدين محمد، بن الملك المنصور أسد الدين شيركوه،
بن شادي - صاحب حمص - بها، ودفن بها.
وكانت حمص بيده، منذ أعطاها إياه السلطان الملك الناصر: صلاح الدين يوسف بن أيوب

- عم أيبه - بعد وفاة والده، في سنة إحدى وثمانين وخمسمائة. فكانت مدة ملكه بحمص
سبعاً وخمسين سنة، تقريباً.
وكان شجاعاً شهماً، مقداماً، يباشر الحروب بنفسه. وحفظ بلاده من الفرنج والعرب.
وبنى الأبراج على مخائض العاصي ورتب فيها الرجال والطيور. وكان الفرنج إذا خرجوا
أطلق الرجال الطيور، فيركب بنفسه وعساكره، فيسبق الفرنج ويردهم. وكذلك كان يقصد
العرب من جهة البرية. وكان قد منع النساء أن يخرجن من باب حمص، مدة ولايته. وكان
إذا اعتقل إنساناً أطال حبسه. وملك بعده حمص ولده الملك المنصور إبراهيم.

ذكر وصول رسل الخليفة إلى السلطان الملك العادل بالتشاريف

وفي ثامن عشر شهر رمضان - سنة سبع وثلاثين وستمائة - وصل الشيخ محيي الدين بن
الجوزي - رسول الخليفة - وفلك الدين المسيري، بخلع الخليفة إلى السلطان الملك العادل،
ولولده. ولقب ولده - الملك المغيث - من الديوان العزيز بألقاب الملك الكامل جده، وسمي
باسمه، ثم انتفض ذلك، وأعيد إلى ألقابه الأول، وهي الملك المغيث فتح الدين عمر.
ووصلت الخلع أيضاً لجماعةٍ من الأمراء، وخلعة للوزير - ولم يكن للسلطان الملك العادل
وزير - فرسم بنقل خلعة الوزير إلى الخزانة العادلية. وكانت جملة الخلع ثماني عشرة خلعة.
وسير للسلطان مع خلعته فرس له سرجٌ مشغول بالذهب، وعلمان، وسيفان، تقلد بهما عن
اليمين والشمال. فلبس السلطان الخلعة بظاهر القاهرة، وشق البلد.
ثم اتصل بالملك العادل أن الملك الصالح قد أطلق من حبسه بالكرك، وأنه قصد نابلس،
وخطب له بها. فخرج من القاهرة في يوم السبت الخامس من شوال، ونزل على بلبيس،
فأقام بها، إلى أن قبض الأمراء عليه.

ذكر القبض على السلطان الملك العادل وخلعه

وفي يوم الجمعة، لثمان مضين من ذي القعدة، سنة سبع وثلاثين وستمائة - وقيل لسبع بقين
من شوال، منها - قبض الأمراء على السلطان الملك العادل، وخلعوه.

وذلك أن الأمير عز الدين أيبك الأسمر - مقدم الأشرفية - ومقدمي الحلقة، وهم:
الطواشي مسرور الكاملي، وكافور الفائزي، وجوهر النوبي، وجماعةٌ من الحلقة - اتفقوا
على خلعه، والقبض عليه، واستدعاء أخيه الملك الصالح نجم الدين أيوب. فخلعوه
وقبضوا عليه. فكانت مدة سلطنته سنتين، وثلاثة أشهر، وثمانية عشر يوماً.
ولما قبض على الملك العادل، ركب جماعةٌ من الأتراك وقصدوا أمراء الأكراد، لما كان
بينهم من الذحول التي أثرتها وقعة بلبيس. وكان الأكراد على غير أهبة، فنهبهم الأتراك.
ووافقهم ممالك الأكراد على أستاذيهم، ومالوا للأتراك للجنسية، فاستولى الأتراك على
خيامهم وأثقالهم وخيولهم. وانهزم الأكراد، كلٌ منهم على فرس، ودخلوا القاهرة. وقبض
المراء على خواص الملك العادل وحرفائه.
وكان الملك العادل قد اشتغل باللهو والهزل واللعب. وكان لا يؤثر قيام ناموس المملكة.
ووثق بكرمه وبذلك الأموال، وظن أن ذلك يغنيه عن التحفظ. وكان من أكرم الناس
وأكثرهم عطاء، ودليل ذلك أنه فرق في مدة سلطنته ما يزيد على ستة آلاف ألف دينار،
وعشرين ألف ألف درهم، من الأموال التي خلفها والده:
السلطان الملك الكامل.
الملك الصالح نجم الدين أيوب
بن السلطان الملك الكامل - وما كان من أمره بعد وفاة أبهي إلى أن ملك الديار المصرية
كان السلطان الملك الصالح، لما توفي والده السلطان الملك الكامل، مقيماً بسنجار - وله
آمد وحران والرها، ونصيبين والخابور، ورأس عين والرقة - من سنة ثلاثٍ وثلاثين
وستمائة. وتوفي السلطان الملك الكامل والده، والأمر على ذلك.
ثم كان من أخباره مع الخوارزمية، ومفارقتهم له، ومحاصرة الملك الرحيم بدر الدين لؤلؤ له
بسنجار، واستنصاره بالخوارزمية وعودهم إلى خدمته، وهرب بدر الدين لؤلؤ - ما
قدمناه.
وملك بعد ذلك دمشق من الملك الجواد - كما تقدم. ولما ملك دمشق، راسل عمه الملك

الصالح عماد الدين إسماعيل - صاحب بعلبك - والتمس منه مساعدته على قصد الديار
المصرية، وانتزاعها من أخيه الملك العادل. وشرط له أنه إذا فتح الديار المصرية تكون له،
وتكون دمشق للصالح إسماعيل. فأجابه إلى ذلك، وشرع في الاستعداد والاستخدام
والاحتشاد.
فاتصل ذلك بالملك العادل ووالدته، فكتبا إلى الملك الصالح إسماعيل، وكتب إليه بعض
ا"لأمراء المصريين، وهم يصرفون رأيه عن مساعدة الملك الصالح أيوب، وحسنوا له أخذ
دمشق. فاتفق الصالح إسماعيل، وصاحب حمص على مخالفة الملك الصالح نجم الدين.
وخرج الملك الصالح أيوب من دمشق في شهر رمضان سنة ست وثلاثين وستمائة، وقصد
نابلس - وهي في جملة مملكة الملك الناصر داود، صاحب الكرك - فاستولى عليها وعلى
بلادها - وذلك في شوال من السنة. وتوجه الملك الناصر داود إلى الديار المصرية - كما
تقدم.
وأقام الملك الصالح نجم الدين بنابلس، ينتظر وصول عمه الملك الصالح إليه بعسكره،
ليتوجها إلى الديار المصرية. وكان بقلعة دمشق الأمير ناصر الدين القيمري، ينوب عن الملك
الصالح، فاتصل به خبر الملك الصالح إسماعيل وما عزم عليه. فكتب إلى الملك الصالح
أيوب، يعلمه أن عمه الصالح إسماعيل قد عزم على مخالفته، واستخدم الرجال لذلك،
وحذره منه مرةً بعد أخرى. ووالى كتبه إليه، وهو لا يكترث بقوله. فلما كرر كتبه بذلك،
أجابه: إن مقرعتي إذا وقعت في فلاةٍ لا يقدر أحدٌ أن يمسها بيده، ولا يتجاسر عليها !
فلما وقف على جوابه كف عنه.
وكان الملك المسعود بن الملك الصالح إسماعيل في خدمة الملك الصالح أيوب - هو والأمير
ناصر الدين بن يغمور - فتواترت كتب الملك الصالح إلى عمه الصالح يستحثه على اللحاق
به. وهو يتقاعد عنه، ويجيبه إنني لا يمكنني إخلاء قلعة بعلبك بغير حافظ، والقصد
إرسال ولدي إلي لأجعله بها، وأحضر إليك. فعند ذلك جهز الملك الصالح نجم الدين أيوب

الحكيم سعد الدين بن صدقة المعري، إلى عمه الملك الصالح، برسالةٍ، ظاهرها استحثاثه
على سرعة الوصول إليه، وأمره أن يطالعه بما يظهر له من أحوال عمه، وهل هو على
الطاعة أو العصيان.
فلما وصل الحكيم إلى بعلبك، اطلع على ما اتفق عليه الصالح إسماعيل وصاحب
حمص: من قصد دمشق، وانحرافهما عن الملك الصالح. فكان يكتب إليه بذلك، ويدفع
البطايق إلى البراج ليرسلها على الحمام، فيرصده الصالح إسماعيل ويأخذها منه، ويغيرها
بخط أمين الدولة السامري، بما معناه أن الملك الصالح إسماعيل محبٌ في السلطان، وقد
استخدم واحتفل، وهو على عزم القدوم إلى السلطان. فتصل هذه البطايق المزورة إلى الملك
الصالح أيوب، فلا يشك أنها صحيحة. فعند ذلك أرسل الملك المسعود إلى أبيه ببعلبك،
وقد طابت نفسه ووثق أن عمه معه.
فلما حصل ولده عنده، سار من بعلبك، وسار صاحب حمص من حمص، وتوافوا بجبل
قاسيون. وكان جملة من استخدم الملك الصالح إسماعيل ألف فارس وأحد عشر ألف
راجل. واستخدم صاحب حمص أربعة آلاف راجل. وتقرر بينهما أن يكون ثلثا دمشق
وأعمالها للملك الصالح إسماعيل، والثلث لصاحب حمص. وكان الصالح اسماعيل قد
أفسد بعض أمراء الصالح أيوب. كل ذلك والأمير ناصر الدين القيمري يطلع عليه، ويطالع به
الملك الصالح أيوب، وهو لا يلتفت إليه، ولا يرجع إلى نصحه.
ذكر استيلاء الملك الصالح عماد الدين إسماعيل ابن السلطان الملك العادل سيف
الدين أبي بكر محمد بن أيوب - على دمشق
قال: ولما تكامل للملك الصالح ما أراد من الاستخدام والاحتشاد، ووافقه صاحب حمص
- الملك المجاهد أسد الدين شيركوه - راسل الأمير ناصر الدين القيمري النائب بقلعة
دمشق، وبذل له عشرة آلاف دينار على تسليم القلعة. فوافقه على ذلك، ووقع منه بموقع،
لأنه كان قد كرر نصائحه لمخدومه الملك الصالح - نجم الدين أيوب - وحذره، فما رجع
إليه، وأجار بما تقدم ذكره. فحمله ذلك على موافقة الملك الصالح عماد الدين، وتقرر بينهما

أن الصالح يحاصر قلعة دمشق ثلاثة أيام، ويسلمها إليه، ففعل ذلك. ودخل إلى دمشق في
يوم الثلاثاء، سادس أو سابع عشرين صفر، سنة سبع وثلاثين وستمائة.
وكان دخوله من باب الفراديس، من غير ممانعة، فإنه لم يكن عليه من يدفع عنه، ولا عن
البلد. ونزل الصالح بداره بدرب الشعارين. ونزل صاحب حمص في داره. وزحفوا في يوم
الأربعاء ثامن عشرين الشهر على القلعة، ونقبوها من ناحية باب الفرج، وقاتل عليها ثلاثة
أيام، وتسلمها من القيمري - كما تقرر بينهما وكان بها الملك المغيث: جلال الدين عمر بن
الملك الصالح نجم الدين أيوب، فاعتقله الملك الصالح إسماعيل عم أبيه في برج بالقلعة.
واتصل الخبر بالملك الصالح أيوب، وهو بمخيمه بظاهر نابلس، وقيل له: إن القلعة ما أخذت
فاستحلف عسكره، وخلع على عميه: مجير الدين وتقي الدين، والركن والنميس وغيرهم،
وأعطاهم الأموال واستشارهم. فقالوا: نتوجه إلى دمشق قبل أخذ القلعة. فركب بهم من
نابلس، فلما انتهوا إلى القصير المعيني بالغور أنفق في عسكره، وجدد عليهم الإيمان وقت
صلاة المغرب. وبلغهم أن قلعة دمشق قد استولى عليها الصالح إسماعيل.
فلما كان في نصف الليل، رحلوا عنه بأجمعهم، وتركوه وليس معه إلا دون المائة من
مماليكه. وتفرق عنه بقية مماليكه وخواصه. فرجع يقصد نابلس، ومعه جاريته أم ولده
خليل: المدعوة شجر الدر. وطمع فيه حتى الغوارنة والعشران وكان مقدمهم رجل شيخ
جاهل، يقال له تبل من أهل بيسان، قد سفك الدماء وركبت الجيوش بسببه مراراً، فتبعه
بمنمعه. وقد توجه الملك الصالح على طريق جينين يريد نابلس، والغوارنة والعشران يتبعونه،
وهو يرجع إليهم ويحمل عليهم بمماليكه فيفرق جماعتهم. وأخذ بعض خيولهم، واستولوا
هم أيضاً على بعض ثقله.
ووصل إلى سبسطية. وكان الوزيري - نائب الملك الناصر داود - عاد إلى نابلس، بعد
خروج الملك الصالح منها. فأرسل إليه الملك الصالح أيوب يقول: إنه قد مضى ما مضى،

وما زال الملوك على هذه الحال. وقد جئت الآن مستجيراً بابن عمي الملك الناصر. ونزل
في الدار بنابلس. وكان الملك الناصر داود قد عاد من الديار المصرية على غير رضا.
ووصل إلى الكرك. فكتب إليه الوزيري يخبره بخبر الملك الصالح نجم الدين أيوب.
ذكر القبض على الملك الصالح نجم الدين أيوب واعتقاله بقلعة الكرك
قال: ولما وصل كتاب الوزيري إلى الملك الناصر بالكرك، ندب الأمير عماد الدين بن
موسك، والظهير بن سقر الحلبي، في ثلاثمائة فارس إلى نابلس. فركب الملك الصالح أيوب
وتلقاهم، فخدموه وقالا له: طيب قلبك، إنما جئت إلى بيتك.
فقال: لا ينظر ابن عمي إلى
ما فعلت، فما زال الملوك على هذا. وقد جئت إليه، أستجير به، فقالا له: قد أجارك، ولا
بأس عليك. وأقاموا أياماً حول الدار.
فلما كان في بعض الليالي، ضرب بوق النفير، وقيل جاء الفرنج إلى الظهر. فركب الناس
وركب مماليك الملك الصالح ووصلوا إلى سبسطية. فجاء عماد الدين والظهير والعسكر
إلى الدار التي بها الملك الصالح، ودخل الظهير عليه، وقال له: تتوجه إلى الكرك، فإن ابن
عمك له بك اجتماع. وأخذ سيفه. وكانت جاريته حاماً، فأسقطت. وأخذوه، وأركبوه
بغلة، بغير مهماز في رجله، ولا مقرعةٍ في يده - وذلك في ليلة السبت، لثمانٍ بقين من شهر
ربيع الأول - وتوجهوا به حتى وصلوا إلى الرية.
قال أبو المظفر: إن الملك الصالح أخبره، قال: إلى الرية في ثلاثة أيام، والله ما كلمت أحداً
منهم كلمة، ولا أكلت لهم طعاماً، حتى جاء خطيب الرية ومعه بردة وعليها دجاجة،
فأكلت منها - قال: وأقاموا بالرية يومين، وما علمت المقصود بي ما هو ؟ وإذا هم يريدون
أن يأخذوا طالعاً نحساً، يقتضى أن لا أخرج من الكرك. ثم أدخلوني الكرك ليلا، على
الطالع الذي كان سبب سعادتي. ووكل بي الناصر مملوكاً له فظاً غليظاً، يقال له زريق وكان
أضر علي من كل ما جرى.
قال: فأقمت عندهم إلى شهر رمضان، سبعة أشهر - يعني من سنة سبع وثلاثين.

وحكى الملك الصالح له ما ناله من الضائقة والشدة والإهانة شيئاً كثيراً.
ولما توجهوا به إلى الكرك، جهز الوزيري خزانته ونساءه، وخيله وأسبابه، إلى الصلت.
وعاد مماليك الملك الصالح فلم يجدوه، فتفرقوا وأما عسكره الذي فارقه من منزلة القصير -
فانهم توجهوا إلى دمشق. فمنعهم الصالح من الدخول إليها، وقال: هذه بلد الملك العادل
فلا تدخلوها إلا بإذنه. ثم استخدم بعد ذلك جماعةً منهم، وطرد طائفةً واعتقل طائفة.
وزينت مصر والقاهرة للقبض على الملك الصالح شهراً. وعملت والدة الملك العادل الوليمة
التي ذكرناها. وأرسلت القاضي الشريف شرف الدين موسى، والعلاء بن النابلسي، إلى
الملك الناصر، بقفص حديد، ليجعل فيه الملك الصالح، ويرسله معهما إلى الديار المصرية !
وبذلت فيه للملك الناصر مائة ألف دينار. وكاتبه الصالح إسماعيل وصاحب حمص، في
إرساله إلى دمشق. وبذل الصالح إسماعيل فيه للناصر ربع دمشق. فما أجاب الناصر إلى
ذلك.
وقيل: كان السبب في امتناع الملك الناصر من تسليمه، لمن بذل فيه ما بذل، أن الصالح
أيوب كان قد أرسل جمال الدين بن مطروح - الكاتب - إلى الخوارزمية في الحضور إليه،
لمحاصرة دمشق. فتوجه لذلك. فلما قبض على الصالح، أرسل ابن مطروح رسولاً على
النجب إلى الملك الناصر، يقول له: إن فرط في الملك الصالح أمرٌ، فاعلم أن الخوارزمية لا
يبقون لك في البلاد قعر قصبة، فقد حلفوا على ذلك.
وقيل إن والدة الملك الناصر اهتمت بأمر الملك الصالح، وخدمته أتم خدمة، وتولت ذلك
بنفسها، وكانت تطبخ له بيدها. وحلفت على ولدها أنه إن فعل به ما يكره، لا أقامت
عنده. وقالت له: ما ملكنا البلاد، وجعلنا في هذا الحصن إلا والده - تعنى: الملك
الكامل. فتوقف عن إرساله. والله أعلم.
ذكر إطلاق الملك الصالح من الاعتقال بالكرك، وما كان من أمره إلى أن ملك الديار
المصرية
قال: ولما كان في أواخر شهر رمضان، استشار الملك الناصر داود الأمير عماد الدين بن

موسك، وابن قليج، والظهير، في أمر الملك الصالح. فوقع الاتفقا على تحليفه وإخراجه.
فاجتمع الناصر والصالح وتحالفا، وأفرج عنه وذلك في أواخر شهر رمضان، سنة سبع
وثلاثين وستمائة. ولما أخرجه الناصر من اعتقاله، ركبه بالكرك بشعار السلطنة، وحمل
الغاشية بين يديه، وأظهر الناصر الخلاف على الملك العادل.
وحكى عماد الدين بن شداد - في سبب خلاص الملك الصالح - أن الملك العادل كان
قد حلف الناصر، وحلف له على الاتفاق واجتماع الكلمة على قتال الملك الصالح، وأن
تكون دمشق إذا فتحت للملك الناصر. فلما اتفق هجوم الملك الصالح إسماعيل على
دمشق، وأخذها، أرسل إليه الملك العادل يصوب رأيه، ويشكر فعله. فعظم ذلك على
الملك الناصر، وكان سبب خلاص الملك الصالح.
وحكى أبو المظفر يوسف سبط ابن الجوزي، في كتابه: مرآة الزمان أن الملك الصالح نجم
الدين أيوب أخبره - بعد أن ملك الديار المصرية - قال: حلفني الناصر على أشياء، ما
يقدر عليها ملوك الأرض، وهو أن آخذ له دمشق، وحمص، وحماه وحلب، والجزيرة
والموصل وديار بكر، وغيرها، وأن يكون له نصف الديار المصرية، ونصف ما في الخزائن:
من الأموال والجواهر الخيول والثياب وغيرها. فحلفت من تحت القهر والسيف.
وقد شاهدت أنا بعض نسخة اليمين عند المولى الملك العزيز: فخر الدين عثمان، بن الملك
المغيث فتح الدين عمر - صاحب الكرك - كان بالقاهرة - وفيها أشياء كثيرة من هذا
النوع، وإلزامات، يعلم المستحلف العاقل أن الحالف لا يفي بها، لكثرتها وخروجها عن حد
القدرة البشرية، وأن النفوس لا تسمح بها لوالد مشفق، ولا ولدٍ بار، فكيف لابن عم عدو.
قال المؤرخ: ولما أطلقه الملك الناصر، ركب الملك الصالح من يومه، وسار إلى نابلس.
فوصل إليها في يوم السبت، تاسع عشرين الشهر، وخطب له بها يوم عيد. ونثر ابن موسك
على الخطيب والناس الذهب. وخرج الركن الهيجاوي إلى الديار المصرية، فأرسل إليه
الملك العادل يأمره بالإقامة على بلبيس، إلى أن تصل إليه العساكر. ثم خرج الملك العادل

بعساكره - في خامس شوال - لقتال أخيه الصالح، فقبض الأمراء عليه - كما قدمنا.
ذكر سلطنة الملك الصالح نجم الدين أيوب بالديار المصرية وهو السلطان الثامن من ملوك
الدولة الأيوبية بالديار المصرية
قال المؤرخ: لما قبض الأمراء الذين قدمنا ذكرهم على الملك العادل، كتبوا إلى الملك الصالح
يستدعونه، فسار لوقته.
وكان وصوله - والملك الناصر داود - إلى بركة الجب، في يوم الخميس الحادي والعشرين
من ذي القعدة، سنة سبع وثلاثين وستمائة. فنزل في خيمة الملك العادل - والملك العادل
بمعتقل في خركاه. واستدعى الملك الصالح معين الدين بن شيخ الشيوخ، واستوزره، ورد
إليه النظر في الدواوين. وأقام ببركة الجب إلى يوم الأحد، لستٍ بقين من الشهر. فركب
وصعد إلى القلعة في الثالثة من النهار - وذلك باتفاق المنجمين.
واعتقل أخاه الملك العادل في بعض آدر القلعة. وبقي ابنه الملك المغيث - فتح الدين عمر
- في خدمة عمه السلطان الملك الصالح مدة، ثم رأى منه نجابةً فحجبه في الدار القطبية،
عند عمته ابنة السلطان الملك العادل، أخت الملك الكامل. فلم يزل الملك المغيث بها، إلى
أن مات عمه الملك الصالح وملك ابنه الملك المعظم، فنقله إلى الشوبك واعتقله بها. وكان
من أمره ما نذكره - إن شاء الله تعالى.
وفي الثامن والعشرين من ذي القعدة، من السنة - تقدم أمر السلطان بتجريد جماعةٍ من
الأمراء والعساكر إلى الأعمال القوصية، لإصلاح العربان بالوجه القبلي. وجعل المقدم
عليهم الأمير زين الدين بن أبي زكري.
ذكر عود الملك الناصر داود إلى الكرك
كان عوده إلى الكرك في ذي الحجة، من السنة.
وسبب ذلك أنه اجتمع هو والسلطان الملك الصالح، بقلعة الجبل على شراب، فلما جنهم
الليل وأخذ منهم الشراب، قال الملك الناصر للسلطان: أفرج عن أخيك الملك العادل في
هذه الساعة. فلاطفه الملك الصالح، وهو يكرر عليه القول وكان آخر كلام الملك الناصر أن
قال للسلطان: لو غسلت رجلي وشربت ماءهما، ما أديت حقي ! فأمر السلطان مماليكه

بإخراجه.
فأخرجوه وركبوه إلى الوزارة. فلما أصبح، سأل عما كان منه، فأخبر به. فقال: ما بقي
لنا مقام في هذه الديار. وأحضر النجب، وعمل عليها الأخراج - وفيها ما كان معه من
الأموال - وهم أن يركبها. فبينما هو يتهيأ للركوب، إذ حضر إليه الأمير: عز الدين أيدمر
الجمدار الصالحي، ومعه عشرة آلاف دينار، وعشرة أفراس وخلع، وقال له: يقول لك
السلطان: هذه ضيافة، خذها وامض إلى بلادك. فأخذها، وركب من وقته، وسلك طريق
البرية. ثم ندم السلطان على إطلاقه، وكونه ما قبض عليه ليأمن شره.
وقيل: إن السبب عوده أن الملك الصالح إسماعيل راسل الفرنج، في قصد بلاد الناصر.
فتوجهوا إلى نابلس، فقاتلهم أهلها وهزموهم، فرجعوا إلى بلادهم. فعاد بسبب ذلك. هذا
ما حكاه ابن جلب راغب، في تاريخه، في سبب عود الملك الناصر.
وحكى أبو المظفر يوسف، في مرآة الزمان، عما أخبره به الملك الصالح نجم الدين - من
لفظه - عندما حضر إليه في سنة تسع وثلاثين وستمائة، عن وقائع اتفقت له، بين خروجه
من اعتقال الملك الناصر إلى أن ملك ورجع الناصر.
منها أنه قال: والله لم أحضر الملك الناصر معي إلى الديار المصرية، إلا خشية أن يكون قد
عمل علي. ومنذ فارقنا غزة، تغير علي ولا شك أن بعض أعدائي أطمعه في الملك. فذكر
لي جماعةٌ من مماليكي أنه تحدث معهم في قتلي. قال: ومنها أنه لما أخرجني ندم، وعزم على
حبسي، فرميت روحي على ابن قليج، فقال: ما كان قصده إلا أن نتوجه إلى دمشق أولاً،
فإذا أخذناها عدنا إلى مصر.
ومنها أنه لما وصلنا إلى بلبيس، شرب وشطح إلى العادل، فخرج العادل من الخركاه وقبل
الأرض بين يديه، فقال له: كيف رأيت ما أشرت به عليك، ولم تقبل مني ؟! فقال:يا خوند،
التوبة. فقال طيب قلبك، الساعة أطلقك. قال الصالح: وجاء فدخل علينا الخيمة،
ووقف. فقلت له: باسم الله اجلس. فقال: ما أجلس حتى تطلق العادل. فقلت: اجلس
- وهو يكرر هذا القول. ثم سكت. ولو أطلقته ضربت رقابنا كلها

ثم نام وما صدقت بنومه. وقمت في بقية الليل، وأخذت العادل في محفة، ودخلت به إلى
القاهرة. قال: ولما دخلنا القاهرة، بعثت إليه بعشرين ألف دينار، فعادت لي مع مماليكي.
ومنها أنه قال في بعض الأوقات: قبل قدمي ورجلي - إلى غير ذلك، مما لا تصبر عليه
النفوس.
ذكر عدة حوادث وقعت في سنة سبع وثلاثين وستمائة - خلاف ما قدمناه
في هذه السنة - في شهر ربيع الأول - أخرج الملك الكامل من مدفنه بقلعة دمشق، إلى
تربته شمالي حائط الجامع الأموي، وفتح في الحائط ثلاث شبابيك إلى الجامع: أحدها باب
يتوصل منه إلى الجامع.
وفيها فوض السلطان الملك الصالح إسماعيل - صاحب دمشق - الخطابة بالجامع الأموي
لشيخ الإسلام: عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام - وذلك في شهر ربيع الآخر.
وفيها أمر الملك الصالح - المذكور - الخطباء بدمشق والشام، بالخبطة لصاحب الروم.
وفيها فوض الصالح - أيضاً - قضاء الشام للقاضي: رفيع الدين أبي حامد، عبد العزيز بن
عبد الواحد، بن إسماعيل بن عبد الهادي بن عبد الله الجيلي الشافعي - وكان قبل ذلك
قاضي بعلبك. وظهر منه من سوء السيرة والعسف والظلم، ومصادرات أرباب الأموال،
ما لا يصدر مثله من ظلمة الولاة. وكانت عاقبة ذلك ما نذكره - إن شاء الله تعالى - من
قتله.
وفيها، في ليلة الثلاثاء خامس عشر ذي القعدة، سقط كوكبٌ عظيم قبل طلوع الفجر
بمنزلة، وكان مستديراً على هيئةٍ ومقدار، فأضاءت منه الدنيا، وصارت الأرض أشد نوراً
من ليلة التمام. وشاهده من كان ببلبيس عابراً عليها آخذاً من المشرق إلى نحو القبلة،
وشاهده من كان بظاهر القاهرة، عابراً من جهة باب النصر إلى صوب قلعة الجبل. ثم قطع
البحر إلى ناحية الجزيرة، وكانت له ذؤابة طويلة خضراء، مبتورةٌ قدر رمحين. واعتقبه رعدٌ
شديد، وتقطع منه قطع. وأقام، من حين إدراك النظر له حين انطفائه، بقدر ما يقرأ الانسان

سورة الإخلاص ثلاثين مرة - هكذا قدره من شاهده - على ما نقل إلينا.
وفيها في شعبان - كانت وفاة قاضي القضاء، شمس الدين أحمد، ابن الخليل بن سعادة بن
جعفر بن عيسى، الخويي الشافعي، بالمدرسة العادلية، بدمشق، ودفن بقاسيون. ومولده في
سنة اثنتين وثمانين وخمسمائة. وكان - رحمه الله تعالى - حسن الأخلاق، لطيفاً كثير
الإنصاف، عالماً فاضلاً في علوم متعددة، عفيفاً متواضعاً - رحمه الله تعالى.
وكان وروده إلى دمشق، في أيام الملك المعظم شرف الدين عيسى، ابن الملك العادل سيف
الدين أبي بكر بن أيوب. وحكي أنه لما ورد إلى دمشق، كان مع فضيلته وعلومه يلعب
بالقانون، ويغني عليه، وقد أتقن صناعته. فأنهى إلى الملك المعظم أمره، فاستحضره إلى
مجلس أنسه، ولعب بين يديه بالقانون، وغنى عليه، ونادمه فأعجبه. وأمره بملازمته في
أوقات خلواته ومجالس شرابه. هذا سبب اجتماعه بالملك المعظم.
وأما سبب ولايته القضاء بدمشق، فإنه كان قد بلغ الملك المعظم عن القاضي جمال الدين
المصري - قاضي قضاة دمشق - أنه يتعاطى الشراب. فأراد تحقيق ذلك عياناً،
فاستدعاه، وهو في مجلس الشراب، فحضر إليه. فلما رآه قام إليه، وناوله هناباً مملوءاً
خمراً. فولى القاضي جمال الدين المصري ورجع، فغاب هنيهة، ثم عاد وقد خلع ثياب
القضاء: الطرحة والبقيار والفوقانية، ولبس قباءً، وتعمم بتخفيفه وحمل منديلا. ودخل
على الملك المعظم في زي الندماء. وقبل الأرض، وتناول الهناب من يده وشرب ما فيه.
ونادم المعظم فأحسن منادمته فأعجبه. واعتذر من قراره أنه ما كان يمكنه تعاطي ذلك،
وهو في زي القضاة. فاغتبط الملك المعظم به.
ولما انقضى مجلس الشراب، ورجع المعظم إلى حسه، علم أنه لا يجوز له أن يقره على ولاية
القضاء - وقد شاهد من أمره ما شاهد. ففوض القضاء للقاضي شمس الدين الخويي،
وخلع عليه. وجلس للحكم بين الناس، وأحسن السيرة. وانقطع عن مجلس الملك المعظم
وحضوره، إلا في أوقات المواكب، على عادة القضاة.

واستمر على ذلك مدة. ثم ذكره الملك المعظم واشتاق إلى منادمته، وسماع قانونه.
فاستدعاه وتحدث معه، واستوحش منه. ثم كلمه في الحضور إلى مجلس الأنس معه، في
بعض الأوقات، وأنه لا يخليه منه جملةً، وتلطف به في ذلك.
فأجابه عن ذلك، بأن قال: إذا
أمر السلطان - أعزه الله بهذا - امتثلت أمره، وفعلت. ولكن يكون هذا بعد عزلي عن
منصب القضاء والحكم بين الناس، وتولية قاضٍ غيري. فإنني لا أجمع بين منصب القضاء
وما يضاده أبداً، لما يترتب على ذلك من فساد عقود أنكحة المسلمين، ويتعلق ذلك بذمة
السلطان. فإن أحب السلطان ذلك، فليول قاضٍ غيري.
فأعجب الملك المعظم ذلك منه، وسربه، وقال: بل نرجح مصلحة المسلمين على غرضنا.
واستقر على القضاء. وما سمع عنه بعد ولائه القضاء ما يشينه في دينه ولا يغض من
منصبه - رحمه الله تعالى.
واستهلت سنة ثمان وثلاثين وستمائة:
في هذه السنة في شهر ربيع الآخر، رتب السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب دار
العدل. وجعل افتخار الدين ياقوت الجمالي نائباً عنه بها. ونصب شاهدان من العدول،
وجماعةٌ من الفقهاء، منهم: الشريف شمس الدين الأرموي نقيب الأشراف، والقاضي فخر
الدين بن السكري، والفقيه عز الدين. فصار الناس يأتون إليها، ويتظلمون وتكشف
ظلاماتهم. وإنما فعل السلطان ذلك، لأنه كان غليظ الحجاب، فاستغنى بذلك عن مواجهة
الناس.
وفيها، في رابع المحرم، حصل الشروع في بناء القنطرة على الخريج الحاكمي - وهي المعروفة
في وقتنا هذا بقنطرة السد.
وفيها في تاسع شهر ربيع الأول، رسم السلطان بتجهيز زرد خاناه وشواني وحراريق إلى
القلزم لقصد اليمن. وجرد جماعةً من الأمراء والجند بسبب ذلك، في سادس عشر الشهر.
ثم عاد العسكر في خامس شهر رمضان، بسبب حادثة الأشرفية التي نذكرها. لأنهم
بلغهم أن الأشرفية ومن شايعهم عزموا على نهب العسكر المذكور - وكان ببركة الجب.
وبطل التجريد إلى اليمن.

ثم توجه من جملة العسكر ثلاثمائة إلى مكة، في أواخر شهر رمضان. فدخلوا مكة سلماً،
في ذي القعدة، وهرب من كان بها من العسكر اليمنى.
وفي شهر ربيع الأول من السنة، قبض السلطان على الأمير عز الدين أيبك الأسمر، والخدام
الذين وافقوه على القبض على أخيه الملك العادل، وهم: جوهر النوبي، وشمس الخواص
سرور، وكافور الفايزي، وعلى جماعة من الأتراك والحلقة، ونفي جماعةً من الأتراك،
وسيرهم مخشبين في المراكب نحو الصعيد وبلاد المغرب، وأخذ أموالهم وقتل بعضهم.
وانهزم بعض الأشرفية، واختفى بعضهم. وأمر السلطان مماليكه، وأعطاهم الإقطاعات.
وفيها في يوم السبت - تاسع شهر ربيع الآخر - وقيل في خامس عشرة - ولد للسلطان
الملك الصالح ولدٌ ذكر، من سريته: شجر الدر، وسماه خليلا. ثم مات بعد مدةٍ يسيرة.
وفيها، في تاسع شهر ربيع الأول، صرف الأمير سيف الدين بن عدلان، عن ولاية الصناعة
بمصر. ووليها أسد الدين، بن الأمير شجاع الدين جلدك.
وفيها، في سابع عشرين شهر ربيع الآخر، نقل الأمير بدر الدين باخل من ولاية مصر إلى
ولاية ثغر الإسكندرية. وفيها، في سابع شهر ربيع الآخر، صرف عن شد الدواوين علم
الدين كرجي، وولي الأمير حسام الدين لؤلؤ.
وفي يوم الاثنين خامس شعبان، أمر السلطان بالشروع في عمارة قلعة البحر، التي بالروضة.
فابتدئ في حفر أساسها في هذا اليوم، وبني فيها في آخر الساعة الثالثة من يوم الجمعة،
سادس عشر الشهر. وهدمت الدور التي كانت بالجزيرة وتحول الناس إلى مصر.
ذكر مسير الملك الصالح إسماعيل، صاحب دمشق، منها لقصد الديار المصرية، وقتاله
الملك الناصر صاحب الكرك، وعوده إلى دمشق
قال المؤرخ: لما اتصل بالملك الصالح إسماعيل - صاحب دمشق - ما وقع بمصر من الفتن،
والقبض على الأمراء الأشرفية والخدام وغيرهم، عزم على قصد الديار المصرية، وأطمعته
آماله في الإستيلاء عليها. فتجهز بعساكره، ومعه الملك المنصور صاحب حمص، ونجدةٌ من
حلب، وقصد الديار المصرية.

فبلغه أن الملك الناصر صاحب الكرك على حسبان من بلد البلقاء، فقصده بمن معه.
والتقوا واقتتلوا، فانكسر صاحب الكرك. واستولى الصالح إسماعيل على أثقاله، وأسر
جماعة من أصحابه. ثم رحل ونزل على نهر العوجا، وطلب الملك الجواد - وكان عند
الفرنج - فحضر إليه. واستنصر بالفرنج، فكتب الجواد إليهم يحذرهم منه. فوقع كتابه
للصالح، فقبض عليه واعتقله - كما ذكرنا - وعاد إلى دمشق، وتفرقت العساكر التي كان
قد جمعها.
تسليم صفد وغيرها للفرنج
وما فعله الشيخ عز الدين بن عبد السلام - بسبب ذلك - وما اتفق له مع الملك الصالح
وفي هذه السنة، خاف الملك الصالح عماد الدين إسماعيل على نفسه من الملك الصالح
نجم الدين أيوب، فكاتب الفرنج واستنصر بهم، واتفق معهم على معاضدته. وأعطاهم
قلعة صفد وبلادها، وقلعة الشقيف وبلادها، ومناصفة صيدا، وطبرية وأعمالها، وجبل
عامله، وجميع بلاد الساحل. ومكنهم من دخول دمشق لابتياع السلاح.
فشق ذلك على المسلمين. واستفتى المتدينون، ممن يبيع السلاح، الشيخ عز الدين: عبد
العزيز بن عبد السلام، في مبايعة الفرنج السلاح. فأفتاهم أنه يحرم عليهم بيعه للفرنج.
وتوقف عن الدعاء للملك الصالح إسماعيل على منبر الجامع بدمشق، وجدد دعاءً يدعو به
على المنبر، بعد الخطبة الثانية قبل نزوله، وهو: اللهم أبرم لهذه الأمة أمراً رشيداً، يعز فيه
وليك ويذل فيه عدوك، ويعمل فيه بطاعتك، وينهي فيه عن معصيتك. والناس يصيحون
بالتأمين، والدعاء للمسلمين.
فكوتب الصالح إسماعيل بذلك، فورد كتابه بعزله واعتقاله.
واعتقل الشيخ أبو عمرو بن
الحاجب أيضاً، لموافقته الشيخ على الإنكار. ثم وصل الصالح بعد ذلك إلى دمشق، فأفرج
عنهما، واشترط على الشيخ عز الدين أنه لا يفتى، ويلزم بيته، ولا يجتمع بأحد. فسأله
الشيخ أن يفسح له في صلاة الجمعة، والاجتماع بطبيب أو مزين، إن دعت حاجته إليهما،

وفي دخول الحمام، فأذن له في ذلك. ثم انتزح الشيخان: عز الدين وأبو عمرو، عن دمشق
إلى الديار المصرية - على ما نذكره، إن شاء الله تعالى.
وفيها كانت الوقعة بين عسكر حلب والخوارزمية. وكان الملك الجواد والملك المنصور -
صاحب حمص - مع الخوارزمية. فقصدوا حلبا، ونزلوا على باب بزاعة في خمسة آلاف
فارس. وخرج إليهم عسكر حلب في ألف وخمسمائة، فكسروهم، وأسروا من أمرائهم
ونهبوا من أثقالهم. فتوجه الخوارزمية حيلان وقطعوا الماء عن حلب، وضايقوهم. ثم
عادوا إلى منبج، فنهبوها، وقتلوا أهلها وفضحوا النساء، ثم عادوا إلى حران. وكان الملك
المنصور إبراهيم - صاحب حمص - قد نزل على شيزر، فاستدعاه الحلبيون، فجاء إلى
حلب، ونزل بظاهرها - ومعه عسكر حمص.
وفيها سلم الملك الحافظ قلعة جعبر إلى صاحب حلب، وعوضه عنها أعزاز. وكان
سبب ذلك أنه حصل له فالج، فتوجه ولده إلى الخوارزمية يستنجدهم على أبيه، وطلب
منهم عسكرا لمحاصرته، فخشى من ذلك، فسلمها لصاحب حلب.
وفيها تسلم عسكر صاحب الروم آمد، بعد حصار شديد. ويقال إنهم اشتروها بثلاثين
ألف دينار.
وفيها، في ليلة الجمعة ثاني عشر ربيع الآخر، توفي الشيخ محيي الدين: أبو عبد الله محمد
بن علي بن محمد، المغربي الحاتمي الطائي، المعروف بابن العربي، وهو من أهل الأندلس.
ومولده في ليلة الاثنين، سابع عشر شهر رمضان، سنة ستين وخمسمائة، بمرسية من بلاد
الأندلس. ونشأ بها، وانتقل إلى إشبيلية، في سنة ثمان وتسعين. ثم رحل إلى بلاد الشرق،
ودخل بلاد الروم. وطاف البلاد وحج. وصحب الصوفية. وصنف كتبا كثيرة في علوم
القوم. وكانت وفاته بدمشق، ودفن بقاسيون.
واستهلت سنة تسع وثلاثين وستمائة:
وفي هذه السنة، حصل الشروع في عمارة المدرستين الصالحيتين، بالقاهرة المعزية، بين
القصرين - والمكان التي عمرتا فيه من جملة القصر. وكان الشروع في الهدم والإنشاء في ذي

الحجة. ولما كملتا، أوقفهما على طوائف الفقهاء: الشافعية والمالكية والحنفية والحنابلة،
وأوقف عليهم الأوقاف. ويقال انه لما فرغ من عمارتها ندم، لكونه لم يبن مكانهما جامعاً،
ويرتب فيه الدروس التي رتبها فيهما.
ذكر صرف قاضي القضاة شرف الدين ابن عين الدولة عن القضاء بمصر والوجه
القبلي، وتفويض ذلك لقاضي القضاة بدر الدين السنجاري
وفي يوم الجمعة عاشر شهر ربيع الآخر، من هذه السنة، كتب السلطان الملك الصالح إلى
قاضي القضاة شرف الدين بن عين الدولة كتاباً، من جملته: أن القاهرة المحروسة لما كانت
دار المملكة، وأمراء الدولة وأجنادها مقيمون بها، وحاكمها مختص بحضور دار العدل -
تقدمنا أن يتوفر القاضي على القاهرة وعملها، لا غير. وفوض السلطان قضاء القضاة،
بمصر والوجه القبلي، للقاضي بدر الدين أبي المحاسن: يوسف السنجاري قاضي سنجار.
ثم مرض القاضي شرف الدين المذكور، إثر ذلك، ومات في هذه السنة.
ذكر وفاة قاضي القضاة شرف الدين ابن عين الدولة، وشيء من أخباره
وفي ليلة الخميس، التاسع عشر من ذي القعدة، سنة تسع وثلاثين وستمائة - كانت وفاة
قاضي القضاة شرف الدين أبو المكارم: محمد بن عبد الله ابن الحسن بن علي، بن عين
الدولة: أبي القاسم صدقة بن حفص الصفراوي الإسكندراني.
وكان قد ولي القضاء في أيام السلطان الملك العادل: سيف الدين - جد السلطان - كما
تقدم، واستمر بعده.
ولما مات - رحمه الله - صلى عليه بمصلى بني أمية، وشهد جنازته خلقٌ كثير، ودفن
بعد صلاة الظهر بالقرافة، وأم الناس عليه ولده محيي الدين: أبو الصلاح عبد الله. ومولده
- رحمه الله تعالى - بثغر الإسكندرية في يوم السبت، مستهل جمادى الآخرة، سنة إحدى
وخمسين وخمسمائة. وكانت مدة عمره ثمانيا وثمانين سنة، وخمسة أشهر وثمانية عشر يوماً.
ومدة ولاية القضاء - استقلالاً - ستا وعشرين سنة، وتسعة أشهر، وسبعة عشر يوماً.
وناب عن القضاء قبل ذلك ثمانيا وعشرين سنة. وشهرين وأياما.

وكان رحمه الله تعالى - ذا رياسة قديمة، ووالده وجده من كبراء أهل الثغر. وجد أبيه -
القاضي الجليل - من رؤسائه. وبلغ من محله في الدولة العبيدية أن لقب بعين الدولة، ولقب
ولده بثقة الدولة، وولده ولده بعين الدولة. فسأل تخصيصاً مانعاً، لاشتباه الولد بالجد، فميز
الولد بعين الدولة ومكينها، ووالده بثقة الدولة وأمينها - بتقليد من الخلفاء العبيديين. وعمر
القاضي الجليل مائة سنة وأربع سنين. ومات عن عدة أولاد ذكور، ما منهم إلا من عدل
بالديار المصرية، وتولى الأحكام الشرعية.
وكان القاضي شرف الدين - رحمه الله تعالى - مالكي المذهب، ثم انتقل إلى مذهب
الإمام الشافعي
وسبب ذلك أنه قدم من ثغر الإسكندرية إلى مصر وسكن بها، في شهر ربيع الآخر سنة
ثلاث وسبعين وخمسمائة. واتصل بالقاضي المرتضى ابن القسطلاني، ثم اتصل بقاضي
القضاة: صدر الدين عبد الملك بن عيسى ابن درباس الهذباني، فعدله واستكتبه، في ذي
القعدة سنة ثلاث وسبعين وخمسمائة. فلما عزل ابن الجاموس من خطابة الجامع بالقاهرة،
أمره القاضي صدر الدين أن يخطب، فخطب وأجاد وأبلغ في الموعظة، ونزل فصلى وجهر
بالبسملة.
فلما فرغ من الصلاة، وجلس بين يدي القاضي صدر الدين، شكره وأثنى عليه - والمجلس
غاصٌ بالفقهاء والصدور وأرباب المناصب - فقال بعض الأكابر: يا شرف الدين جهرت
بالبسملة، وخالفت مذهبك. فأنشد قول المتنبي في كافور:
فراقٌ، ومن فارقت غير مذمم وأمٌّ، ومن يممّت خير ميمّم
فاستحسن ذلك القاضي والجماعة. وصار شافعياً من ذلك اليوم. واشتغل بمذهب
الشافعي على القاضي: ضياء الدين أبي عمرو عثمان بن درباس، مصنف الاستقصاء،
وعلى الفقيه: أبي إسحاق إبراهيم بن منصور العراقي
واستنابه القاضي صدر الدين عنه في الحكم بمصر، في يوم الاثنين والخميس، في العشر
الأوسط من ذي القعدة، سنة أربع وثمانين وخمسمائة. فحضر إليه يستعفى من ذلك. وكان
جمال الدولة: أبو طالب شراتكين - سلف القاضي صدر الدين - حاضراً، هو من

الأجناد - فأسر إليه، وقال له: لا تستعفى، فأنت، والله، بعد اثنتين وثلاثين سنة، قاضي
القضاة. فأرخها فلم تزد ولم تنقص.
ووقع للقاضي زين الدين علي بن يوسف الدمشقي، أيام ولايته. ثم عاد القاضي صدر
الدين إلى الحكم، فعاد إليه. وولي القاضي محيي الدين: أبو حامد محمد بن القاضي شرف
الدين بن أبي عصرون، فوقع له. ثم عاد صدر الدين، فعاد إليه، ولم يزل كاتبه إلى أن توفي.
وكان كثير الركون إليه، والاعتماد عليه. حتى إن شرف الدين مرض، فسأل عنه القاضي
صدر الدين، فأخبر بشدة مرضه، فقال: والله لئن قضى عليه بمحتوم، لأعزلن نفسي، لأنني
لا أجد من اثق به سواه.
ولما ولي القاضي عماد الدين: عبد الرحمن بن عبد العلي السكري القضاء، كتب له، إلى
أن عزل القاضي عماد الدين في شهر المحرم، سنة ثلاث عشرة وستمائة، فقسم السلطان
الملك العادل القضاء شطرين: فولي القاضي شرف الدين هذا القاهرة والوجه البحري، في
الشهر المذكور - وقيل في يوم السبت ثاني صفر - وولي القاضي تاج الدين بن الخراط مصر
والوجه القبلي، كما تقدم. ثم أضاف السلطان الملك الكامل إليه قضاء مصر والوجه
القبلي، في العشر الآخر من شعبان - أو في شهر رمضان - سنة سبع عشرة وستمائة،
كما تقدم ذكر ذلك
وكان السلطان الملك الكامل كثير التنويه بذكره، والافتخار بولايته، والابتهاج بما يراه من
أحكامه، وما يبلغه من سيرته، وما يتحققه من حسن طويته، وجميل سريرته، وكان إذا نظر
إليه يقول: والله لنتعبن بعد هذا، إذا فقدناه، ولا نجد بعده من يقوم مقامه
وكان إذا كتب إلى السلطان، يستأذنه في عزل نائب من نوابه بالأعمال، أو في أمرٍ يقصد
فعله، يجيبه عن كتابه بخطه على ظهر كتابه، أو بين سطوره. وكان يقترح ذلك على
السلطان، في بعض الأحيان. وكان الرسم في المكاتبات والأجوبة جارياً على غير ما هو
عليه، في عصرنا هذا.
وقد رأينا أن نثبت من مكاتبات قاضي القضاة إلى السلطان، وأجوبته له، في هذا الموضع،

ما يعلم منه كيف كان الرسم جاريا. فمن ذلك ما كتب به إلى السلطان الملك الكامل:
اللهم إني أسألك حسن الفاتحة، والخاتمة في عافية. المملوك يخدم المقام المولوي السلطاني
المالكين الكاملي - بلغه الله تعالى كل مراد وأمل، ووفقه لطاعة ربه في كل قولٍ وعمل -
وينهى: أن النائب في الحكم بإطفيح قد كثر من القول فيه ما تقتضي المصلحة الاستبدال به
وهو ابن أخت الأجل مجد الدين، أخي الفقيه الأجل عيسى - وقد كان المتظلمون، من
مدة، حضروا شاكين لأمره، وطالع المملوك مولانا بحاله، وكان مولانا في بعض متوجهاته
الميمونة. فورد الجواب، بأن مولانا ينظر في ذلك. وقد كثر القول. والمملوك يستأذن على ما
يفعله في أمره، من صرفٍ أو إبقاء.
المملوك يخدم، وينهي أن النائب في الحكم بالمحلة قد ظهر من أحواله، وتحايفه على من
يحقد عليه، ويقصد مضادته لما في نفسه - ما يقتضى كف يده وهو يستند إلى متولي الحرب
بالمحلة، ويعول على ثنائه عليه وميله إليه - على ما ذكر للمملوك. وهو يستأذن على أمره.
المملوك يسأل الإجراء - على عادة الفضل والكرم - في أنه، إن حسن التشريف عن هذين
الفضلين بالجواب، أن يكون تشريف الخط الكريم - لا زال عالياً - ليكون سبباً لستر
القضية، إلى أن يعتمد فيها ما يرسم من توقفٍ أو إمضاء والله تعالى يمن على المملوك بدوام
جميل آراء مولانا وعضده له، وتقوية يده في نيابته عن مولانا فيما فوضه إليه.
المملوك ينهى أن من اعتمد في أمره من الشهود والنواب - الأمر الذي أرشد مولانا المملوك
فيه إلى الصواب - لكلٍ منهم جهة ربما شق عليها ما جرى، وصحل منها في حق المملوك
ما يقضي بتغيير خاطر وتقسيم فكر. والله ما يبالي المملوك - بعد رضي الله تعالى - إلا
برضي مولانا بمن أحب أو أبغض، أو أعان أو تعصب.
ولو كان كلّ الناس عنى بجانب لما ضرني، إذ كنت منك بجانب
المملوك ينهي أن مولانا، لما شرف المملوك في الخدمة، كان في التقليد أنه لا يستنيب إلا من
كان على مذهب الإمام الشافعي - قدس الله روحه. ولما كان بعد ذلك، ورد مكتوبٌ من

مولانا في زمن إقامة ركابه بالمنصورة، يتضمن أن أمر الإستنابة إلى المملوك. وفي النواب اليوم
شخصان على مذهب مالك - رحمه الله تعالى. فيحيط العلوم أنه ما خالف إلا بعد ما
ورد ما ذكره. وكان ممن تقدم المملوك في الحكم من استناب الشافعية والحنفية والمالكية
بمصر نفسها، وبالأعمال. أنهى ذلك، والرأي أعلى في التشريف بالجواب - إن شاء الله رب
العالمين.
فأجابه على ظهر كتابه - بخطه - ما مثاله: اخترتك دون غيرك، لبراءة ذمتنا وذمتك.
افعل ما يخلصك عند الله، من خيرٍ معنا تفعله، ومع نفسك - إن شاء الله تعالى وختمه.
وكتب على الختم القاضي شرف الدين قاضي القضاة.
وأضاف السلطان إليه الحكم في الينبع، في بعض شهور سنة ست وعشرين وستمائة،
فاستناب فيه. ثم أضاف إليه الحكم بغزة والخليل الأردن وطبرية وبانياس، في سنة إحدى
وثلاثين، فاستناب عنه فيها نوابا. ثم تقدم إليه أن يستنيب عنه خطيبا وحاكما بثغر
دمياط، في شعبان سنة أربع وثلاثين وستمائة، فاستناب في ذلك.
وكتب إلى السلطان - قبل أن يستنيب - يستأذنه في النيابة، ويستوضح عن أمر البلاد
الشامية، فأجابه:
ورد كتاب الحضرة - أعاد الله علينا من بركاتها، ونفعنا بمتقبل دعواتها، وأسعد آراءها،
ووفق قصودها وأنحاءها، ولا زالت تصرفاتها في الشريعة أبداً ميمونة، وأحكامها بإصابة
الحق مقرونة - وفضضنا ختمها ووقفنا عليها، وأحاط علمنا بما اشتملت عليه، وما
أومأت الحضرة إليه وشكرنا اجتهادها المفوف البرود، وتحرزها في الأمور الشرعية الجليلة
العقود. وأتينا على ديانتها التي رقتها عندنا إلى المقام المحمود.
فأما إشارتها إلى أنها تستنيب في غزة وما معها، عنا أو عن نفسها، فنحن أضفنا ذلك
إليها، وهي تستنيب عن نفسها من يكون أهلاً لذلك. وأما استفهامها أن المواضع
المذكورة: هل لها جامكيات مقررة أم لا ؟ نعم لها جامكيات مقررة، والديوان شاهدٌ بها.

وأما استيضاحها: هل لهذه المواضع أصلٌ، حتى يقال: الموضع الفلاني وعمله، فيولي فيه
شخصاً واحداً، أو كل موضع، وإن قل، مفتقرٌ إلى نائبٍ مفرد - فلتعلم الحضرة أن مرادنا
أن نستنيب شخصين: أحدهما لغزة وطبرية والأردن وجبل الخليل، والآخر لبانياس
وعملها.
ثم ذكر غير ذلك في جوابه، وقال: وكتب لسبعٍ خلون من شوال سنة إحدى وثلاثين
وستمائة، بمنزلةٍ تقابل البيرة بشاطئ الفرات، من بر الشام المحروس - شفاها.
وكتب إلى السلطان أيضاً يستأذنه في صرف بعض النواب، فأجابه:
وردت مكاتبة الحضرة - أيدها الله بتوفيقه في جميع حالاتها، ولا أخلى من صالح دعواتها
في شريف أوقاتها، وأجراها من السداد والتحرز على مختار دعواتها في شريف أوقاتها،
وأجراها من السداد والتحرز على مختار عاداتها - ووقفنا عليها جميعاً، وأحاطت
علومنا بما أشارت إليه، وما نبهت فيها عليه.
فأما إشاراتها إلى صرف قاضي الفيوم والاستبدال به بخطيب البلد وصرف قاضي
قوص، وتعريضها بأنها لا يجوز لها إعادته. وعزمها على صرف قاضي إخميم، وما
عرضت به من انتمائه إلى كريم الدين الخلاطي. وإصرارها على صرف قاضي منية زفتي،
وتصريحها بأنه ذاكرٌ أنا نعرفه، وقد خلعنا عليه - فجوابنا عن جميع ذلك: أنا قلدناها هذا
الأمر العظيم، وذممناها هذا الخطب الجسيم، ونهجنا بها السلوك في طريقه المستقيم،
وفوضنا ذلك إليها، وجعلنا أزمة نقضه وإبرامه بيديها، وصيرنا ركائب آمال طالبي التولية
مناخةً لديها - نرجو بذلك براءة الذمة عند الله تعالى، وأن لا تقوم الحجة علينا ولا عليها.
فمن استصلحته ورضيته من النواب، فلتقره على حاله. ومن ظهر لها اعوجاجه
وسخطته، فلتصرفه، ولا تعرج على أساطير أقواله. فالإرهابات والتمويهات لا مدخل لها في
أمور الدين، والشرع الشريف منزهٌ عن شفاعة الشافعين.
فلتعلم الحضرة ذلك، ولتواصل
بالمتجددات، موفقةً في ذلك - إن شاء الله تعالى. سطرت لأحدى عشرة ليلةً بقيت من

ذي الحجة، سنة إحدى وثلاثين وستمائة، بظاهر السويدا - مشافهةً.
هذا كان الرسم في المكاتبات والأجوبة. وفيه دليلٌ على أن قاضي القضاة بالديار المصرية،
في ذلك الوقت، كان لا يستقل بعزل نائب من نوابه بالأعمال - وإن صغرت جهة ولايته - إلا
بعد مراجعة السلطان، واستئذانه. وما زال الأمر جارياً على ذلك، إلى أن ملك السلطان
الملك الصالح نجم الدين، فغلظ حجابه، وتعذر خطابه وجوابه، وتعاظم أن يشاور في
الجزئيات، وأن يشافه إلا في الأمور المعضلات. فاستقل حينئذٍ القضاة وغيرهم، واستبدوا
بالولايات والعزل.
ولنرجع إلى أحوال قاضي القضاة: شرف الدين، وسيرته.
وكان - رحمه الله تعالى - جواداً كريماً، زاهداً لا يدخر شيئاً: ولا يملك إلا سجادةً
خضراء من الصوف، وسجادةً من أدمٍ ومشطا وسبحه، ومقراضاً، وعوداً من أراك.
وليس له إلا بدلةٌ واحدة، فإذا تغيرت، غسلت له ليلاً. وبغلة واحدة. فإذا كان زمن
الربيع، استأجر بغلةً في كل يوم بثلاثة دراهم، ويقوم بعلفها من عنده. ما ملك عقارا، ولا
وجبت عليه زكاةٌ في عمره.
وكان مضبوط المجلس، لا يسار أحداً في مجلسه ولا يضحك فيه. وكان كثير العبادة،
يسرد الصوم، ولا يفطر إلا الأيام التي لا يجوز صومها، كثير التلاوة للقرآن، والذكر والأدعية.
وكان. لا يكلف أحدا قضاء حاجة، إلا ويعطيه فوق أجرته. حتى كان يدفع ملء إبريقٍ
ماءً حاراً في الشتاء من الحمام، عند كل صلاة، نصف درهم للحمامي، وربع درهم لحامل
ذلك إليه. وكان يدفع لباري أقلامه أجرة، من درهمين إلى ثلاثة.
وكان له شعرٌ حسن، قد وقفت منه على قصائد، يمدح بها السلطان الملك الكامل -
تركنا إيرادها إختصاراً. فمن شعره، بديهةً:

وليت القضاء، وليت القضا ء لم يك شيئاً تولّيته
وقد قادني للقضاء القضا وما كنت قدماً تمنّيته

وكان حسن النثر. وكانت علامته: الحمد لله متولي السرائر.
ويكتب تحت خط الشهود:
أقام شهادته عندي بذلك، وشخص المذكور. والله على كل شيء شهيدٌ. وأخباره -

رحمه الله تعالى - وأوصافه الحسنة كثيرة، وقد أتينا منها بما فيه الكفاية.
ولما مات قاضي القضاة شرف الدين في التاريخ المذكور، خرج الأمر السلطاني بالإذن للعقاد
والنواب عنه بالقاهرة - في يوم الأحد الثاني والعشرين من ذي القعدة من السنة -
بالإستمرار، إلى أن يقع الإختيار على قاضٍ، ولم يؤذن لنائبه: القاضي محيي الدين عثمان بن
يوسف القليوبي - بشيء - وهو الذي كان خليفة القاضي شرف الدين بن عين الدولة في
الحكم - إلى أن مات. واستمر ذلك إلى يوم الأربعاء، الخامس والعشرين من الشهر.
ففوض السلطان قضاء القاهرة والوجه البحري لقاضي القضاة: بدر الدين السنجاري -
وصرف عن الحكم بمصر والوجه القبلي. وكان قد استناب بمصر ابن عمه: القاضي
شمس الدين أحمد بن محمد بن إبراهيم ابن خلكان، وفوض إليه عقود الأنكحة وقضاء
الجيزة، واستناب شمس الدين عنه في قضاء الجيزة أخاه: بهاء الدين محمد بن محمد. فلما
ولي القاضي بدر الدين القاهرة، استناب القاضي شمس الدين - المذكور - بها. فجلس في
يوم الخميس - السادس والشعرين من ذي القعدة - بجامع الأزهر، وأمر الشهود بالانتقال إلى
حرم الجامع. ثم شرك بينه وبين القاضي محيي الدين، في النيابة بالقاهرة. وولي قضاء مصر
الشيخ عز الدين بن عبد السلام.
شيخ الإسلام عبد العزيز في مصر
وما اتفق له بعد خروجه من الشام إلى أن وصل، وتفويض القضاء بمصر والخطابة بها -
وغير ذلك - إليه، وما فعله وعزله نفسه
كان وصوله إلى الديار المصرية في سنة تسع وثلاثين وستمائة. وذلك أنه لما وقع له مع الملك الصالح إسماعيل بدمشق ما وقع، وعزله وألزمه داره - كما
تقدم - فارق دمشق، وقصد البيت المقدس.
فوافاه الملك الناصر داود صاحب الكرك بالغور، فأكرمه ونقله إلى الكرك. وقال له: تقيم
عندي بهذا الحصن وأنا لا أخرج عن أمرك. فأقام عنده مدة يسيرة. ثم استأذنه في
الخروج، فسأله عن موجب خروجه وكراهة مقامه. فقيل إنه قال له: هذا بلدٌ صغير، وأنا
أحب الانتقال إلى بلدٍ أنشر به ما عندي من العلم.

فأذن له، وتوجه الشيخ إلى القدس، وأقام به. فجاء الملك الصالح إسماعيل بعساكره إلى
القدس - وصحبته الفرنج - فأرسل إلى الشيخ بعض خواصه بمنديله، وقال له: ادفع إليه
منديلي وتلطف به واستنزله، وعده بعوده إلى مناصبه. فإن أجاب، فائتني به. وإن
خاشنك فاعتقله في خيمةٍ إلى جانبي خيمتي.
فأتاه الرسول ولاطفه، ثم قال له: بينك وبين أن تعود إلى مناصبك، وتعود إلى ما كنت
عليه وزيادة، أن تقبل يد السلطان. فقال له: والله ما أراضه أن يقبل يدي، فضلاً أن أقبل
يده !! فقال: إنه قد رسم أن أعتقلك إذا لم توافق. فقال افعلوا ما بدالكم ! فاعتقله في
خيمةٍ إلى جانب خيمة السلطان.
وكان يقرأ القرآن والسلطان يسمعه. فقال يوماً لملوك الفرنج: تسمعون هذا الذي يقرأ ؟
قالوا نعم: قال هذا أكبر قسوس المسلمين، وقد حبسته لإنكاره على تسليمي لكم حصون
المسلمين، وعزلته من الخطابة بدمشق وعن مناصبه، ثم أخرجته عن دمشق فجاء إلى
القدس. وقد جددت اعتقاله لأجلكم. فقالوا له: لو كان هذا قسيسنا، لغسلنا رجليه،
وشربنا مرقتها ! ثم فارق الصالح القدس.
وقدم الشيخ إلى الديار المصرية. فأقبل عليه السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب،
وأكرمه، وفوض إليه الخطابة والإمامة بجامع عمرو بن العاص بمصر، في يوم الجمعة العاشر
من شهر ربيع الآخر، سنة تسع وثلاثين وستمائة، عوضاً عن أبي المجد الإخميمي - وكان
أبو المجد قد ولي الخطابة بعد وفاة أبي طاهر المحلى، وكان ينوب عنه في حال حياته.
وخطب الشيخ عز الدين في هذا اليوم. وأذن الأذان الثاني على الدكة يومئذ، مؤذنٌ واحد
- خلاف العادة.
ثم فوض إليه القضاء بمصر والوجه القبلي - في يوخم الثلاثاء التاسع من ذي الحجة، من
السنة - بعد انتقال قاضي القضاة بدر الدين السنجاري منها إلى القاهرة والوجه البحري.
وشغرت مصر عن حاكم، فيما بين نقل القاضي بدر الدين وتولية الشيخ، أربعة عشر يوماً
ووليها الشيخ، أربعة عشر يوماً ووليها الشيخ مضافةً إلى الخطابة.

وجلس في هذا اليوم، وحكم بين الناس. واستناب الشيخ عنه، في الحكم، القاضي صدر
الدين موهوب: قاضي جزيرة ابن عمر. وفي يوم جلوس الشيخ للحكم، أسقط عدلين من
العدول المتقدمة.
وسبب ذلك أنه وجد مسطوراً، فيه شهادتهما، وهو غير مؤرخ، وفي خط كل منهما: كتبه
فلان في تاريخه. وسأل أحدهما عن فرائض الصلاة، فلم يجبه جوابا مرضياً. ثم أسقط،
بعد ذلك بأيام، القاضي فخر الدين بن قاضي القضاة عماد الدين بن السكري - مدرس
منازل العز - لأنه وجد شرط الواقف بالمدرسة أن يكون المدرس بها عارفا بالأصولين،
وهو عارٍ عن معرفتهما. فأسقطه لذلك.
وأسقط أيضاً جماعةً من عدول القاضي شرف الدين بن عين الدولة. ثم أسقط ولده
محيي الدين أبا لاصلاح. وطلبه فخرج مستخفيا إلى ثغر الإسكندرية. واستند في إسقاط
كلٍ منهم إلى موجب ظاهر. ثم عزل نفسه. فتلطف السلطان في إعادته، فعاد.
ثم أسقط الصاحب معين الدين بن شيخ الشيوخ: وزير السلطان الملك الصالح ونائبه،
ومقدم جيوشه. وعزل نفسه عن القضاء ثانياً.
وسبب ذلك: أن الصاحب معين الدين كان قد بني فراشخاناه على ظهر مسجد، بجوار
داره. وكان السلطان قد فوض إلى الشيخ أيضاً النظر في عمارة المساجد، بمصر والقاهرة.
فأرسل إليه يأمره بهدم ما استجده على ظهر المسجد وإزالته، وإعادة المسجد إلى ما كان
عليه. فلم يجب إلى ذلك. ثم عاوده فلم يفعل.
فلما طال ذلك على الشيخ، أمر الفقهاء طلبته أن يأتوه في غدٍ - ومع كل واحد منهم معول
- ففعلوا ذلك. فلما رآهم العوام اجتمع منهم خلقٌ كثير بالمساحي. وركب الشيخ إلى دار
الصاحب معين الدين، وهو في خدمة السلطان، وأمر بإخراج ما في ذلك المكان، فأخرج، ثم
أمر بهدمه فهدم.
فتألم الصاحب معين الدين لذلك، ولم يمكنه أن يحدث فيه شيئاً.
فلما كان بعد مدة يسيرة،
جلس الشيخ بجامع مصر لتعديل من شهد بعدالته، منهم: فخر الدين محمد بن الصاحب

هباء الدين علي بن محمد. واجتمع لذلك جمعٌ كثير من العلماء والفقهاء والأكابر والقراء -
وكانت العادة كذلك في إنشاء العدالة. فاتصل الخبر بالصاحب معين الدين، فأمر والي مصر
أن يدخل إلى المجلس، ويفرق ذلك الجمع، ويقول للشيخ عز الدين: يقول لك الصاحب: بلد
السلطان لا يجتمع فيه الجموع. ففعل الوالي ذلك.
فصرخ الشيخ في المجلس بإسقاط عدالة الصاحب معين الدين ! ثم عزل نفسه عقيب
ذلك. وكثر اللغط، وارتفعت الأصوات. ولما اتصل خبر هذا الإسقاط بالسلطان، منع
الصاحب معين الدين من الدخول إليه ثلاثة أيام، حتى لفق صيغةً شهدت أن الشيخ إنما
أسقطه بعد أن عزل نفسه، وأن إسقاطه لم يصادف محلاً، وأنه باقٍ على عدالته.
وأثّر هذا الإسقاط في الصاحب معين الدين أثراً مولما. وهو أنه حكى أن السلطان أرسل
رسولاً إلى الديوان العزيز ببغداد، وكان المشافه للرسول عن السلطان الصاحب معين الدين.
فلما أبلغ الرسالة قال له الوزير: أيوب شافهك بهذه الرسالة ؟ قال: لا، إنما شافهني بها عنه
الصاحب معين الدين. فقال له الوزير: معين الدين أسقط الشيخ عز الدين عدالته، فلا يرجع
إلى مشافهته.
ولما عزل الشيخ نفسه، أراده السلطان على العود إلى القضاء، فامتنع من ذلك. ففوض
السلطان الملك الصالح القضاء بعده، بمصر والوجه القبلي، إلى نائبه: القاضي صدر الدين
ابي منصور موهوب، بن عمر بن موهوب، بن إبراهيم، الجزري الشافعي - وذلك في سنة
أربعين وستمائة. فأعاد بعض من أسقطهم الشيخ عز الدين إلى العدالة. ولم تطل ولايته، فإنه
استمر في القضاء نحو سنة. وعزل، ولم يل القضاء بعدها.
وفي سنة تسع وثلاثين وستمائة - أيضاً - توجه السلطان الملك المنصور - صاحب حمص
- وعسكر حلب، إلى حران، والتقوا مع الخوارزميه، ومزقوهم كل ممزق، فكسروا
الخوارزمية.
واستهلت سنة أربعين وستمائة:
في هذه السنة، عزم السلطان الملك الصالح نجم الدين على التوجه إلى الشام، فبلغه أن
العساكر مختلفة، والبلاد مختلة، فأقام.

وفيها كانت وقعةٌ عظيمة بين عسكر حلب والخوارزمية. وكان الملك المظفر شهاب الدين
غازي - صاحب ميافارقين - مع الخوارزمية، وكانوا قد حلفوا له وحلف لهم. وأخربوا
بلاد الموصل وماردين، فاضطر صاحب ماردين إلى موافقتهم. وجمع غازي الخانات
الخوارزميه، وأشار عليهم بقصد بلاد الموصل فقالوا: لا بد من لقاء العسكر الحلبي، فألجأته
الضرورة إلى موافقتهم.
وركبوا في ثامن عشرين المحرم، من جبل ماردين إلى الخابور، وساقوا إلى المجدل. ووقف
الخانات ميمنةً وميسرة، ووقف الملك المظفر غازي في القلب، والتقوا. فصدمهم العسكر
الحلبي صدمة رجل واحد.
فانهزموا لا يلوون على شيء، ومعهم الحلبيون يقتلون ويأسرون. وأخذوا أثقال غازي
وأغنام التركمان، وخيلهم ونساءهم، وكانوا خلقاً كثيراً. فبيع الفرس بخمسة دراهم، ورأس
الغنم بدرهم. ونهبت نصيبين، وسبي نساؤها - وكانت قد نهبت مراراً في سنة تسع
وثلاثين - يقال نهبت سبع شعرة مرة، من المواصلة والخوارزمية وعسكر ميافارقين وماردين
- وعاد الملك المظفر غازي إلى ميافارقين.
وتفرقت الخوارزمية، ثم اجتمعوا على نصيبين. ثم رحلوا فنزلوا رأس عين، فقتلوا أهلها،
ونهبوا الأموال وسبوا النساء. وفعلوا بالخابور كذلك، ونهبوا أغنام التركمان.
وفيها وصل إلى الملك المظفر - شهاب الدين غازي - منشورٌ بخلاط وأعمالها، مع شمس
الدين النائب بالروم، فتسلمها وما فيها.
وفيها توفيت ضيفة خاتون، ابنة الملك العادل: سيف الدين أبي بكر ابن أيوب.
وهي والدة الملك العزيز: بن الملك الظاهر صاحب حلب - والد الملك الناصر. وكانت
هي التي دبرت الدولة، وحفظ الملك بسببها على ابنها وابنه، بعد وفاة الملك الظاهر. ولما
توفيت، قام بتدبير الدولة الحلبية الأمير الأتابك: شمس الدين لؤلؤ، أتابك الملك الناصر
صاحب حلب.
ذكر الإتفاق والاختلاف بين الملكين الصالحين: نجم الدين أيوب صاحب مصر، وعماد
الدين إسماعيل صاحب دمشق

في هذه السنة ترددت الرسل بين الملكين الصالحين: نجم الدين أيوب صاحب الديار المصرية،
وعمه عماد الدين إسماعيل صاحب الشام، وتوجه شرف الدين بن التيني والأصيل
الإسعردي الخطيب، إلى دمشق. فأطلق الملك الصالح إسماعيل الملك المغيث جلال الدين
- ولد السلطان الملك الصالح نجم الدين - من الاعتقال. وركب وخطب لابن أخيه الملك
الصالح أيوب بدمشق. ورضي الملك الصالح أيوب بإقرار دمشق بيد عمه الصالح إسماعيل،
بعد أن يسلم إليه ولده.
وحصل الاتفاق على ذلك، ولم يبق إلا أن يتوجه الملك المغيث إلى أبيه. فصرف أمين
الدولة السامري - وزير الملك الصالح إسماعيل - رأيه عن ذلك وقال: هذا خاتم سليمان،
لا تخرجه من يدك بعدم الملك. فتوقف، ولم ينتظم الحال.
وقطع خطبة ابن أخيه، وأعاد
الملك المغيث إلى الاعتقال بالبرج، واستمر به إلى أن مات.
وكان وفاته يوم الجمعة ثاني
عشر شهر ربيع الآخر، سنة اثنتين وأربعين وستمائة. وحمل إلى تربة جده الملك الكامل
فدفن بها. وكان عاقلاً، ما حفظت عنه كلمة فحش - رحمه الله تعالى.
ولما رجع الصالح إسماعيل عن الصلح، كتب الملك الصالح أيوب إلى الخوارزميه في الحضور
إلى الشام. فعبروا إلى الفرات وانقسموا قسمين: قسم جاءوا على البقاع البعلبكي، وقسم
على غوطة دمشق. ونهبوا وسبوا وقتلوا. وسد الصالح إسماعيل أبواب دمشق. وتوجه
الخوارزميه إلى غزة. وكان من خبرهم ما نذكره - إن شاء الله تعالى.
وفيها عزل قاضي القضاة: صدر الدين موهوب الجزري عن القضاء بمصر والوجه القبلي،
وفوض السلطان الملك الصالح ذلك إلى القاضي: أفضل الدين أبي عبد الله، محمد بن
نامادر، بن عبد الملك، بن زنجلين، الخونجي، وكانت ولايته في يوم عيد النحر من هذه
السنة. واستمر في القضاء إلى أن مات.
وفيها في يوم الجمعة بعد الصلاة، ثاني العيد الأضحى، أمر الملك الصالح إسماعيل بالقبض
على أعوان القاضي رفيع الدين الجيلي - وكانوا ظلمة آذوا الناس. وكان كبيرهم الموفق

حسين بن عمر بن عبد الجبار - المعروف بابن الواسطي. ثم قبض على القاضي الرفيع
بعد أيام. وأمر بمصادرتهم فصودروا، وعوقبوا وعذبوا بأنواع العذاب - وكانوا لذلك أهلا.
ثم قتل الرفيع في سنة اثنتين وأربعين وستمائة، ببعلبك: جهزه أمين الدولة السامري إليها،
فقتل هناك.
وكان القاضي الرفيع هذا قد صادر أهل دمشق، وفعل ما لا يفعله ظلمة الولاة. وكتب إلى
السلطان يقول: إنني قد حملت إلى خزانتك ألف ألف دينار، من أموال الناس. فقال
السامري: ولا ألف ألف درهم. وكان السامري قد تمكن من الملك الصالح تمكناً عظيماً،
لا يخالفه في شيء ألبته. فقال الملك الصالح: أنا أحاققه، فإنه قد أكل الأموال، وأقام علينا
الشناعة، والمصلحة تقتضي عزله ومؤاخذته، ليعلم الناس أنك لم تأمره بأذاهم. فعزله عن
القضاء. ثم تسبب في قتله.
ولما عزل، فوض القضاء بعده لقاضي القضاة محيي الدين يحيى، بن قاضي القضاه محيي
الدين محمد، بن علي بن يحيى، القرشي. وقريء تقليده بالجامع بدمشق، في خامس
عشرين ذي الحجة. وحكم بإسقاط عدالة أصحاب الرفيع، وهم: المعز بن القطان، والزين
الحموي، والجمال بن سيده، والموفق الواسطي، وسالم المقدسي، وابنه محمد - لما فعلوه
بالمسلمين من أنواع الأذى، وقطع المصانعات.
واستهلت سنة اثنتين وستمائة:
ذكر الواقعة الكائنة بين عسكر مصر - ومن معه من الخوارزمية - وبين عسكر الشام
- ومن شايعهم من الفرنج، وانهزام الفرنج وعسكر الشام، على غزه
قد ذكرنا وصول الخوارزمية إلى الشام، ونزولهم على غزه.
ولما استقروا بها، أرسل إليهم السلطان الملك الصالح النفقات والخلع والكساوى، وطائفةً
من العسكر المصري. فاتفق الملك الصالح إسماعيل صاحب دمشق، والملك المنصور
صاحب حمص، والملك الناصر داود صاحب الكرك، وراسلوا الفرنج. وكان الصالح
إسماعيل قد سلم إليهم من الحصون ما تقدم ذكره. ووعدهم الآن أنه متى ملك الديار

المصرية، أعطاهم الأعمال الساحلية بأسرها. واستقر ذلك بينهم وبين الملوك الثلاثة
المذكورين.
وخرج الملك المنصور - صاحب حمص - بعسكره وعساكر دمشق. وأقام الصالح
بدمشق. وجهز الملك الناصر داود عسكره من نابلس - صحبة الظهير سنقر الحلبي
والوزيري، وأقام هو بالكرك. واجتمعت هذه العساكر، وعساكر الفرنج: الديوية والإسبتار
والكنود، على يافا. والعسكر المصري والخوارزمية على غزه.
قال أبو المظفر: وساق صاحب حمص وعسكر دمشق، تحت أغلام الفرنج - وعلى
رؤوسهم الصلبان، والأقساء في الأطلاب يصلبون على المسلمين ويقسسون عليهم، وبأيديهم
كؤوس الخمر والهنابات يسقونهم. وساق العسكر المصري والخوارزمية. والتقوا بمكانٍ يقال
له أربيا - بين غزة وعسقلان.
وكان الفرنج في الميمنة، وعسكر الناصر داود في الميسرة، وصاحب حمص في القلب.
وكان يوماً عظيماً، لم يجر في الإسلام بالشام مثله، واقتتلوا. فانكسرت الميسرة، وهرب
الوزيري، وأسر الظهير سنقر الحلبي وجرح في عينه. ثم انهزم صاحب حمص. وكان
العسكر المصري قد انهزم، ووصل إلى قرب العريش. وثبت الخوارزمية والفرنج، واقتتلوا،
فمالت الخوارزمية عليهم بالسيوف، يقتلونهم كيف شاؤوا.
قال أبو المظفر: وكنت يوم ذاك بالقدس، فتوجهت في اليوم الثاني من الكسرة إلى غزة،
فوجدت الناس يعدون القتلى بالقصب، فقالوا: إنهم يزيدون على ثلاثين ألفا.
وبعث الخوارزمية بالأسارى والرؤوس إلى الديار المصرية. وفي جملة الأسرى الظهير سنقر
وجماعةٌ من المسلمين. وكان يوم وصولهم إلى القاهرة يوماً مشهودا. وعلقت رؤوس القتلى
على الأسوار، وامتلأت الحبوس بالأسرى. ووصل صاحب حمص إلى دمشق في نفر يسير،
ونهبت خزانته وخيله وسلاحه، وقتل أكثر أصحابه. فكان يقول: والله لقد علمت، حيث
سقنا تحت أعلام الفرنج - أننا لا نفلح !
وفي هذه السنة، توفي شيخ الشيوخ: تاج الدين أبو محمد عبد الله بن عمر بن علي بن

محمد بن حمويه، بن محمد بن محمد بن أبي نصر بن أحمد، بن حمويه بن علي. وكانت وفاته
بدمشق، في سادس صفر. وصلى عليه بجامعها، ودفن بمقابر الصوفية. ومولده يوم الأحد،
رابع عشر شوال، سنة اثنتين وسبعين وخمسمائة.
وهو عم الأمراء: فخر الدين، وعماد الدين، ومعين الدين، وكمال الدين: أولاد صدر اليدين
شيخ الشيوخ. وكان شيخاً حسناً متواضعاً، عالماً فاضلاً، نزهاً عفيفاً أديباً، صحيح
الاعتقاد، شريف النفس علي الهمة، قليل الطمع، لا يلتفت إلى أحدٍ من أبناء الدنيا، لا إلى
أهله ولا إلى غيرهم، بسبب دنياهم. وصنف التاريخ وغيره - رحمه الله تعالى.
وفيها توفي الأمير عمر: بن الملك المظفر شهاب الدين غازي، بن الملك العادل سيف الدين
أبي بكر بن أيوب. وكان يلقب: بالملك السعيد. وكان شاباً حسن الأخلاق، جميل
الصورة، جواداً شجاعاً.
وكان التتار قد استولوا على ديار بكر، وأخذوا خلاط. فخرج الملك المظفر غازي من
ميافارقين، ليستنجد عليهم الخليفة والملوك. وخرج معه ولده عمر هذا، وأمير حسن بن
تاج الملوك أخي غازي. فوصلوا إلى الهرماس، لوداع الملك المظفر: فقال المظفر لولده عمر:
المصلحة تقتضي أن ترجع إلى ميافارقين، وتحفظ المسلمين من التتار، وأنا أتوجه إلى بغداد
وإلى مصر أستنجد الملوك.
فقال: والله لا أفارقك. وجاء حسن بن تاج الملوك وجلس إلى جنبه، وأخرج سكيناً
وضرب عمر في خاصرته. وهرب ليرمي نفسه في ماء العين فيغرق. فصاح الملك المظفر:
امسكوه، فقد قتل عمر ولدي ! وقام غازي ليقتله، فقصد حسن الملك المظفر ليقتله.
فرمى عمر نفسه على أبيه، وقال لحسن: يا عدو الله، قتلتني وتقتل والدي ! فضربه حسن
بالسيف، فقطع خاصرته فسقط إلى الأرض. وأمر غازي بحسن فقط قطعا، وحمل عمر
إلى الحصن فدفن به - رحمه الله.
ذكر وفاة الملك المظفر تقي الدين محمود صاحب حماه وملك ولده المنصور
وفي هذه السنة، في يوم السبت ثامن جمادى الأولى، توفي الملك المظفر تقي الدين محمود، بن

الملك المنصور ناصر الدين أبو المعالي محمد، بن الملك المظفر تقي الدين عمر، بن الأمير نور
الدولة شاهنشاه بن أيوب - صاحب حماه.
ومولده في يوم الثلاثاء منتصف شهر رمضان، سنة تسع وتسعين وخمسمائة. وملك حماه
في سنة ست وعشرين وستمائة، كما تقدم. ولما مات ملك بعده ولده الملك المنصور: ناصر
الدين محمد.
وفيها كانت وفاة السلطان نور الدين أرسلان شاه، بن عماد الدين زنكي، بن نور الدين
أرسلان شاه، بن عز الدين مسعود، بن قطب الدين مودود بن عماد الدين زنكي، بن قسيم
الدولة: آقسنقر. كان والده - رحمه الله تعالى - لما ملك شهرزور، وحضرته الوفاة - أخذ
العهود على الأمراء والأجناد والأعيان، فاستقر بها. وقاتل التتار مرارا عديدة. ثم مات -
رحمه الله تعالى. وكانت وفاته في يوم الأحد، رابع عشر شعبان.
وفيها في يوم الأربعاء، العشرين من ذي القعدة، كانت وفاة الشيخ شهاب الدين أبو طالب:
محمد بن أبي الحسن بن علي، بن علي بن الفضل ابن التامغاز، المعروف بابن الخيمي. كان
إماماً في اللغة، راويةً للشعر والأدب. وكان مولده في الثامن والعشرين من شوال، سنة تسع
وأربعين وخمسمائة، بالحلة المزيدية. وله نظم حسن: رحمه الله تعالى.
واستهلت سنة ثلاث وأربعين وستمائة:
ذكر استيلاء الملك الصالح نجم الدين أيوب على دمشق، وأخذها من عمه الملك
الصالح إسماعيل. وعود الصالح إسماعيل على بعلبك وما معها
لما اتفقت الوقعة - التي ذكرناها - بين عساكر السلطان الملك الصالح نجم الدين ومن انضم
إليها من الخوارزمية، وبين عسكر الملك الصالح إسماعيل والفرنج وحصلت المكاشفة -
جهز الملك الصالح نجم الدين جيشاً كثيفاً إلى دمشق، في سنة اثنتين وأربعين وستمائة،
وقدم عليه الصاحب معين الدين بن شيخ الشيوخ. وأقامه مقام نفسه، وأمره أن يجلس في
رأس السماط على عادة الملوك، ويقف الطواشي شهاب الدين رشيد - أستاد الدار - في
خدمته، وأمير جاندار، والحجاب.

فسار إلى دمشق، ومعه الخوارزمية، فحاصروها أشد حصار.
فلما كان في يوم الإثنين
ثامن المحرم - سنة ثلاث وأربعين، بعث الملك الصالح إسماعيل
إلى الأمير الصاحب - معين
الدين بن الشيخ - سجادةً وإبريقاً وعكازاً، وقال: اشتغالك بهذا
أولى من اشتغالك بقتال
الملوك! فبعث إليه الصاحب معين الدين جنكاً وزمراً، وغلالة
حرير أصفر وأحمر، وقال:
أما ما أرسلت به إلي فهو يصلح لي، وقد أرسلت بما يصلح لك !
ثم أصبح معين الدين وركب في العسكر، وزحفوا على دمشق
من كل ناحية، ورميت
بالمجانيق. وكان يوماً عظيماً.
وبعث الملك الصالح إسماعيل الزراقين، في يوم الثلاثاء تاسع
الشهر، فأحرقوا الجوسق
العادلين ومنه إلى زقاق الرمان والعقيبة بأسرها. ونهبت أموال
الناس. وفعل فيها كما فعل
عند حصار الملك الكامل دمشق، وأشد منه. واستمر الحال على
ذلك. ثم خرج الملك
المنصور صاحب حمص في شهر ربيع الأول إلى الخوارزمية،
واجتمع ببركة خان وعاد إلى
دمشق. وجرت وقائع في خلال هذا الحصار.
ثم أرسل السامري وزير الملك الصالح إلى الأمير معين الدين،
يطلب منه شيئاً من ملبوسه.
فأرسل إليه فرجية وعمامة وقميصاً ومنديلاً، فلبس ذلك وخرج
إليه بعد العشاء الآخر،
وتحدث معه وعاد إلى دمشق.
ثم خرج إليه مرة أخرى، فوقع الاتفاق على تسليم دمشق - على
أن يكون للملك الصالح
إسماعيل ما كان له أولاً، وهو بعلبك وأعمالها وبصرى وبلادها،
والسواد. وأن يكون
للملك المنصور حمص وبلادها، وتدمر والرحبة.
فأجاب الأمير معين الدين إلى ذلك، وتسلم دمشق. ودخلها في
يوم الإثنين - العاشر من
جمادى الأولى، سنة ثلاث وأربعين وستمائة. وتوجه الملك
الصالح إلى بعلبك. وصاحب
حمص إلى بلده.
ونزل الأمير الصاحب معين الدين - بدار أسامة، والطواشي
شهاب الدين رشيد بالقلعة.
وولي الأمير معين الدين بن الشيخ الجمال هارون المدينة.
وعزل قاضي القضاة محيي الدين،
وفوض القضاء لقاضي القضاة: صدر الدين بن سني الدولة.
ووصل الأمير سيف الدين بن

قليج من عجلون، منفصلاً من خدمة الملك الناصر داود، وأوصى بعجلون وما له بها من
الأموال للملك الصالح، ونزل بدمشق بدار فلوس.
وجهز الأمير - معين الدين بن الشيخ - الأمير ناصر الدين بن يغمور إلى الديار المصرية -
وكان الملك الصالح إسماعيل قد اعتقله بقلعة دمشق، في سنة إحدى وأربعين وستمائة،
لموافقته الملك الجواد، فاستمر في الاعتقال إلى الآن - فجهزه، وجهز أيضاً أمين الدولة
السامري إلى الديار المصرية، تحت الاحتياط. فاعتقلا مدة، ثم شنقهما الملك الصالح نجم
الدين على قلعة الجبل.
وكان أمين الدولة يطب في ابتداء أمره. ثم تمكن من الملك الصالح إسماعيل، ووزر له.
وارتفع محله عنده، بحيث إنه ما كان يخرج عن إشارته. وكان يتستر بالإسلام ولا يتمسك
بدين. وقيل إنه مات في سنة ثمان وأربعين وستمائة.
قال أبو المظفر: وظهر له من الأموال والجواهر واليواقيت، والتحف والذخائر ما لا يوجد في
خزائن الخلفاء والسلاطين. وأقاموا ينقلونه مدة. قال: وبلغني أن قيمة ما ظهر له ثلاثة آلاف
ألف دينار - غير الودائع التي كانت له عند ثقاته والتجار. ووجد له عشرة آلاف مجلد، من
الكتب النفيسة والخطوط المنسوبة.
وأما الخوارزمية فإنهم ما عملوا بالصلح إلا بعد وقوعه. فرحلوا إلى داريا، فنهبوها. وقيل
إن معين الدين منعهم من الدخول إلى دمشق، وأقطعهم أكثر بلاد الشام والسواحل
بمناشيره. ودبر الأمر أحسن تدبير.
قال: ولما بلغ السلطان خروج عمه الملك الصالح إلى بعلبك، كتب بالإنكار على الطواشي
شهاب الدين رشيد والأمراء، لكونهم مكنوه من المسير إلى بعلبك. وقال إن الأمير معين
الدين حلف، وأنتم ما حلفتم. فلم يفد إنكاره شيئاً، بل أثر ما نذكره - إن شاء الله تعالى.
ذكر وفاة الأمير الصاحب معين الدين
وفي ليلة الأحد - ثاني عشر شهر رمضان، من السنة - كانت وفاة الأمير الصاحب معين
الدين الحسين، بن شيخ الشيوخ صدر الدين محمد، ابن عمر بن حمويه - بدمشق، وهو
يومئذ نائب السلطنة بها.

ومات وله ست وخمسون سنة. ودفن إلى جانب أخيه عماد الدين. وكان جواداً كريماً
ديناً صالحاً - رحمه الله تعالى. ولما مات، كتب السلطان إلى الطواشي شهاب الدين رشيد
أن يتولى نيابة السلطنة، بدمشق.
ذكر محاصرة الملك الصالح إسماعيل صاحب بعلبك دمشق، وما حصل بها من الغلاء
بسبب الحصار
قال المؤرخ: لما بلغ الملك الصالح عماد الدين - صاحب بعلبك - إنكار الملك الصالح نجم
الدين أيوب - ابن أخيه - على الأمراء، لكونهم مكنوه من التوجه إلى بعلبك - خاف
على نفسه، وعلم سوء رأي السلطان فيه، وأنه متى ظفر به لا يبقى عليه، فكاتب الأمير
عز الدين أيبك المعظمي صاحب صرخد وأكابر الخوارزمية، واتفقوا ونازلوا دمشق، في
ثالث عشرين ذي القعدة، من السنة. وحاصروها، ونهبوا بلادها وغاثوا فيها، وقطعوا
الميرة عنها.
فغلت الأسعار، وعدمت الأقوات. وبلغ سعر القمح - عن كل غرارة - ألف درهم
وثمانمائة درهم ناصرية. فمات أكثر أهل البلد جوعاً واستمر ذلك مدة ثلاثة شهور.
وفي هذه السنة، وصل رسول الخليفة المستعصم بالله - وهو الشيخ جمال الدين عبد
الرحمن، بن الشيخ محيي الدين يوسف بن الجوزي - إلى السلطان الصالح نجم الدين أيوب،
بالخلع والتقليد.
وكانت خلعة السلطان عمامة سوداء، وفرجية مذهبة، وثوبين مذهبة، وسيفين محلاة،
وقلمين، وطوق ذهب، وحصان بسرج ولجام وعدة خلع لأصحاب السلطان. وقرأ الشيخ
جمال الدين - رسول الخليفة - التقليد على منبر والسلطان قائم على قدميه، وقد لبس
خلعة الخليفة، حتى انتهت قراءة التقليد.
وكان من جملة الخلع الواصلة من الخليفة خلعة سوداء للوزير معين الدين - وكان قد توفي
- فرسم السلطان أن يلبسها أخاه الأمير فخر الدين بن الشيخ، فلبسها - وكان السلطان
قد أفرج عنه من الاعتقال في هذه السنة، بعد أن لاقى شدائد كثيرة - وكان له في الاعتقال
ثلاث سنين

وفي هذه السنة، بعث الملك الصالح نجم الدين الأمير حسام الدين بن بهرام إلى حصن
كيفا، لإحضار ولده الملك المعظم تورانشاه إلى الديار المصرية.
وكتب إليه: الولد يقدم خيرة
الله، ويصل إلى بالس، ويعدى عندها، فقد اتفقنا مع الحلبيين، وذكروا أنهم يجردون ألف
فارس في خدمتك. واعبر ببلد ماردين ليلاً، فما نحن متفقين.
فلما قرأ الكتاب كره ذلك،
وما كان يؤثر الخروج من الحصن. وقال لابن بهرام: يكون الإنسان مالك رأسه يصبح مملوكاً
محكوماً عليه! ولم يجبه.
ولما اتصل خبر طلبه بالملك الرحيم بدر الدين لؤلؤ - صاحب الموصل أرسل إليه المماليك
والخيل والخيام. وكذلك فعل شهاب الدين غازي. قال أبو المظفر: حكى لي الأمير حسام
الدين بن أبي علي أن الملك الصالح كان يكره مجيء ابنه المعظم إليه. وكنا إذا قلنا له:
أحضره، ينفض يديه ويغضب، ويقول: أجيبه أقتله ؟! وكأن القضاء موكلٌ بالمنطق !
وفيها وصلت الكرجية بنت إيواني ملك الكرج. وهي التي كانت زوجة الملك الأوحد بن
الملك العادل، وتزوجها بعده أخوه الملك الأشرف موسى. ثم أخذها جلال الدين خوارزم
شاه، عندما استولى على خلاط. فوصلت الآن إلى خلاط، ومعها فرمان القان - ملك
التتار - بخلاط وأعمالها.
فراسلت الملك المظفر شهاب الدين غازي بن الملك العادل تقول: أنا كنت زوجة أخيك،
والقان قد أقطعني خلاط، فإن تزوجت بي فالبلاد لك. فما أجابها إلى ذلك. فأقامت
بخلاط. وكانت غارات عساكرها تصل إلى ميافارقين.
وفي هذه السنة، توفي فلك الدين المسيري، وزير العادل وابنه الكامل. وكانت وفاته في يوم
الجمعة تاسع شهر رجب. وكان عالي المنزلة في الدولة الأيوبية.
وفيها توفيت ربيعة خاتون بنت أيوب، أخت الملك الناصر والملك العادل، وأخت ست
الشام. وكانت وفاتها بدمشق بدار العقيقي - وقد قاربت ثمانين سنة.
وكانت زوجة سعد الدين مسعود، بن معين الدين أتسز، ثم مات عنها. فزوجها الملك

الناصر - أخوها - من مظفر الدين بن زين الدين - صاحب إربل - فأقامت بإربل. ثم
قدمت دمشق فأقامت بها، وخدمتها أمة اللطيف العالمة - بنت الناصح بن الحنبلي -
وحصل لها من جهتها الأموال الكثيرة.
فلما ماتت ربيعة خاتون، لقيت أمه اللطيف شدائد كثيرة، وصودرت وطولبت بالأموال،
واعتقلت بقلعة دمشق ثلاث سنين. ثم أطلقت من الحبس وتزوجت بالملك الأشرف -
ابن صاحب حمص - وتوجه بها إلى الرحبة. فتوفيت في سن ثلاث وخمسين وستمائة.
وظهر لها من الأموال والذخائر ما قيمته ستمائة ألف درهم - غير الأملاك والأوقاف.
وفيها كانت وفاة الشيخ الإمام: تقي الدين أبو عمرو عثمان، بن عبد الرحمن بن عثمان، بن
الصلاح - المحدث المفتي المشهور. وكانت وفاته بدمشق في ليلة الأربعاء، الخامس
والعشرين من شهر ربيع الآخر. ومولده في سنة سبع وسبعين وخمسمائة، بشهرزور.
وفيها في ثاني عشر المحرم، توفي بالقاهرة الأمير شجاع الدين بن أبي زكري. كان من أعيان
الأمراء.
وفيها توفي القاضي الأشرف: بهاء الدين أبو العباس أحمد، بن القاضي الفاضل: محيي
الدين عبد الرحيم البيساني، في سابع جمادى الآخرة بمصر. ومولده في المحرم سنة ثلاث
وسبعين وخمسمائة. وكان الملك الكامل قد عرض عليه الوزارة فأباها، وتوفر على
الترسلية إلى الديوان العزيز، والمشورة. وكان صالحاً نزهاً عفيفاً، سمع الحديث وأسمعه.
وفيها كانت وفاة الشيخ الإمام، المقريء المفتي: علم الدين أبي الحسن علي بن محمد بن
عبد الصمد، المصري السخاوي. قرأ القرآن على الشاطبي، وشرح قصيدته. وكانت وفاته
بدمشق، في ليلة الأحد ثامن عشر جمادى الآخرة، ودفن بقاسيون. سمع الحافظ السلفي
وأبا القاسم البوصيري، وغيرها.
واستهلت سنة أربع وأربعين وستمائة:
وقعة الخوارزمية
وقتل مقدمهم واستيلاء الملك الصالح على بعلبك وأعمالها، وصرخد

وفي سنة أربع وأربعين، كانت الوقعة بين الخوارزمية - ومن انضم إليهم - وبين العساكر
الحلبية والشامية والحمصية.
وذلك أن السلطان الملك الصالح نجم الدين كان قد استمال الملك المنصور - صاحب
حمص - إليه. فوافقه ومال إليه، وانحرف عن الملك الصالح إسماعيل. ثم كتب إلى
الحلبيين يقول: إن هؤلاء الخوارزمية قد كثر فسادهم، وأخربوا البلاد، والمصلحة أن نتفق
عليهم، فأجابوه.
وخرج الأتابك شمس الدين لؤلؤ بالعساكر الحلبية. وجمع صاحب حمص أصحابه، ومن
إنضم إليه من العربان والتركمان. وخرج إليهم عسكر دمشق. واجتمعت هذه العساكر
كلها على حمص.
واتفق الملك الصالح إسماعيل والخوارزمية، والملك الناصر داود صاحب الكرك، وعز
الدين أبيك المعظمي صاحب صرخد، واجتمعوا على مرج الصفر ولم ينزل الملك الناصر
من الكرك، بل سير عسكره وأقام.
وبلغهم أن صاحب حمص يريد قصدهم. فقال بركة خان: إن دمشق لا تفوتنا، المصلحة
أن نتوجه إلى هذا الجيش ونبدأ بهم. فساروا والتقوا على بحرة حمص، في يوم الجمعة -
سابع أو ثامن المحرم - من هذه السنة. وكانت الدائرة على الخوارزمية. وقتل مقدمهم بركة
خان في المعركة. وهرب الملك الصالح إسماعيل، وعز الدين أيبك المعظمي، ومن سلم من
العسكر، كلٌ منهم على فرس ونهبت أموالهم. ووصلوا إلى حوران.
وتوجه صاحب حمص والعسكر الحلبي إلى بعلبك، واستولى على الربض، وسلمه للأمير
ناصر الدين القيمري، وجمال الدين هارون. وعاد إلى حمص، وودع الحلبيين. وتوجهوا إلى
حلب. وجاء الملك المنصور إلى دمشق، خدمة للملك الصالح، فنزل ببستان أسامة.
ومضت طائفة من الخوارزمية إلى البلقاء، فنزل إليهم الملك الناصر صاحب الكرك
وصاهرهم واستخدمهم، وأسكن عيالهم بالصلت. وفعل الأمير عز الدين المعظمي كذلك.
وساروا فنزلوا نابلس، واستولوا عليها. وعاثوا في الساحل.

فندب السلطان الملك الصالح نجم الدين الأمير فخر الدين بن الشيخ بالعساكر إلى الشام.
فلما وصل إلى غزة، عاد من كان بنابلس من الخوارزمية إلى الصلت. فتوجه إليهم، وقاتلهم
على حسبان وكسرهم، وبدد شملهم. وكان الملك الناصر معهم، فسار إلى الكرك وتحصن
بها. وتبعه الخوارزمية، فلم يمكنهم من دخول الكرك. وأحرق ابن الشيخ الصلت. وكان
الأمير عز الدين أيبك المعظمي مع الناصر، فعاد إلى صرخد وتحيز بها.
وكانت كسرة الخوارزمية هذه في سابع عشر شهر ربيع الآخر.
ونزل الأمير فخر الدين بن الشيخ على الكرك، في الوادي.
وكتب إلى الملك الناصر يطلب
من عنده من الخوارزمية.
وكان عنده صبي مستحسن من الخوارزمية، إسمه طاش بورك بزخان، فطلبه ابن الشيخ،
فقال الناصر: هذا طيب الصوت، وقد أخذته ليقرأ عندي القرآن.
فكتب إليه ابن الشيخ
كتاباً غليظاً، وذكره غدره بأيمانه وخبثه، وقال: لا بد من الصبي، وأنا أبعث إليك عوضك
أعمى يقرأ أطيب منه. فبعثه إليه. وتسلم أعيان الخوارزمية.
ورحل عن الكرك.
وأحسن الأمير فخر الدين إلى الخورازمية وخلع عليهم.
واستصحبهم معه.
ذكر استيلاء جيش السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب على بعلبك، وخروج الملك
الصالح إسماعيل عنها
وفي هذه السنة - أيضاً - توجه الأمير حسام الدين بن أبي علي من دمشق إلى بعلبك،
وتسلم قلعتها - باتفاق من السامانى، مملوك الملك الصالح إسماعيل، وكان حاكماً عليها.
وبعث أولاد الصالح إسماعيل وعياله إلى مصر وتسلم نواب الملك الصالح نجم الدين بصرى
- وكان بها الشهاب غازي والياً، فأعطى حرستا القنطرة وفيها، في شهر ربيع الآخر، توجه الملك الصالح إسماعيل في طائفة من الخوارزمية، هاربين
إلى حلب. ولم يبق للصالح إسماعيل بالشام مكانٌ يأوى إليه.
فتلقاهم الملك الناصر يوسف
- صاحب حلب - وأنزل الصالح إسماعيل في دار جمال الدولة الخادم. وقبض على
كشلوخان والخوارزمية، وملأ بهم الحبوس.

ذكر وفاة الملك المنصور صاحب حمص، وقيام ولده الملك الأشرف
وفي هذه السنة - في العاشر من صفر - وقيل في يوم الأحد حادي عشرة - كانت وفاة
الملك المنصور إبراهيم، بن الملك المجاهد أسد الدين شيركوه، بن ناصر الدين محمد بن
شيركوه بن شادي، ببستان الملك الأشرف بالنيرب، بظاهر دمشق
وكانت مدة ملكه حمص ست سنين، وسبعة أشهر. وكان شجاعاً مقداماً. وملك بعده
ولده الملك الأشرف: مظفر الدين موسى.
وفيها بعث السلطان الملك الصالح نجم الدين الصاحب جمال الدين يحيى بن مطروح إلى
دمشق، وزيراً. وأنعم عليه بإقطاع، وعدة سبعين فارساً، فوصل إلى دمشق وباشر ما
رسم له به. ثم كان من أمه وعوده ما نذكره - إن شاء الله تعالى.
ذكر توجه السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب إلى الشام، وما استولى عليه في هذه
السفرة، وما قرره، وعوده
في هذه السنة، توجه السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب من الديار المصرية إلى الشام.
فوصل إلى دمشق في تاسع عشر ذي القعدة، وأحسن إلى أهلها وفرح الناس به وزينت
البلد لمقدمه، وكان يوماً مشهوداً. وأقام خمسة عشر يوماً وتوجه إلى بعلبك وكشفها
ثم رجع، وتوجه نحو صرخد. وسعى الأمير ناصر الدين القيمري والصاحب جمال الدين
بن مطروح، في الصلح بين السلطان والأمير عز الدين أيبك المعظمي صاحب صرخد.
وتوجه السلطان من دمشق إلى بصرى. ونزل إليه الأمير عز الدين أيبك. وتسلم صرخد،
وصعد إليها - وذلك في ذي الحجة منها. وقدم عز الدين أيبك إلى دمشق، ونزل بالنيرب
وكتب له منشور بقرقيسيا والمجدل وضياعٍ في الخابور، فلم يحصل له منها شيء. ثم كان
من خبره ما نذكره - إن شاء الله تعالى - في سنة خمس وأربعين وستمائة.
ولما تسلم الملك الصالح صرخد، عاد إلى الديار المصرية ودخل إلى القدس. وتصدق فيه
بألفي دينار عيناً. وأمر بعمارة سور القدس فذرع، فكان ستة آلاف ذراع بالهاشمي، فرسم

أن يصرف مغل بلاد القدس عليه، وإن احتاج إلى زيادة جهزت من الديار المصرية. قال أبو
المظفر: وكنت لما أطلقه الملك الناصر من اعتقاله، وجاء إلى القدس، أخذت يده على
ذلك.
وفي هذه السنة، تسلم السلطان - أيضاً - حصن الصبيبة من الملك السعيد: مجد الدين
حسن، بن الملك العزيز، بن الملك العادل سيف الدين أبي بكر، في سابع عشرين ذي
الحجة. وتسلم الصلت من ابن عمه الملك الناصر داود.
وفيها قبض الملك الناصر داود على عماد الدين، بن الأمير عز الدين بن موسك في الكرك،
واحتاط على موجوده. ثم شفع فيه الأمير فخر الدين بن الشيخ فأفرج عنه. وخرج من
الاعتقال، وفي حلقه خراج كبير فبط، وحشى من الدواء الحارق، فمات بالكرك. ودفن
بمشهد جعفر الطيار. وكان - رحمه الله تعالى - من الأجواد.
وفيها توفي الأمير ركن الدين الهيجاوي، في معتقله بالديار المصرية.
وكان سبب اعتقاله أنه فارق خدمة السلطان الملك الصالح، والتحق بدمشق. وكان
قدومه على العساكر، فقبض عليه، واعتقله. فمات في اعتقاله - رحمه الله تعالى. وكان
خيراً جواداً، عفيفاً نزهاً، كثير الإحسان إلى جيرانه، يبر غنيهم وفقيرهم.
واستهلت سنة خمس وأربعين وستمائة:
في هذه السنة، جهز السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب جيشاً، وقدم عليه الأمير فخر
الدين بن الشيخ، وبعثه إلى بلاد الفرنج.
ففتح عسقلان - في ثامن عشرين جمادى الآخرة - وأخربها. ورحل عنها إلى طبرية،
ففعل بها كذلك. ثم كتب إليه أن يتوجه إلى دمشق، ويقيم بها بمن معه من العساكر، لأمر
بلغه عن الملك الناصر - صاحب حلب.
وفيها تسلم نواب السلطان الملك الصالح نجم الدين قلعة شميمس، من الملك الأشرف
صاحب حمص. فأمر السلطان بتحصينها، وبعث إليها الخزائن.
وفيها جهز السلطان تاج الدين بن مهاجر، والمبارز نسيبه، إلى دمشق، ومعهما تذكرة فيها
أسماء جماعة من الدماشقة، رسم بانتقالهم إلى الديار المصرية، وهم: القاضي محيي الدين

بن الزكي، وابن الحصيري، وابن العماد الكاتب، وبنو صصري الأربعة، وشرف الدين بن
العميد، وابن الخطيب العقرباني، والتاج الإسكندراني - الملقب بالشحرور، وأبو الشامات،
مملوك الملك الصالح إسماعيل، وغازي - وإلى بصرى - والحكيمي، وابن الهادي
المحتسب.
فتوجهوا إلى الديار المصرية، وأمروا بالمقام بها، ولم يحجر عليهم، وخلع على بعضهم.
وأقاموا بالديار المصرية، إلى أن توفي الملك الصالح أيوب، فعادوا إلى دمشق. وكان سبب
طلبهم أن السلطان بلغه أنهم خواص الملك الصالح إسماعيل.
وفيها في شهر ربيع، فوضت الخطابة بدمشق للقاضي عماد الدين بن الحرستاني، ورسم
بإخراج العماد خطيب بيت الآبار، الخطيب بالجامع، إلى بيت الآبار.
وفاة الأمير عز الدين أيبك
وفي هذه السنة - في ثالث عشر ذي القعدة - اعتقل الأمير عز الدين أيبك المعظمى
صاحب صرخد - كان - في دار فرخشاه. وذلك بترتيب الصاحب جمال الدين بن
مطروح وغيره. ووضعوا مترجماً أنه جاءه من حلب، من جهة الملك الصالح إسماعيل.
وكتبوا بذلك إلى السلطان الملك الصالح. فأمر أن يحمل إلى القاهرة تحت الاحتياط. فحمل
واعتقل في دار صواب. ورافعه ولده إبراهيم، وقال للسلطان: إن أموال أبي قد بعث بها
إلى الحلبيين وأنه لما خرج من صرخد كانت أمواله في ثمانين خرجا، أودعها عند ابن
الجوزي.
ولما وصل إلى الديار المصرية مرض، ولم يسمع منه كلمة حتى مات. ودفن بمقابر باب
النصر، ثم نقل إلى دمشق، ودفن بتربته. وكان خيراً ديناً، كثير الصدقة والإحسان إلى
خلق الله تعالى. اشتراه الملك المعظم، في سنة سبع وستمائة، لما كان على الطور، وجعله
أستاد داره، وأعطاه صرخد. وكان عنده في منزلة الولد. رحمهم الله تعالى.
وطلب جماعةٌ اتهموا بأمواله، بسعاية ولده إبراهيم، وهم: البرهان كاتبه، وابن الموصلي
صاحب ديوانه، والبدر الخادم، وسرور، وغيرهم، وحملوا إلى الديار المصرية. فمات

البرهان بظاهر دمشق، عند مسجد النارنج، لما ناله من الفزع. وأما بقيتهم فإنهم عوقبوا
على أمواله، فلم يظهر عندهم الدرهم الواحد.
وفيها كانت وفاة الشيخ الصالح المحقق على الحريري، المقيم بقرية بشر، المجاورة لزرع من
بلاد حوران. وبهذه القرية قبر اليسع - عليه السلام. وهذا الشيخ هو شيخ طائفة
الحريرية.
واستهلت سنة ست وأربعين وستمائة:
في هذه السنة، استولى الملك الناصر - صاحب حلب - حمص، وانتزعها من الملك
الأشرف موسى صاحبها، وعوضه عنها تل باشر.
ذكر توجه السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب من الديار المصرية إلى دمشق، وما
اعتمده
في هذه السنة، توجه السلطان من الديار المصرية إلى دمشق، وعزل الطواشي شهاب الدين
رشيد الدين عن النيابة، والصاحب جمال الدين بن مطروح عن الوزارة. وفوض نيابة
السلطنة بدمشق إلى الأمير جمال الدين موسى بن يغمور.
وجهز العساكر مع الأمير فخر الدين بن الشيخ إلى حمص. وسخر الفلاحين لحمل المجانيق
إلى حمص، فنالهم لذلك مشقةٌ عظيمة، وكان يغرم على العود الذي يساوي درهما ألف
درهم، فخرب الشام لذلك. ونصب المجانيق على حمص. وكان الشيخ نجم الدين البادرائي
بالشام، فدخل بين الطائفتين، ورد الحلبيين إلى حلب، والعسكر الصالحي إلى دمشق.
وفيها احترق المشهد الحسيني بالقاهرة. وذكر من تتبع التواريخ أنه ما احترق مكان شريف
إلا وأعقبه غلاء، أو جلاءٌ من العدو. وكان كذلك: أخذت دمياط، على ما نذكره.
ذكر وفاة الملك المظفر شهاب الدين غازي وقيام ولده الملك الكامل
في هذه السنة، توفي الملك المظفر شهاب الدين غازي، بن الملك العادل سيف الدين أبي
بكر محمد بن أيوب - صاحب ميافارقين. وقام بأمر مملكته. بعده ولده الملك الكامل،
ناصرا لدين محمد.
وفيها، توفي الملك العادل: سيف الدين أبو بكر، بن الملك الكامل، بن الملك العادل - أخو
السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب.

وكان السلطان قد رسم أن يتوجه إلى الشوبك، بنسائه وولده وعياله، في خامس شوال،
على ما حكاه سعد الدين مسعود بن شيخ الشيوخ تاج الدين.
وبعث إليه الطواشي محسن
الخادم، فأخبره بما رسم به السلطان من توجهه. فامتنع، وقال: إن أراد قتلي في الشوبك
فههنا أولى، ولا أتوجه أبداً. فعذله محسن الخادم، فرماه بدواةٍ كانت عنده.
فعاد إلى السلطان وأخبره. فقال له: دبر أمره. فأخذ ثلاثة مماليك - وقيل أربعة -
ودخلوا عليه، في ليلة الأثنين ثاني عشر شوال، فخنقوه بشاش علمه - وقيل بوتر - وعلقوه
بعمامته، وأظهروا أنه شنق نفسه. وخرجت جنازته كجنازة الغرباء، ودفن بتربة شمس
الدولة. ولم يتمتع الملك الصالح بعده بالدنيا، فإنه مات بعد ذلك بعشرة أشهر.
وفيها، في خامس شهر رمضان، كانت وفاة قاضي القضاة: أفضل الدين أبو عبد الله محمد
بن ناماد بن عبد الملك، ابن زنجلين، الخونجي - قاضي مصر والوجه القبلي. ودفن
بالقرافة، بالقرب من تربة الإمام الشافعي. ومولده في جمادى الأولى، سنة تسعين
وخمسمائة. وكان قد تفرد في زمانه بعلم المنطق، حكيماً أصولياً، فاضلاً، مشاركاً فيما
عدا ذلك
ولما مات - رحمه الله تعالى - أقر نائبه - القاضي جمال الدين يحيى - على القضاء، إلى
جمادى الأولى سنة سبع وأربعين ثم فوض القضاء بمصر والوجه القبلي للقاضي عماد الدين
أبي القاسم إبراهيم، بن هبة الله بن إسماعيل ابن نبهان، بن محمد الحموي المعروف بابن
المقنشع - في جمادى الأولى سنة سبع وأربعين.
وفيها كانت وفاة الشيخ الإمام العلامة: جمال الدين أبو عمرو عثمان، ابن عمر بن أبي بكر
بن يونس، الدويني ثم المصري، الفقيه المالكي - المعروف بابن الحاجب.
كان والده حاجب الأمير عز الدين موسك الصلاحي - متولي الأعمال القوصية - ومولده
بإسنا - مدينة مشهورة من عمل قوص - في سنة سبعين وخمسمائة. وانتقل إلى القاهرة في
صغره، فقرأ القرآن، واشتغل بالعلم على مذهب الإمام مالك، فتفقه. واشتغل بالعربية، فبرع

وأكب على الاشتغال حتى صار يشار إليه. وانتقل إلى دمشق، ودرس بجامعها. وكان من
أحد الناس ذهنا. وغلب عليه علم العربية. وقيل أنه قدم إلى دمشق مراراً، آخرها سنة
سبع عشرة وستمائة. وصحب شيخ الإسلام عز الدين بن عبد السلام، واختص به
ولازمه.
وخرج معه من دمشق، في سنة ثمان وثلاثين وستمائة، وقدم إلى الديار المصرية. وأقام
بالقاهرة واشتغل الناس عليه. وله مصنفٌ في مذهب الإمام مالك - هو من أجود
مختصرات المالكية، ما حفظه طالب منهم إلا وأشير إليه بالفقه. ثم انتقل إلى ثغر
الإسكندرية للإقامة به، فلم تطل مدة إقامته بالثغر. وكانت وفاته في ضحى يوم الخميس،
سادس عشر شوال، ودفن بخارج باب البحر - رحمه الله تعالى.
وفيها، في شهر رمضان، توفي الوزير: أبو الحسن علي بن يوسف بن إبراهيم، بن عبد
الواحد بن موسى بن أحمد بن محمد إسحاق، القفطي - المعروف بالقاضي الأكرم ، وزير
حلب.
كان جم الفضائل ذا فنون، مشاركاً لأرباب كل علم في علومهم: من القراءات، والحديث
والفقه، والنحو واللغة، والأصول والمنطق، والنجوم والهندسة، والتاريخ، والجرح والتعديل -
يتكلم في كل علم مع أربابه أحسن كلام. وله شعر حسن.
وصنف كتباً كثيرة، منها: كتاب الضاد والظاء، وهو ما اشتبه في اللفظ واختلف في
الخط، وكتاب الدر الثمين في أخبار المتيمين. وكتاب من ألوت الأيام عليه فرفعته، ثم ألوت
عليه فوضعته. وكتاب أخبار المصنفين، وما صنفوه. وكتاب أخبار النحويين. وكتاب
تاريخ مصر، من ابتدائها إلى حين ملكها الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب - في
ست مجلدات. وكتاب تاريخ الألموت، ومن تولاها. وكتاب تاريخ اليمن، منذ اختطت إلى
زمانه. وكتاب الحلي والشيآت. وكتاب الإصلاح لما وقع من الخلل في كتاب الصحاح.
وكتاب الكلام على الموطأ وكتاب الكلام على صحيح البخاري.
وكتاب تاريخ محمود بن
سبكتكين وبنيه، إلى حين انقراض دولتهم، وكتاب تاريخ السلجقية، من ابتداء أمرهم إلى

انتهائه. وكتاب الإيناس في أخبار آل مرداس. وكتاب الرد على النصارى. وغير ذلك.
وكان - رحمه الله - سخي الكف، طلق الوجه. وكان محبا للكتب، جماعاً لها، جمع
منها ما لم يجمعه أحدٌ من أمثاله. واشتهر بالرغبة فيها، والمغالاة في أثمانها، فقصده الناس
بها من الآفاق. فاجتمع له منها ألوف كثيرة، بالخطوط المنسوبة، وخطوط المشايخ
والمصنفين. ولم يقع له كتابٌ مليح فرده، بل يبالغ في إرضاء صاحبه بالثمن. فإذا ملكه
استوعب قراءته، ثم جعله في خزائنه، ثم يشح في إخراجه، فلا يكاد يظهر عليه أحدا،
صيانةً له وضناً به !.
قال الحافظ محب الدين بن النجار: كنا عنده ليلة، في شهر رمضان، فجرى بحثٌ أفضى
إلى اعتبار كلمة وكشفها من كتاب الصحاح. فقال لبعض مماليكه: إذهب إلى المؤيد - يعني
أخاه - وأحضر من عنده نسخة من الصحاح. قال: فقلت له: والمولي ما عنده نسخةٌ من
الصحاح؟! فقال: وحياتك - يا محب - عندي خمس نسخ، وما يطيب على قلبي أن
أخرج منها نسخة - لا سيما بالليل، ونحتاج إلى إدخال الضوء. وله في شغفه بالكتب
حكايات كثيرة، أضربنا عن ذكرها. وأوصى بكتبه بعد وفاته للملك الناصر: صلاح الدين
يوسف، بن الملك العزيز، صاحب حلب. وكانت تساوي خمسين ألف دينار. ودفن بحلب
- رحمه الله تعالى.
وفيها توفي عماد الدين، بن سديد الدين، محمد بن سليم بن حنا - وهو أخو الصاحب
بهاء الدين.
واستهلت سنة سبع وأربعين وستمائة:
والسلطان الملك الصالح نجم الدين بدمشق، وهو مريضٌ. فعاد إلى الديار المصرية في محفة،
لشدة ما ناله من المرض. وكان خروجه من دمشق في يوم الإثنين، رابع المحرم، ونادى في
الناس: من كان له علينا أو عندنا شيء، فليحضر لقبضه. فطلع الناس إلى القلعة، وأخذوا
ما كان لهم.
وفي هذه السنة؛ رسم السلطان لنائبه بدمشق - الأمير جمال الدين بن يغمور - بهدم دار

أسامة، وقطع أشجار بستان القصر بالقابون، وهدم القصر.
فتوقف عن ذلك مدة، ثم
ترادفت عليه الكتب بذلك، ففعل.
ذكر استيلاء الفرنج على ثغر دمياط
وفي سنة سبع وأربعين وستمائة، وصل ريد افرنس بعساكره
وجموعه إلى ثغر دمياط.
وخرج السلطان الملك الصالح بعساكره إلى المنصورة، ونزل
بها. وجرد إلى ثغر دمياط
جماعةً من الأمراء، فالتقوا مع ريدا فرنس، واقتتلوا قتالاً شديداً
فقتل الأمير شهاب الدين بن
شيخ الإسلام، والأمير صارم الدين أزبك الوزيري.
وخرج أمراء الكنانية من دمياط وأخلوها، فاستولى عليها ريدا
فرنس في يوم الأحد، لسبع
بقين من صفر، من السنة. فشنق السلطان أمراء الكنانية -
وكانوا نيفاً وخمسين أميراً -
بعد أن استفتى في شنقهم - لخروجهم عن الثغر بغير أمره.
وكان قد جعل عندهم من
الميرة ما يكفيهم زمناً طويلاً.

ذكر استيلاء السلطان على قلعة الكرك وبلادها
وفي هذه السنة، ملك الملك الصالح نجم الدين أيوب قلعة
الكرك، وبلادها.
وسبب ذلك أن صاحبها الملك الناصر داود بن الملك المعظم
شرف الدين عيسى -
توجه منها إلى بغداد، واستخلف أولاده بها. فكاتبوا السلطان،
واتفقوا معه على
تسليمها. واشترطوا عليه شروطاً، وتولى ذلك من أولاده:
الملك الأمجد أبو علي الحسن.
فأجاب السلطان إلى ما التمسوه، وتسلم القلعة، ووفي لهم بما
اشترطوه - وذلك في جمادى
الآخرة. وأخرج عيال الملك المعظم وأولاده وبناته، وأم الملك
الناصر، وجميع من كان
بالحصن. وبعث الملك الصالح إلى الحصن ألف ألف دينار - عيناً -
وجواهر وذخائر
وأسلحة، وغير ذلك.
ولما عاد الملك الناصر من بغداد، ووجد الأمر على ذلك، توجه
إلى الملك الناصر صلاح
الدين يوسف، صاحب حلب، وأقام عنده، إلى أن ملك دمشق.
وحضر في خدمته إليها.
ثم بلغه عنه أسباب ردية، فأخرجه إلى البويضا بظاهر مدينة
دمشق. فمات بها حتف
أنفه.

وكانت وفاته في سنة خمس وخمسين وخمسمائة. ونقل من البويضا، وصلى عليه عند باب
النصر، ودفن عند أبيه بالتربة المعظمية، بقاسيون - رحمه الله تعالى.
ذكر وفاة الملك السلطان الصالح نجم الدين أيوب
كانت وفاته - رحمه الله تعالى - بمنزلة المنصورة، في ليلة الإثنين النصف من شعبان، سنة
سبع وأربعين وستمائة. ومولده بالقاهرة المعزية في سنة ثلاث وستمائة.
ولما مات، كتم أمر وفاته، ودفن بالمنصورة. ثم نقل - في سنة ثمان وأربعين وستمائة - إلى
تربته، التي بنيت بعد وفاته، بجوار مدرسته بالقاهرة المحروسة، بين القصرين. فكانت مدة
سلطنته بالديار المصرية عشر سنين، إلا خمسين يوماً.
وكان ملكاً مهيباً، شجاعاً حازماً، ذا سطوة. وكانت البلاد في أيامه آمنة، والطرق
سابلة. وكان عفيف الذيل. غير أنه كان عظيم الكبر، غليظ الحجاب. وكان محباً لجمع
المال. ويقال إنه عاقب امرأة أبيه - أم أخيه الملك العادل - وأخذ منها الأموال والجواهر.
وقتل أخاه وجماعة من الأمراء. ومات في حبسه ما يزيد على خمسة آلاف.
ولما مات، كانت سريته - والدة خليل - في صحبته بالمنصورة. فكتم أمر وفاته إلا عن
خواص الأمراء. وكان السماط يمد على العادة. والأمراء، ومن جرت عادته بحضور
السماط، يدخلون ويأكلون وينصرفون. ويظنون أن السلطان إنما احتجابه بسبب مرضه.
وكانت والدة خليل تكتب خطاً يشبه خط السلطان، فتخرج العلائم بخطها.
واتفق الأمراء على إحضار ولده: الملك المعظم غياث الدين تورانشاه من حصن كيفا.
وكان السلطان الملك الصالح قد كتب كتاباً بخطه، يشتمل على وصيته لولده الملك المعظم،
نذكر - إن شاء الله تعالى - مضمونه في أخبار الملك المعظم.
فتوجه لإحضاره الأمير
فارس الدين أقطاي الصالحي - مملوك والده. وقام بتدبير الدولة - فيما بين وفاة السلطان
الملك الصالح ووصول الملك المعظم - الأمير فخر الدين: يوسف بن الشيخ، إلى أن قتل.
ذكر خبر الأمير فخر الدين أبي الفضل يوسف ابن الشيخ، وقتله

لما مات السلطان الملك الصالح، قام بتدبير الأمر بعده - إلى أن يصل ولده الملك المعظم -
الأمير فخر الدين أبو بكر أبو الفضل: يوسف، بن شيخ الشيوخ صدر الدين. وكان هو وزير
السلطان ومقدم جيوشه، والمشار إليه في دولته.
فدبر الأمر أحسن تدبير، وأقطع البلاد بمناشيره. وأطلق السكر والكتان أن يسافر به
التجار إلى الشام - وكان ذلك قد منع، وأراد جماعةٌ من العسكر أن يملكوه، فامتنع من
ذلك.
وتنكر له بعض الأمراء المماليك الصالحية، وعزموا على قتله فاستدعى أكابر الأمراء،
وأعلمهم أنه لا طمع له في الملك ولا رغبة، وأنه إنما يحفظه للملك المعظم إلى أن يصل.
فاعتذروا له وحلفوا. وكان المتهم بإغراء الأمراء الطواشي محسن، وجماعة. وجهز جماعةً
يستحث الملك المعظم من دمشق، بعد وصوله إليها.
فلما كان في يوم الثلاثاء - رابع ذي القعدة أو خامسه - هجم الفرنج على عساكر
المسلمين، واندفع المسلمون بين أيديهم. وكانت وقعة عظيمة.
فركب فخر الدين في وقت السحر ليكشف الخبر، وأنفذ إلى الأمراء والحلقة ليركبوا.
وساق بنفسه في طائفة من مماليكه وأجناده. فصدمه طلب الداوية وحملوا عليه. فهرب
من كان معه، وثبت هو. فطعن في جنبه، فوقع عن فرسه. فضربوه ضربتين في وجهه،
طولاً وعرضاً، بالسيف فقتلوه !.
وجاء مماليكه إلى داره، فكسروا صناديقه، ونهبوا أكثر ما فيها. ونهبت أمواله وخيله.
وأخذ الجولاني قدور حمامه، والدمياطي أبواب داره. ثم أخرج من المعركة بقميص واحد،
وجعل في حراقة وأرسل إلى مصر. وحمل إلى تربته بالقرافة الصغرى، بجوار تربة الإمام
الشافعين فدفن عند والدته. واشتد بكاء الناس عليه، وعملت له الأعزية. وكان له من
العمر، يوم مات ست وستون سنة - رحمه الله تعالى. وكان له شعرٌ جيد كثير، فمن
شعره:

عصيت هوى نفسي صغيراً، فعندما رمتني الليالي بالمشيب وبالكبر
أطعت الهوى - عكس القضيّة - ليتني خلقت كبيرا، وانتقلت إلى الصّغر

الملك المعظم غياث الدين تورانشاه
بن السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب، ابن السلطان الملك
الكامل ناصر الدين محمد،
بن السلطان الملك العادل سيف الدين أبي بكر محمد، بن أيوب،
وهو التاسع من ملوك
الدولة الأيوبية بالديار المصرية
ملك الديار المصرية والشام، بعد وفاة والده السلطان الملك
الصالح وكان مقيماً بحصن
كيفا، وما مع ذلك، منذ تركه والده هناك - كما تقدم. فلما مات
السلطان، اجتمع رأى
الأمراء على إقامته، وجهزوا لإحضاره الأمير فارس الدين
أقطاي، كما ذكرنا آنفاً.
وكان السلطان الملك الصالح، في مرض موته، قد كتب إلى ولده
الملك المعظم هذا كتاباً،
أسند فيه الملك إليه، واشتمل كتابه على جملةٍ من الوصايا. وقد
وقفت على الكتاب
المذكور - وهو بخط السلطان الملك الصالح بجملته. وقد رأيت
أن أشرح ما تضمنه، لما
فيه من الوصايا التي يتعين على الملوك التمسك بها والرجوع
إليها، والإعتماد عليها.
ابتدأ السلطان الملك الصالح كتابه هذا - الذي منه نقلت - بأن
كتب في طرته قبل
البسملة: والده أيوب بن محمد
بسم الله الرحمن الرحيم
الولد تورانشاه - أصلحه الله ووفقه يا ولدي، أنت تعلم ما سبب
تأخير طلبك إلا ما
أعلمه منك، من الصبيانية والجرأة وقلة الثبات. والملك ما
يحتمل هذا. والوالد ما يشتهى
لولده إلا الخير. والخصائل التي أعرفها منك اتركها، يدوم لك
الملك. وإن أنت خالفت أمري
وبقيت علي ما أعلمه منك، يروح منك الملك. واثبت في جميع
أمورك. وسن سيرتي في
العسكر. واترك الأشياء على ما هي عليه: كل أحد متولي الشغل
الذي هو فيه، ولا
تحدث حادث.
والوصية بجميع الأمراء، وأكرمهم واحترمهم، وأرفع منزلتهم.
فهم جناحك الذي تطير به،
وظهرك الذي تركن إليه. وطيب قلوبهم، وزيد في إقطاعهم.
وزيد كل أمير على ما معه من
العدة عشرين فارس. وأنفق الأموال. وطيب قلوب الرجال،
يحبوك وتنال غرضك في دفع

هذا العدو. ولا تؤاخذ بما جرى في دمياط، فهذا أمرٌ سماوي، ما لأحدٍ في هذا حيلة.
والأخ فخر الدين بن الشيخ ما عندي من أقدم سواه، فأكرمه، واحترمه كما تحترمني.
واجعله عندك كالوالد. واسمع قوله ورأيه ولا تخالفه. واجعل له من العدة مائتي فارس.
يا ولدي: الوصية بأم خليل، فلها عليّ من الحقوق والخدمة ما لا أقدر أصفه، ارعى جانبها
وأكرمها واحترمها، وارفع منزلتها، فهي عندي بمنزلةٍ عظيمة. وكنت طيب القلب
بصحبتها، آمناً على نفسي من جهتها، فاجعلها لك مثل الوالدة. واجتهد في اتصال الراحة
إليها، وطيب قلبها، واجعلها حاكمةً على جميع أمورك وأموالك. ولا يبدو منك كلمةٌ
تضيق صدرها، ولا توجع لها قلباً أبداً، ولا من يتعلق بسببها، ولا من يضيق صدرها
بسببه.
ولا تخرج عن رأيها وتدبيرها. وهذه وصيتي فلا تخالف أمري. واخدمها كما تخدمني،
واحترمها كما تحترمني. ولا تجعل على يدها يد. والوصية بجميع العيال، أحسن إليهم فلهم
علي خدمة. ولا تقصر في حق الصغير منهم والكبير. واحفظ وصيتي، فمتى خالفتني
يروح منك الملك، وتكون عاقاً لي. وكتبت هذه الوصية ولم يطلع عليها أحد، لئلا تضيق
صدورهم. وكتبتها في مدة طويلة.
واعلم يا ولدي أن الملك في ابتداء ملكه كمثل الشجرة في ابتداء طلوعها، فيأتي ريح يهب
عليها يحركها، وربما يقلعها من أصلها. فإذا مضت عليها الأيام والسنين قوي أصلها،
واشتد ساقها، فلا تحركها الرياح العواصف. فاعلم يا ولدي إشارتي، وتنبه لغرضي. وإن
ضاق صدرك من شخص فاحتمله، وأحسن إليه تحسن سيرتك، ويحبك عدوك. ولا
تعجل بالعقوبة. واعلم أن الناس أعداءٌ لبعضهم البعض، فلا تسمع كلام أحد دون أن تقابل
بينه وبين خصمه، ولو أتاك مقطوع اليد. فربما خصمه أسوأ حالاً منه. فإذا عرف هذا
منك، تقل الشكاوي والرفاعات، ويستريح خاطرك.
والذي أعرفك به يا ولدي: لما نزل العدو على زمن الشهيد - رحمه الله - على دمياط،

ما كان فيها سوى الوالي والكنانية، وأهلها حفظوها إلى أن وصل الشهيد من القاهرة،
وعسكر مصر من الشام. وما قدر العدو ينزل بر دمياط، وما كان فيها ذخيرة شهرٍ
واحد.
فلما اختلف العسكر على الشهيد - رحمه الله - وتحزبوا - مثل ابن المشطوب والأكراد
- مع الملك الفائز، غضب الشهيد، وساق إلى أشموم. وتبعه العساكر، وتركوا جميع الخيم
والقماش. وخرج من دمياط من خرج، والوالي.
وما بقي فهيا إلا أهلها. وغلقوها وقعدوا فيها وحفظوها، إلى أن مات أكثر من فيها
والباقي تكشحوا، وخلت الأصوار من المقاتلين. فصعدت الفرنج وأخذتها، بعد أن تعبوا
من النقوب من تحت الأرض، وشربوا بالبتاتي، والزحف عليها من جميع الجهات، وما
قدروا يأخذوها.
وأنا قويت دمياط، وملأتها ذخائر من كل شيء، يكفيها عشرين سنة، مع ما كان عند
أهلها من الذخائر. واكشف من الديوان يعرفوك ما كان فيها من الخيرات. وقويتها بجميع
عسكر الديار المصرية، من فارس وراجل، ونقدين وما خليت لها عذر، حتى بقيت
وحدي في أشموم بسبب المرض.
فلما أن أقبل العدو وشاهدوه وطلبوا البر بالحراريق، انهزموا وسلموا لهم البر، واشتغلوا
بالنساء ونقلهم من دمياط، وهربت العوام وتبعهم الأجناد. وكان المقدم عليهم الأخ فخر
الدين ساق خلفهم وردهم، وجعل على أبواب دمياط كل باب أمير. فلما أصبح، ما وجد
في المدينة أحد. هربوا الكنانية في الليل، وكسروا الخوخ ونزولوا من السور، وتركوا أموالهم
وذخائرهم نهبوها المسلمين بعضهم بعض. وأخلوا دمياط، حتى أخذتها الفرنج ثاني يوم.
وهذا كله بقضاء الله وقدره.. واصبر تنال ما تريد.
وهذا العدو المخذول، إن عجزت عنه، وخرجوا من دمياط وقصدوك، ولم يكن لك بهم
طاقةٌ وتأخرت عنك النجدة، وطلبوا منك الساحل وبيت المقدس وغزة وغيرها من
الساحل - أعطيهم ولا تتوقف، على أن لا يكون لهم في الديار المصرية قعر قصبة.

وإن نزلوا منزلة من تقدمهم من العدو قبالة المنصورة، فرتب العسكر يكونوا ثابتين خلف
الستاير مع البحر، ليل ونهار. فهم ما لهم زحفٌ إلا بالشواني، فقووا الشواني، كيفما
قدرتم. واجهدوا أن يكون بعض الحراريق على بحر المحلة من خلف مراكبهم، تقطع عنهم
الميرة. وهو يكون - إن شاء الله - سبب هلاكهم. فتلك المرة ما انتصر الشهيد - رحمه
الله - عليهم إلا من بحر المحلة.
وتكون العرب مع الخوارزمية مع ألفين فارس بينهم وبين دمياط. واستخدم، الفارس
والراجل. وأنفق الأموال ولا تتوقف. وإن كان الشرق لا ينجدوك لأجل الناصر وإسماعيل،
واشترطوا أن ترد عليهم بلادهم. ورأيت الغلوبية، ولا بد من ذلك وإلا ذهب الملك -
فالضرورات لها أحكام.
إعلم - يا ولدي - أن الديار المصرية هي كرسي المملكة، وبها تستطيل على جميع
الملوك. فإذا كانت بيدك، كان بيدك جميع الشرق. ويضربوا لك السكة والخطبة.
فاتفق أنت والأخ فخر الدين، وأرضى الناصر بما يطيب به قلبه. فالناصر ما أخرجه من
يدي إلا تغيري عليه، بسبب أوراقٍ كانت تصل إلي عنه أنه فعل وصنع. وكشفت عن
ذلك، ما رأيت لها صحة. فلما انقطع رجاه مني لتغيري، استند إلي إسماعيل وابن ممدود،
وجرى منهم ما جرى. كل ذلك من إسماعيل وابن ممدود، وهو يشاركهم في جميع ما
يفعلوه.
وأما الذي فعله معي على نابلس فما كان إلا مصلحةً عظيمة، أنا أشكره عليها. طلع بي
الكرك إلى أن ذهبت أيام القطوع. لولا ذلك أخذني إسماعيل، لأنه ضيق علي أرض الشام
بالعسكر في طلبي، فما فعل في حقي إلا خير. فهو كان السبب في خروجي، في الوقت
الذي كان قدر الله بتوجهي فيه إلى الديار المصرية بالملك. فلا يضيع له هذا القدر.
وكنت نويت له كل خير. فإن حصل بينكما اتفاق، وصفت نيته في محبتك، ووفي لك
باليمين، فخاطرك به مستريح في أمر الساحل. فما ذنوبه عندي ذنوب إسماعيل، الذي

بارزني، وأخذ مني دمشق، واعتقل ودلين وفعل في حقي ما فعل، وأعطى الساحل
والحصون التي فيه لعدو الدين، واستعان بالكفر علي، وعلى أخذ بلادي. فارضيه بشيء
يستعين به: بصري مع السواد، ولا تعطى له قلعة بعلبك.
وتحسن إلى أولاده وأهله، وينفذوا
إليه. فالله يقابل المسيء، ويجازي المحسن وأطلق المحتبسين كلهم، إلا من كان له تعلقٌ في
قبض عمك، أو مفسدٌ في الدولة.
فإن قدر الله لك بالنصر على هذا العدو المخذول، وأخذت دمياط - إن شاء الله تعالى
- ابني باشورة تكون طول قامة، وبسطة بشراريف، ورمامي من فوق وأسفل، وتكون
الباشورة عرض يتمكن القتال عليها، إما بالحجر أو بالطوب الأحمر، ويكون لها سلالم، بين
كل سلم وسلم ثلاثين خطوة. تعمل هذه الباشورة من قبالة برج السلسلة، قريب من الماء
البحر إلى البرزخ، إلى المكان الذي نزلوا فيه الفرنج، وفوق منه بثلاث رميات نشاب. ومن
آخر هذه الباشورة تحفر خندق، من البحر المالح إلى البحر الحلو، مثل ما حفره الشهيد
تلك المرة، بحيث إذا جاء العدو لا يقدر على الماء الحلو، ولا يبقى له منزلة ينزل فيها. وبين
كل سلمين لعبتين يرموا بالحجارة، والعسكر تقاتل من على الباشورة والمنجنيق والرماة ترمى
من خلف الباشورة من المرامي، ما يقدر أحد يقرب البر.
وعجبت كيف غفل عن هذا
الشهيد - رحمه الله - وعمل قلعة.
فهذه الباشورة فيها ألف مصلحة قسطها على الأمراء وعلى بيت المال والأسرى الفرنج
تعمل فيها. واجتهد في عملها تأمن على دمياط وتستريح وإن لم يخرج العدو من دمياط
وتطاول الأمر ينتظروا نجدة تصل إليهم، ازحف عليهم من بر دمياط ومن بر البرزخ،
بالفارس والراجل وبالشواني من البحر، لعل أن تملكوا بر البرزخ. فإذا ملكتوه ملكتم فم
البحر، ومنعتوا أن يدخل إليه مركب، أو يخرج.
ويا ولدي: قلدت إليك أمور المسلمين، فافعل فيهم ما أمرك الله به ورسوله. يا ولدي إياك
والشرب، فإن جميع الآفات ما تأتي على الملوك إلا من الشرب.
ولا تخالفني تندم، وتدخل

عليك العارض. فما يسقيك إلا من تأمن إليه، ولا يدخل عليك العارض إلا من القريب. يا
ولدي: وامنع المسلمين والنصارى أن يعصروا الخمر. وطهر العساكر من القحاب، والمدن.
ولا تجلس مع من يشرب، فيزين لك الشيطان فتشرب، فتكون قد خالفتني، وتدخل عليك
العارض. وأنا قد جربت الأشياء ووقعت فيها، وتحققت الخطأ من الصواب، وندمت وقت
لا ينفع الندم. فاجتنب يا ولدي ما حذرتك منه. فقد أخبرك مجرب صادق، مشفق عليك
وانظر يا ولدي في ديوان الجيش. فهم الذين أفسدوا البلاد وأخربوها - وهم النصارى -
أضعفوا العساكر، وكأن البلاد ملكهم يبيعوها بيع. إذا كتب منشور لأمير يأخذوا منه
المائتين وأكثر، ومن الجندي من المائة ونازل. ويكون الجندي خبزه ألف دينار يفرقوا خبزه
في خمس ست مواضع: في قوص وفي الشرقية وفي الغربية، فيريد الجندي أربع وكلاء، يروح
الخبز لوكلا. ومتى يحصل للجندي من خبزه شيء، إذا كان مثلاً في بيكار ويقاسي العليقة
بثلاثة نقرة، كيف يكون حاله ظ يخرب بيته ويهلك ! فهذا سبب هلاك الجندي.
والنصارى يقصدوا هذا، لخراب البلاد وضعف الأجناد، حتى تروح منا البلاد. وجندي
يحصل له وجندي ما يحصل له شيء أصلا.
ترد عبرة البلاد إلى ما كانت عليه في زمن صلاح الدين - رحمه الله. والجندي لا يكون
خبزه مفرق، بل في موضع أو موضعين قريبين. فتعمر البلاد ويقوى الجندي ويقوى الفلاح.
فإذا كانوا جماعة في بلد، وكل أحد يخرب من ناحية ويجور المقطعين على الفلاحين، تخرب
البلاد. وهذا كله فعل النصارى.
وبلغني أنهم بعثوا إلى ملوك الفرنج في الساحل في الجزائر، وقالوا لهم. أنتم ما تجاهدوا
المسلمين، بل نحن نجاهدهم الليل والنهار، بأخذ أموالهم ونستحل نساهم، ونخرب بلادهم
ونضعف أجنادهم. تعالوا خذوا البلاد، ما تركنا لكم عاقة. فالعدو معك في دولتك -
وهم النصارى. ولا تركن لمن أسلم منهم ولا تعتقد عليه، فما يسلم أحد منهم إلا لعلة،
ودينه في قلبه باطنٌ كالنار في الحطب !

يا ولدي، أكثر الأجناد اليوم عامة، وباعة وقزازين: كل من لبس قباءً وركب فرس، وجاء
إلى أميرٍ من هؤلاء الترك، وقدم له فرس، ويبرطل نقيبه وأستاذ داره على خبز جندي، من
جندي معروف بالشجاعة والحرب - طرده أميره، وأعطى خبزه لذاك العامي الذي لا ينفع
وأكثرهم على هذه الحالة. فإذا عاينوا العدو وقت الحاجة هربوا، وينكسروا العسكر.
لأنهم ما يعرفوا قتال، ولا هو شغلهم. فينبغي أن لا يستخدم إلا من يعرف يلعب بالرمح
على الفرس، ويرمى بالنشاب والأكرة، وتظهر فروسيته - حينئذ يستخدم.
واحفظ يا ولدي ما أقوله لك، فهذا جميعه ما عرفني به إلا الأخ فخر الدين، وأخبرني أنه
وقف على كتابٍ بخط صلاح الدين، أن الفيوم وسمنود والسواحل والخراج للأسطول.
فالأسطول أحد جناحي الإسلام. فينبغي أن يكونوا شباعاً.
ورجال الأسطول إذا أطلق
لهم كل شهر عشرين درهم مستمرة راتبه، جاؤوا من كل فجٍ عميق، ورجال معروفين
بالقذف والقتال. وإنما تجو وقت الحاجة تقبضوا ناس مستورين لهم أطفال وبنات، وهو
الذي يطعمهم ويسقيهم، تأخذوه في الأسطول ولا ينفع، تموت أطفاله بالجوع، ويدعو علينا !
كيف تنتصر على العدو ؟! وتأخذوا إلى البحر عند قبض الأسطول كل يوم ألف دينار،
لأنه يقبض من الصبح إلى المغرب، مساتير وبياعين وأرباب معايش، يجو أهاليهم إلى بيت
الوالي، كل أحد يزن الذهب ويخلص نفسه. والفقير الذي ماله قدرة تحدروه في المراكب.
فقد نبهت الولد على هذه الأشياء. والأخ فخر الدين عرفني بهذه الأحوال جميعها. فاسمع
ما بقوله لك.
الولد يتوصى بالخدام: محسن ورشيد والخدام المقدمين، لا تغيرهم. فما قدمت أحد من
الخدام ولا من المماليك إلا بعد ما تحققت نصحه وشفقته.
وأستاذ الدار وأمير جاندار
تتوصى بهم. وكذلك الحسام لا تغيرهم. فإني أعتمد عليهم في جميع أموري.
القيمرية، الولد لا يسمع كلام بعضهم في بعض. وناصر الدين عند كذب وخبث. وما

باطنه جيد. وقد عرفت الأخ فخر الدين الرسل الذي مسكوا من دمشق إلى حلب من
عنده. والحسام يكون بمفرده لا حل ولا ربط. وضيا الدين القيمري، إن احتاجوا إلى أن
يخرج عسكرٌ إلى جهة من الجهات، يكون مقدم. وناصر الدين أرجل لا يخرج مع عسكر.
وسيف الدين القيمري تعمل معه ما يقرر مع الأخ فخر الدين، يكون مقدم العسكر في
دمشق. وابن يغمور مشد، وناصر الدين على المظالم. فابن يغمور يصلح يكون مشد ووالي
وجابي الأموال، ولا يصلح يكون مقدم على عسكر، ولا يصلح لجنديه. ولا تؤمن إليه كل
الأمن. بل تمشي به الحال في مكان مدة، ثم ينقل إلى غيره. وهو بالكتاب أليق.
وكذلك قرائب فخر الدين عثمان كلهم لا يصلحوا لجندية. ابن العزيز الرأي عندي أن
تؤخذ جماعته، ويبقى هو ومماليكه بمفردهم، ويقطع له ولمماليكه، وحاشيته ودوره، ما يقوم
بهم من خاصة. فالأخ فخر الدين يعرف ما جرى منه، فهو نحس مفسد مخسخس. وقد
عرف الأخ فخر الدين حاله وما جرى منه في دمياط وغير دمياط، فما يصلح لصالحة.
متولي ديوان الأحباس اصرفه. وولي ابن النحوين فقد سألني المتصدرين ذلك. وطرائق بن
الجباب غير صالحة. والوكيل اصرفه. وولي ابن الفقيه نصر، فهو رجل جيد فقيه عنده
خوفٌ من الله.
وقد عينت في ورقةٍ عند الأخ فخر الدين عشرين من المماليك تقدمهم، تعطى لكل واحد
كوس وعلم، وتحسن إليهم.
وتتوصى بالمماليك غاية الوصية. فهم الذي كنت أعتمد عليهم، وأثق بهم. وهم ظهري
وساعدي. تتلطف بهم، وتطيب قلوبهم، وتوعدهم بكل خير. ولا تخالف وصيتي. ولولا
المماليك ما كنت قدرت أركب فرس، ولا أروح إلى دمشق، ولا إلى غيرها. فتكرمهم
وتحفظ جانبهم.
فهذه وصيتي إليك، فاعمل بما فيها ولا تخالف وصيتي. وكل يوم طالعها، واقف عليها.
ولا تعمل شيء دون أن تشاور الأخ فخر الدين. والله يقدر بما فيه الخير - إن شاء الله
تعالى.

يا ولدي، إن ألزموك - الحلبيين - أن تدفع الكرك إلى الناصر، فأعطه الشوبك. وإن لم
يرض زده من الساحل، حتى يرضي. ولا تخرج الكرك من يدك.
الله الله احفظ وصيتي.
فلا تعلم ما يكون من هذا العدو والمخذول، لعله - والعياذ بالله - أن يتقدم إلى مصر يكون
ظهرك الكرك، تحفظ فيه رأسك وحريمك، فمصر مالها حصن. ويجتمع عندك العسكر
وتتقدم إليهم، تردهم عن مصر. وإن لم يكون لك ظهر مثل الكرك، تفرقت عنك العساكر.
وقد عزمت أن أنقل إليها المال والذخائر والحرم، ولك شيء أخاف عليه، واجعلها ظهري.
والله ما قوي قلبي واشتد ظهري، إلا لما حصلت في يدي.
الحمد لله وحده، وصلواته على سيدنا محمد نبيه - وآله وصحبه - وسلامه
هذا آخر ما تضمنه كتاب الوصية. وقد نقلته بنصه وهيئته - على ما فيه من لحنٍ في
بعض ألفاظه، ونقص ألفات في بعضه.
ولم يعتمد الملك المعظم ما أوصاه به، ولا رجع إليه ولا عرج عليه، بل خالفه في جميع ما
تضمنته وصيته. وكان من أمره، وزوال ملكه، ما نذكره.
ولنرجع إلى سياقة أخبار الملك المعظم:
قال: ولما وصل إليه الأمير فارس الدين، وهو بحصن كيفا، رحل وسلك البرية. وأخفى
أمره عن الملوك المجاورين له. خشيةً من غائلتهم. وترك بالحصن ولده الملك الموحد، وسار
حتى انتهى إلى دمشق.
فكان وصوله إليها في يوم السبت، سلخ شهر رمضان، سنة سبع وأربعين وستمائة. وعيد
بها عيد الفطر. وخلع وأنعم على الأمراء، وأقر الأمير جمال الدين موسى بن يغمور على
النيابة بدمشق. وأفرج عن كل من كان في حبس والده. قال أبو المظفر: وبلغني أنه كان
بدمشق ثلاثمائة ألف دينار، فأخذها صحبته، وتجهز إلى الديار المصرية.
وكان رحيلته من دمشق في الخامس والعشرين من شوال، منها. وكان سبب تأخره
بدمشق، هذه المدة، أن الأمير فخر الدين يوسف بن الشيخ كان قد سير إليه جماعة من
المماليك الصالحية، يستحثه على سرعة الحضور. فأوهمه بعضهم أن فخر الدين حلف

العساكر لنفسه، وأنه متى حضر قتله، واستقل بالأمر. فأنفق الملك المعظم الأموال بدمشق،
واستحلف العساكر. وحلف المماليك الذين حضروا من جهة الأمير فخر الدين، على قتل
فخر الدين. فحلفوا له. فاتفق قتل فخر الدين قبل وصول الملك المعظم، كما تقدم.
وجهز الملك المعظم كاتبه - معين الدين، هبة الله بن أبي الزهر حشيش - إلى قلعة
الكرك، في مستهل ذي القعدة. فحقق ما بها من الأموال والذخائر، وحمل إليه من حاصلها
مائتي ألف دينار، عيناً، مما كان الملك الصالح قد نقله إليها.
ولحق معين الدين السلطان إلى
الرمل. وكان نصرانياً فوعده بالوزارة، فأسلم. ووصل السلطان إلى العساكر الديار المصرية،
بمنزلة المنصورة - في يوم الثلاثاء سابع عشر ذي القعدة، من السنة.
ولما وصل، وضع يده على ما سلم مت تركة الأمير فخر الدين يوسف ابن الشيخ، وأخذ
مماليكه الصغار، وبعض قماشه - وثمن ذلك بخمسة عشر ألف دينار - وهي دون نصف
القيمة، فيما قيل. ولم يعوض الورثة عن ذلك شيئاً، فإنه قتل قبل ذلك.
ذكر عدة حوادث كانت في سنة سبع وأربعين وستمائة، غير ما تقدم
في هذه السنة تأمر بمكة - شرفها الله تعالى - أبو سعد علي بن قتادة، وذلك في العشرين